

شعر النقائض في السيرة النبوية

تأليف

دكتور شوقي رياض أحمد

كلية الآداب جامعة القاهرة

كلية التربية للبنات بالرياض

الطبعة الأولى

١٤٠٨هـ-١٩٨٧م



شعْرالنقائضْ

في السّيرة النبويّة

تأليف

دكتور شوقي رياض أحمد

كُليّة الآداب جامعة القاهرة

كُليّة التربية للبنات بالرياض

الطبعة الأولى

١٤٠٨هـ-١٩٨٧م

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدّمة ..

كانت دراستي التوثيقية لشعر السيرة النبوية، فاتحة لأبواب ذلك الكنز الأدبى الكامن بين صفحاتها، والذى لم يلق من الدارسين ما يستحقه من عناية واهتمام. ويبدو أن تلك المقولة الشائعة فى أوساطهم، عما يكتنف هذا التراث من شكوك أحاطت به، وضعف فى قيمته الفنية، هى التى صرفتهم عن تناوله بالبحث والدرس. ولما كانت دراستي التوثيقية قد أوقفتني على حقيقة تلك المقولة، وما انطوت عليه من مغالاة وتضخيم، فإنه لم يعد ثمة حائل يحول دون دراسة هذا الشعر، أو مثبط يصرف عن تناوله بالبحث.

وقد وجدت فى نقائض السيرة العطرة ظاهرة أدبية متميزة، لها سماتها واتجاهاتها البارزة، التى تغري الباحث. ووجدت من سبقني إلى دراستها، إلا أنها كانت دراسة عامة، اكتفى فيها أستاذنا «أحمد الشايب» بالوقوف على خطوطها الرئيسية فى إطار دراسته الشاملة عن «تاريخ النقائض فى الشعر العربى». وتقديراً منه لأهميتها أبدى توجيهه وحثه على تناولها فى دراسة أوسع وأشمل، فكان ذلك مشجعاً لي على اقتحام هذا المجال، مؤملاً سبر أغواره والوقوف على أبعاده.

واقتضت طبيعة الموضوع أن يكون منهج دراسته تاريخياً أدبياً، لارتباط النقائض بأحداث السيرة ووقائعها، وامتداد جذورها إلى العصر الجاهلى. وعلى أساس ذلك رأيت البدء بتناول العوامل المؤثرة فى هذه النقائض فى الفصل الأول، فبدأتها بالعوامل الجاهلية الموروثة، والتى قامت عليها مناقضات الشعراء في الجاهلية، وهي عوامل بيئية واجتماعية، شكلت طبيعة حياة العرب وتقاليدهم وأعرافهم، وشيمهم الخلقية، وقيمهم الإنسانية. وكانت العصبية القبلية هى الإطار الذي احتوى كل ذلك، وهي التي أدت إلى نشوب النزاعات والحروب، فهيأت لظهور المناقضات بين

الشعراء المنتمين لأطراف النزاع، وكان حظ المدينة منها موفوراً، بينما كان حظ مكة المكرمة منها أقل كثيراً. ولكل ذلك أثره الواضح فى نقائض السيرة.

وثنيت على ذلك بتناول العوامل الإسلامية المحدثة، التى تمثلت فى عقيدة الإسلام، وما صاحبها من تغيرات روحية وفكرية وعملية، ومن مجادلات بين الرسول صلى الله عليه وسلم ومعارضيه من قومه، وغيرهم من العرب وأصحاب الديانات السماوية، وتدخل الوحى الإلهي فى هذه المجادلات لتبيان كلمة الحق الفاصلة، وكشف مزاعم الباطل المضللة، وما أدى إليه ذلك من صحوة ذهنية وروحية طبعت آثارها على مناقضات الشعراء.

وفى دراستي لشعر النقائض، قسمتها إلى خمسة فصول، أربعة منها للدراسة التاريخية والموضوعية، وخامسها للدراسة الفنية. وكان تقسيم الفصول الأربعة حسب المراحل التاريخية، فأولاها مرحلة إثبات الوجود الإسلامى (من العقبة إلى بدر) وثانيتها مرحلة الحفاظ والثأر (بعد بدر إلى أحد) وثالثتها مرحلة العداء الجماعي للإسلام (بعد أحد إلى الخندق) ثم المرحلة الرابعة والأخيرة، وهى مرحلة الفتح والانتشار (قبل فتح مكة المكرمة وبعده).

وفى كل فصل من هذه الفصول، تتبعت الأحداث التاريخية للمرحلة ببعض التفصيل، الذي يهيئ لعرض ما قيل فيها من نقائض. وفى ضوء هذه الأحداث تناولت أشعار معظم هذه النقائض بالتحليل الموضوعي، مع الشرح اللغوي فى الهامش للألفاظ التى تحتاج إلى شرح، وتوضيح ما يلتبس فهمه من أمور.

وفى نطاق هذا التحليل الموضوعي، عرضت لموضوعات النقائض، والظروف المحيطة بها وبقائليها، واتجاهاتهم ومواقفهم العقائدية والفكرية، والعناصر التى بنوا عليها مناقضاتهم، وطريقة كل منهم فى معالجتها، ومدى ما حققه من توفيق أو فشل.

وتناولت فى خلال ذلك النقائض التى حامت حولها شكوك قوية، محاولاً الوصول إلى الحكم السليم، أو الأقرب إلى السلامة بصددها، على أساس من العوامل والظروف المحيطة بها وبقائليها، وتمحيص مادتها الأدبية، فى إطار الرؤية الشاملة لشعر هذه الفترة ومستواه الفني، وما تعرض له من دواعي النحل.

ووقفت على بعض النقائض المنفردة، التى تحمل من الدلالات ما يؤيد وجود نقائض مقابلة لها، ولكنها لم تصل إلينا، وأسقطت روايتها لأسباب ترجع إلى ما تضمنته من هجاء أو تعريض بالرسول صلى الله عليه وسلم وصحابته الأخيار، أو غير ذلك من أسباب الفقد والضياع.

ومع تتابع هذه المراحل، وتغير الظروف والأحداث فى كل مرحلة منها عن الأخرى رأينا شعراء ثابتين فيها جميعاً، كحسان بن ثابت وكعب بن مالك، وشعراء شاركوا في معظمها كعبد الله بن الزبعري وضرار بن الخطاب، وشعراء شاركوا في مرحلتين أو مرحلة واحدة، وهم كثيرون يعدون بالعشرات.

وبعد هذا العرض الموضوعي والتاريخى للنقائض فى مراحلها المتتابعة، تناولت في الفصل الأخير، خصائصها الفنية من حيث الشكل والمضمون، ففي خصائص الشكل بينت ما فيها من غلبة المقطعات والقصائد القصيرة، وقلة القصائد المتوسطة والطويلة، ثم عرضت لبناء النقيضة، ونزوع الشعراء إلى الدخول المباشر في موضوع المناقضة، دون مقدمة تقليدية، إلا في حالات قليلة محدودة. وكذلك التزام الشعراء بالوزن والقافية في ردهم على خصومهم، إلا في نقائض قليلة. وحددت الأوزان التى نظموا فيها، وما ظهر في موسيقاهم الشعرية من عيوب. ثم تناولت الألفاظ والأساليب، وما اتسمت به من سمات تميزها عن شعر من سبقهم، ويظهر فيها التأثير الإسلامى. وناقشت ما دار حول هذا الجانب من آراء مختلفة، وصولاً إلى الرأي الصحيح.

وفي خصائص المضمون عرضت لعناصر التصوير التى استخدمها الشعراء، من تشبيه واستعارة وكناية، وما يسمها من تعلق بالمحسوسات المادية في بيئتهم، ودرجة كثرتها أو قلتها، وما ظهر فيها من تكرار وارتباط بالتراث الجاهلي، وكذلك ما طرأ عليها من جديد يتصل بالإسلام. وعرضت أيضاً للمحسنات البديعية التى استخدموها على قلة وعفوية. ثم تناولت أثر الإسلام فى المعانى والأفكار، وما دار حول هذه القضية من آراء القدماء والمحدثين، لتبين وجه الحقيقة الذي وضحت ملامحه في نقائض الشعراء المسلمين، والذي يبرز القيمة الفنية لشعرهم، ويصحح النظرة إليه، ويضعه في مكانته اللائقة به.

وبعد .. فإن ما قمت به من جهد فى هذا البحث ليس إلا قليلاً من كثير، يستوجبه علينا هذا التراث الغالى، فإن أكن وفقت فهذا فضل من الله، وإن كان ثمة خطأ، فلن أحرم أجر المجتهدين، إن أجري إلا على الله، عليه توكلت، وإليه أنيب.

د. شوقي رياض أحمد

القاهرة في: ٢٦ ذو الحجة ١٤٠٧هـ.

١٠ أغسطس ١٩٨٧م.

الفصل الأول
العوامل المؤثرة في شعر النقائض

(١) عوامل جاهلية موروثة:

قامت حياة العرب في جاهليتهم على أرض صحراو ية في أغلبها، جبلية في بعض أجزاء منها، وهي بيئة يغلب عليها الجفاف والجدب، و يقل فيها الماء والخصب، فالأمطار نادرة على معظم أنحائها، قليلة على بعض أطرافها القر يبة من البحر، أو الجبلية المرتفعة، حيث تؤثر العوامل الطبيعية المختلفة بين أرجاء شبه الجز يرة العربية الواسعة، على تفاوت كميات المياه التي تحملها السحب الممطرة من منطقة إلى أخرى، وحيث تؤدي تجمعات المياه التي تتشربها رمال الصحراء، وتختزنها في جوفها إلى وجود الآبار والعيون المتناثرة في مواضع متباعدة من الصحراء الشاسعة، ليستقى منها السكان، وليسقوا إبلهم وأنعامهم.

ونتيجة لقلة المياه، كانت الحياة النباتية فقيرة بوجه عام، يغلب عليها العشب والكلأ، و بعض الشجيرات التي تجود بها البيئة مثل السدر والأثل والحنظل والسلم وغيرها، مما أتاح لقاطنيها قيام حياة رعوية بدو ية. وإن قامت بعض القرى في مواطن قليلة تكثر فيها المياه نسبياً، وتتيح لهم بعض الزراعات وأشجار الفواكه التي تناسب البيئة، وعلى رأسها النخلة، التي تعد أهم شجرة في الجز يرة كلها[١].

في هذه البيئة الفقيرة قامت حياةالعرب، وتوزعت قبائلهم بين ر بوعها وهي حياة تمثلت فيها ظاهرتان طبيعيتان. أولاهما: الفقر الحسى والعلمى الناتج عن فقر البيئة وقسوتها وقلة خيراتها، وعدم الاستقرار فيها، مما لايهيئ لوجود التفكير العلمي، أو إقامة معاهد للدراسة، فقصارى ما كان عندهم معارف تجر يبية وأساطير وخرافات[٢].

---

(١) انظر تفصيلات ذلك فى العصر الجاهلى للدكتور شوقى ضيف ص ١٧ ــ ٢١، وتار يخ العرب قبل الإسلام لجواد على جـ ١ ص ٨٦ ومابعدها ط، بغداد.

(٢) انظر تار يخ النقائض لأحمد الشايب ص ٣١ ــ ٣٢. والعصر الجاهلى للدكتور شوقى ضيف ص ٧٦ ومابعدها.

والظاهرة الثانية هي الغنى النفسي، والتشبث بالحرية إلى أبعد الآماد والنفور من الذلة والخضوع لقوانين حكومية، فالعربي حين حرم الحياة المادية القانعة، نشأت في نفسه حساسية ثائرة، ونزعة غلابة جعلته ينفر من ذل آخر بجانب قسوة الطبيعة. فتحلل من مظاهر الخضوع وتعلق بالحرية تعلقاً، جعله يؤثرها مع فقرها على الغنى الذليل[1].

وكان من الطبيعي في هذه البيئة أن تنشأ التجمعات القبلية، التي يجد فيها الأفراد حمى وملاذاً من الأخطار المحدقة بهم من كل جانب، سواء كانت أخطار الطبيعة القاسية، أو أخطار العدوان من القبائل الأخرى ومن صعاليك الصحراء ولصوصها؛ ومن ثم كان ارتباط الأفراد بقبائلهم قوياً وثيقاً، يصل إلى حد التعصب الشديد، فهم يدركون أن تحللهم من هذه الرابطة يعنى فناء الجميع، أو فقدانهم حريتهم التي يحرصون عليها أشد الحرص، ويعتزون بها أيما اعتزاز. وخضوعهم لسيطرة القبائل القوية، ليعيشوا أذلاء مقهورين، وهذا ما تأباه نفوسهم، وترفضه رفضاً قاطعاً، فخير لهم أن يموتوا شرفاء في سبيل مجد القبيلة، من أن يعيشوا أذلاء مقهورين، وتتمثل قوة الرابطة القبلية في أشعار شعرائهم على نحو مانجد في قول دريد بن الصمة[2]:

وما أنا إلاّ من غَزِيَّةَ إن غوتْ غَوَيْتُ وإن تَرشدْ غزيةُ أرشد

وأدى هذا الانتماء القبلي إلى حرص كل فرد على الانتساب لقبيلته حرصاً شديداً، ليحفظ مكانه بينها، ويكون له من الحقوق ما لأبنائها الصرحاء. وعليه من الواجبات ماعليهم، فهو يرى في ذلك أساس عزته وكرامته وشرفه. ولعل هذا مايفسر لنا حفظ القبائل لأنسابها جيلاً بعد جيل.

والعناية بالأنساب[3] أصولها وفروعها وسلاسلها، ظاهرة بدوية قديمة، تحرص عليها

---

(١) نفس المصدرين السابقين.

(٢) الأصمعيات ص ١١٢، ط دار المعارف.

(٣) راجع فى الأنساب كتب: الأنساب للسمعانى، وأنساب الأشراف للبلاذرى، ونسب عدنان وقحطان للمبرد، والمعارف لابن قتيبة، وجمهرة أنساب العرب لابن حزم، وغيرها من المصادر.

الجماعات الأولى لتكوين العصبيات القبلية أو الجنسية، احتفاظاً بالقربى، وتوفيراً للوحدة والمعاونة، ونفياً للغريب وتنظيماً لمسائل الإرث والزواج، وعرفانا لمواطن الشارات، ودفعاً لعدوان المنافس والمغالب، لتعيش القبيلة عزيزة الجانب، آمنة مذلة الجيران والعادين، متعاطفة الآباء والأبناء، وهي بعد ذلك تعرف مفاخرها وأيامها، فيسجلها شعراؤها، ويناقضون بها خصومهم من شعراء القبائل الأخرى[1].

يقول ابن خلدون «إن صلة الرحم طبيعي في البشر، إلا في الأقل، ومن صلتها النصرة على ذوي القربى وأهل الأرحام، أن ينالهم ضيم، أو تصيبهم هلكة، فإن القريب يجد في نفسه غضاضة من ظلم قريبه، أو العداء عليه، ويود لو يحول بينه وبين ما يصله من المعاطب والمهالك، نزعة طبيعية في البشر مذ كانوا»[2].

ويذهب بعض الباحثين إلى إنكار الأنساب العربية، ويعدونها وهماً باطلاً اخترع بعد الإسلام، لعوامل دينية وسياسية واقتصادية واجتماعية[3]، ولا مجال هنا لطرح هذه القضية، أو مناقشتها مناقشة تفصيلية، وإنما نخرج بخلاصة القول فيها، وهو أن الإنكار التام لهذه الأنساب، وعدها وهماً باطلاً، هو قول يتسم بكثير من التعسف والمغالاة، ولايقيم وزناً للواقع الاجتماعي الذي كانت تعيشه القبائل العربية في جاهليتها وبدويتها. وأن علمهم بأنسابهم وحفظهم لها، هو أمر كانت تمليه طبيعة الحياة التي كانوا يعيشونها. ولكننا مع ذلك لانذهب إلى القول بصحة هذه الأنساب صحة مطلقة، فهناك كثير من مظاهر الدخالة في أنساب بعض القبائل والأفراد ذكرتها المصادر القديمة، وكانت لها أسبابها النابعة من واقع الحياة البدوية من حلف أو جوار أو ولاء، وغير ذلك من الأسباب. ولكن ذلك لايقودنا إلى تعميم الشك في الأنساب أو إنكارها.

ويرى ابن خلدون أن الصريح من النسب إنما يوجد للمتوحشين في القفر من

(١) تاريخ النقائض ص ٤٨.

(٢) مقدمة ابن خلدون ص ١٢٨، ط دار إحياء التراث العربي — بيروت.

(٣) انظر ماكتبه الدكتور طه حسين فى فلسفة ابن خلدون الاجتماعية ص ١٠، وذكرى أبى العلاء ص ١٣٥.

العرب، ومن في معناهم، لما اختصوا به من شظف العيش، فلا ينزع إليهم أحد من الأمم، يساهمهم في حالهم أو يأنس بهم، فيؤمن عليهم لأجل ذلك من اختلاط أنسابهم وفسادها، ولا تزال بينهم محفوظة صريحة، واعتبر ذلك في مضر من قريش وكنانة وثقيف وبني أسد وهذيل ومن جاورهم من خزاعة، لما كانوا أهل شظف ومواطن غير ذات زرع ولا ضرع، وبعدوا عن أرياف الشام والعراق، ومعادن الأدم والحبوب، كيف كانت أنسابهم صريحة محفوظة، لم يدخلها اختلاط، ولاعرف فيهم شوب. وأما العرب الذين كانوا بالتلول، وفي معادن الخصب للمراعي والعيش، من حمير وكهلان، مثل لخم وجذام وغسان وطيئ وقضاعة وإياد، فاختلطت أنسابهم، وتداخلت شعوبهم، ففي كل واحد من بيوتهم من الخلاف عند الناس ماتعرف، وربما جاءهم ذلك من قبل العجم ومخالطتهم، وهم لا يعتبرون المحافظة على النسب في بيوتهم وشعوبهم، وإنما هذه للعرب فقط[1] فهو إذن يؤمن بصحة النسب وصراحته في القبائل المتبدية أو الممعنة في القفر، أو التي كانت في شظف من العيش، بينما يرى تداخل الأنساب في القبائل المقيمة في الخصب نتيجة تأثرهم ومخالطتهم للعجم، ولا يعني ذكره لأسماء بعض القبائل الصريحة النسب، أنها وحدها التي توصف بذلك، وإنما يعنى أن من كان على مثل حالها من القبائل الأخرى يمكن أن يوصف بذلك أيضاً. وعلى هذا القياس ينظر إلى القبائل المتداخلة الأنساب.

ومهما قيل عن التداخل في أنساب بعض القبائل، فإن الظاهرة العامة أو الغالبة على عرب الجاهلية أنهم كانوا يتمسكون بهذه الأنساب، وعنهم ورثها أبناؤهم في الإسلام، وهي تؤلف علماً واسعاً عند العرب هو علم الأنساب، وكأنهم رأوا في النسب مانراه نحن الآن في الوطن، فكل قبيلة تؤمن بنسبها وتعتز به، وبأنها تعود إلى أصل واحد، فهي من دم واحد ولحم واحد، ومن أجل ذلك عبروا عن القرابة باللحمة، كما عبروا عن عشائرهم وفروعهم بالبطن والفخذ[2].

ولاريب في أن التمسك بالأنساب هو قوام العصبية القبلية، التي تعد أبرز مظهر

(١) مقدمة ابن خلدون ص ١٤٤، ط التقدم.

(٢) العصر الجاهلى ص ٥٧.

من مظاهر الحياة الاجتماعية والسياسية عند الجاهليين. فهم لم ينفذوا إلى فكرة الأمة العربية أو الجنس العربي، ليجتمعوا تحت لواء واحد، أو يشملهم نظام سياسي موحد تتلاشى فيه الوحدات القبلية. وحتى بعد مجيء الإسلام ومحاولاته القضاء على العصبية القبلية، أو الحد منها وإضعافها، ليحل محلها فكرة الأمة، التي يعلو فيها السلطان الإلهي على السلطان القبلي وعلى كل شيء، ولتصبح الرابطة الدينية لا الرابطة القبلية هي التي توحد بين الناس[1]. فإن العرب لم يستطيعوا التخلص تماماً من عصبياتهم القبلية، وإذا كانت قد توارت حيناً، أو قلمت أظافر شرها، أو هذبت ووجهت إلى غايات خيرة، فإنها كانت تعود جذعة شرسة كلما تهيأت لها الظروف الملائمة، من خلافات ونزاعات وثورات يزخر بها التاريخ.

وقد هيأت هذه الحياة القبلية، بما اتسمت به من فقر مادي غالب، ومن غنى نفسي ماثل في الاعتزاز بالحرية والكرامة، ومن تعصب شديد للقبيلة، هيأت هذه الحياة لنشوب الحروب بين القبائل، لأسباب تبدو تافهة في غالب الأحيان، ولكنها سرعان ماتتطور إلى عداء وسفك دماء، ثم إلى حرب طاحنة بين قبيلتين، وقد تزداد اشتعالاً بدخول قبائل أخرى في أتونها، وتتعدد أيامها وتتوالى. ولانجد قبيلة عربية كانت بمنجاة من هذه الحروب، وكأنما أصبح سفك الدماء سنة من سننهم، فهم دائماً قاتلون مقتولون، لا يفرغون من دم إلا إلى دم، فالأخذ بالثأر هو شريعتهم المقدسة، التي يدين بها كل فرد من أفراد القبيلة، ولايملك أن ينقضها بأي حال من الأحوال، وإلا عرض نفسه للهوان والازدراء والتحقير، بل أشد من ذلك نكيراً. وليس لأحد من أبناء القبيلة أن يخل بالتزامه نحوها، وتأدية واجبه في القتال معها دون أن يناقش الأسباب. فالكل لاحق بها سواء عن رضا أو عن كراهية، ويصور الشاعر هذه الحال فيقول[2]:

الشيء يبدؤه في الأصل أصغرُهُ　　　وليس يصلَى بكلّ الحرب جانيها

---

(1) العصر الإسلامي ص ١٩، وتاريخ الدولة العربية لفلهوزن ــ ترجمة د.محمد عبد الهادي أبو ريدة ص ٦.

(2) حماسة أبي تمام ــ شرح المرزوقي جـ ١ ص ٤٠٧.

والحرب يلحق فيها فيها الكارهون كما تدنو الصحاحُ من الجربَى فتُعديها

ويشارك الشعراء ــ بطبيعة الحال ــ في هذه الحروب، التي عرفت بأيام العرب، مستخدمين سلاحهم الشعري في الذود عن القبيلة، وإثارة الحماس في أبنائها والإشادة بأمجادها، والفخر بانتصارها، وهجاء خصومها، وفضح مثالبهم، ومعايرتهم بالهزائم. وتصبح الحرب الكلامية سجالاً بين شعراء القبائل المتنازعة، كل يذب عن قبيله، وينقض مايقوله شعراء الخصوم عنها، ومن هنا نشأت النقائض[1] في شعرهم، ونمت وترعرعت في هذا الجو المشبع بالخصومات والمنازعات، والحروب والأيام.

وإذا كانت هذه هى الحالة العامة التي شملت قبائل العرب جميعها، قحطانيها وعدنانيها في جاهليتهم، فإن الذي يعنينا هنا أن نقف على مدى تمثل هذه الظاهرة بصورة أكثر تفصيلاً بين القبائل التي دارت بينها نقائض السيرة النبوية، وهى أساساً القبائل التي كانت تقطن مكة المكرمة والمدينة المنورة وماحولها في تلك الفترة.

في مكة المكرمة كانت قريش ومن جاورها من كنانة وخزاعة، ولكن قريشاً هى التي كانت قائمة بأمر الكعبة، وهى التي تزعمت مقاومة محمد نبي الإسلام منذ ظهوره بالدعوة فيها، وتطور موقفها إلى عداء وحرب بعد خروجه منها، وتولى شعراؤها حرب الكلام والشعر، ومناقضة شعراء المسلمين في المدينة المنورة.

ولم تكن لقريش في جاهليتها حروب وأيام ذات خطر، كحروب القبائل الأخرى، فما يذكر لها من ذلك هو أيام الفجار[2]. بين كنانة وفيها قريش، وبين

---

(١) النقائض: جمع نقيضة، وهى مأخوذة فى الأصل من نقض البناء إذا هدمه، والحبل إذا حله، والعهد إذا خالفه، وناقضه فى الشيء مناقضة ونقاضاً: خالفه. والمناقضة فى القول: أن يُتكلم بما يناقض معناه. والمناقضة فى الشعر: أن ينقض شاعر ما قاله آخر، بضد ما جاء به الأول. والنقيضة: أن يقول شاعر شعراً، فينقض عليه شاعر آخر حتى يجيء بغير ما قال (لسان العرب والقاموس المحيط، مادة نقض).

(٢) سميت بالفجار لأنها كانت قتالاً فى الأشهر الحرم، ففجروا فيها جميعاً. (انظر تفاصيل أيام الفجار فى ابن الأثير جـ ١ ص ٤٣٩ وما بعدها والأغانى جـ ١٩ ص ٧٤ ــ ٨٠، ط بولاق وفى العقد الفريد جـ ٣ ص ٣٦٨ وما بعدها، وأيام العرب فى الجاهلية ص ٣٢٢ وما بعدها).

قيس عيلان، من هوازن وعامر وسليم، وهى أربعة فجارات، لم يكن في الأول والثالث منها قتال، بينا وقع في الثاني قتال يسير، انتهى بصلح. أما رابعها فقد وقع فيه قتال شديد، وتعددت وقائعه في أيام: نخلة، وشمطة، والعبلاء، وعكاظ، والحريرة، وتراوح النصر والهزيمة بين الفريقين، ثم تداعوا إلى الصلح، وقد شارك النبي صلى الله عليه وسلم في بعض وقائع هذا الفجار الرابع، وهو في الخامسة عشرة من عمره تقريباً، وكان ينبِّل على أعمامه حسب قوله[١]. ولم تطل الفترة التي استغرقتها هذه الوقائع، فلم ينتج عنها نقائض شعرية تذكر، وإن قيلت فيها بعض الأشعار في الحماسة والرثاء لخداش بن زهير العامري وضرار بن الخطاب القرشي وغيرهما.

فقريش كانت بعيدة إلى حد كبير عن تلك الحروب الدامية المستمرة، والتي كانت ظاهرة شائعة بين القبائل العربية، ولعل اعتصامها بالبيت الحرام، وقيامها على شئونه، وما أكسبها ذلك من مكانة دينية واحترام في نفوس العرب، ثم ما كان من انشغالها بتجارتها، التي هى مورد رزقها الرئيسي، لعل هذين السببين أبعداها عن النزاعات مع القبائل الأخرى، فلم تقع في حروب معها، تقتضي نشوب معارك شعرية، أو تثير حماسة الشعراء إلى القول، وهذا ماعناه ابن سلام حين رد خمود الشاعرية القرشية في الجاهلية إلى أنه «لم يكن بينهم ثائرة ولم يحاربوا»[٢].

ولكن ذلك لا ينفي تأثير العوامل الجاهلية الأخرى في نفوسهم من عصبية قبلية، واعتزاز بالحرية، وإحساس مرهف بالكرامة وإباء الضيم، وأخذ بالتقاليد والأعراف الاجتماعية، التي أفرزتها الحياة القبلية بكل حسناتها وسوءاتها؛ فكانت نفوسهم مهيأة لخوض معارك المناقضات الشعرية، إذا توافرت دواعيها، واكتملت بواعثها، على النحو الذي ظهر في حربهم ضد المسلمين في المدينة .

أما في المدينة (يثرب) فكانت قبيلتا الأوس والخزرج، ومن جاورهما من قبائل

---

(١) ينبل عليهم أى يرد عليهم نبل عدوهم إذا رموهم بها (انظر السيرة ق ١ ص ١٨٦).

(٢) طبقات الشعراء ص ١٠٢، ط مصر.

اليهود؛ قريظة والنضير وقينقاع، وكانت بين الأوس والخزرج حروب وأيام[1] كثيرة على امتداد زمن طويل في الجاهلية، وهي أيام: سمير وكعب بن عمرو والسرارة وفارع والبقيع والجسر (مضرس ومعبس) وحاطب والربيع، وآخرها يوم بعاث قبل الهجرة بخمس سنوات[2]. ودارت فيها وقائع شديدة، سفكت فيها دماء كثيرة، ولولا الشروط التي التزموا بها للحد من شرها وللحفاظ على القرابة والجوار لأفنتهم جميعاً.

ولعل وجود اليهود في المدينة وماحولها، كان عاملاً مؤثراً في إذكاء نار هذه الحروب، وفي إثارة الفتنة بين هاتين القبيلتين العربيتين، حتى تظلا في عداء وتناحر، وتضعف الحرب قوتها، ولا تجتمع لها كلمة، أو تربط بينها وحدة، فلم ينس اليهود، أنها قد زاحمتاهم في يثرب، ونزلتا فيها عنوة بعد حرب ساعدهما فيها أبناء عمومتهم الغساسنة، إذ جاء أبو جبيلة الغساني إلى مدينتهم، فقتل زعماء اليهود، وأزاح قبائلهم عنها، ومكن للأوس والخزرج فيها، بعد أن كانتا تنزلان على ثلاثة أميال منها، في جهد وضيق في المعاش، بينما كان اليهود ينزلون في يثرب، ويمتلكون نخيلها وزرعها[3].

ولم يسلم اليهود من شر فتنتهم، ولم يستطيعوا أن ينأوا بأنفسهم عن هذه الحروب، التي جرتهم إلى أتونها ليصلوا بسعيرها، فشاركوا في بعض أيامها، ولم يكونوا متحدين في كلمتهم، فحالف بعضهم الخزرج، وحالف الآخرون الأوس، وتغيرت مواقفهم حسبما تمليه مصالحهم وأهدافهم.

وقد هيأت هذه الحروب الضارية لنشوب المعارك الشعرية بين شعراء الفريقين، ودارت بينهم نقائض كثيرة، شارك فيها عديد من الشعراء فمن الأوس كان قيس بن الخطيم، وأبو قيس بن الأسلت، ودرهم بن زيد، وأحيحة بن الجلاح، وعبيد بن ناقد،

---

(١) انظر تفاصيل هذه الأيام في الكامل لابن الأثير جـ ١ ص ٤٩١ وما بعدها، والأغاني جـ ٣ ص ١٨ وما بعدها ط الدار. وأيام العرب في الجاهلية ص ٦٢ وما بعدها.

(٢) السيرة الحلبية جـ ١ ص ٤٠١، وفاء الوفا جـ ١ ص ١٥٢.

(٣) الكامل لابن الأثير جـ ١ ص ٤٩١.

ومن الخزرج كان حسان بن ثابت، وعبدالله بن رواحة، ومالك بن العجلان، وعاصم ابن عمرو، وعامر بن الإطنابة، وأنس بن العلاء، كما شارك من شعراء اليهود في هذه النقائض أوس بن دُنَيّ والربيع بن أبي الحقيق من قريظة، والسموأل بن عادياء، وأبو الزناد وكعب بن الأشرف من بني النضير.

وتمثل النقائض التي قيلت في هذه الأيام جانباً بارزاً من نقائض الشعراء العرب في الجاهلية عامة، لكثرة ماتضمنته من أشعار. ومن ثم يتضح لنا أن شعراء المدينة المنورة من الأوس والخزرج واليهود قد تمرسوا على هذا الفن في جاهليتهم، إذ اكتملت لهم عوامل نضجه وازدهاره، فبرز منهم شعراء ذوو لسن وفصاحة ودراية بأساليب القول، وقدرة على ضروب المناقضة، فلما دخلت الأوس والخزرج في الإسلام وناصروا دعوته بالسلاح وبالقول، استطاع شعراؤهم أن يخوضوا ميدان المناقضة الشعرية، ضد شعراء الكفر من قريش ومن والاهم، وهم يمتلكون العدة الكاملة من الدربة والفصاحة والتفنن. ولعل من ذلك مايفسر لنا تفوقهم في هذا الميدان على خصومهم، وتصديهم لنقض أشعارهم وإفحامهم بقوة واقتدار.

(٢) عوامل إسلامية محدثة:

كان ظهور الدعوة الإسلامية في مكة المكرمة إيذاناً بتحول كبير في وجوه الحياة العربية على أرض شبه الجزيرة بوجه خاص، ثم في الحياة الإنسانية عامة على بقاع الأرض وبين شتى شعوب البشر. فالإسلام بطبيعته دين شمولي، يستهدف ربط الإنسان بالكون وخالقه، ويختط منهجاً للحياة الصالحة الخيرة للفرد وللجماعة، وهو منهج يمزج بين الروحية والمادية، ليسمو بالإنسانية إلى غايات مثلى، تتضافر فيها مبادئ الحق والخير والعدل، وكل ما ينشعب منها من المثاليات، لتصهر كل القوى التي خلقها الله في الإنسان، وتوجهها إلى المنهاج السليم، وتهديها إلى سبيل الحياة الحرة الكريمة، التي تصلح بها أمور الدنيا، وتؤهل لاستحقاق النعيم السرمدي في الآخرة.

ويقوم الإسلام على أساس من الإيمان بعقيدته الحقة في وحدانية الله، وفي هيمنته الكاملة على كل شئون الكون ومقدراته، فهو رب كل شيء في الكون وخالقه ﴿لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾[1]. ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾[2] ولا يشاركه في ملكه إله غيره، ولا تسري عليه قوانين الوجود في التغير والتناسل ﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾[3] ويقتضى الإيمان بألوهيته ووحدانيته إسلام الأمر كله إليه ﴿وَأَنِيبُوا إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ﴾[4].

وتترتب على هذه العقيدة فروض وواجبات، ينبغي على المسلم اتباعها والعمل بها، وهي فروض تهدف إلى تعميق الجانب الروحي في الإنسان، وترويضه على طاعة الله ورسوله، من صلاة وصوم وزكاة وحج، وواجبات نحو نفسه وأسرته ومجتمعه، هي تطبيق عملي لمبادئ الإسلام، وتنفيذ لتعاليمه الآمرة بالمعروف والناهية عن المنكر، على قاعدة عادلة من الثواب والعقاب، فلكل معروف ثوابه، ولكل منكر عقابه ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾[5]. ولابد من البعث والحساب يوم القيامة لتتم فيه التصفية النهائية لأعمال كل فرد، وينصب ميزان العدل الإلهي لإنصاف كل مظلوم، وعقاب كل ظالم، وإحقاق الحق في كل ما اختلف فيه البشر من أمور الدين والدنيا، وليثبت للجميع وعد الله ووعيده.

وكان موقف قريش إزاء دعوة الإسلام هو الرفض والإنكار، فلم يؤمن بها إلا نفر قليل من ذوي النفوس الخيرة، والعقول المستبصرة، الذين رأوا فيها دعوة حق وخير، أو من المستضعفين المقهورين، الذين وجدوا فيها ملاذاً من الظلم والجور الحائق بهم. ومع أن قريشاً قد عهدت في محمد كل الصفات الخلقية الحميدة، من الصدق والأمانة والاستقامة، والمعاملة الحسنة والكلمة الطيبة والحكمة الصائبة، إلا أنها نظرت إلى

---

(١) سورة الأنعام آية ١٠٣.
(٢) سورة الشورى آية ١١.
(٣) سورة الإخلاص آية ٣ ــ ٤.
(٤) سورة الزمر آية ٥٤.
(٥) سورة الزلزلة آية ٧ ــ ٨.

دعوته من زاوية مادية، لم تر خلالها إلا مصالحها الدنيوية، القائمة على ما اكتسبته من مكانة دينية واجتماعية في نفوس العرب، وما تحقق لها من أسباب السيادة والشرف بين قبائلهم، لقيامها على خدمة الكعبة المشرفة، وإشرافها على الطقوس الدينية لمن يقصدها من حجيج ومعتمرين، وما تكسبه من ثروة في تجارتها مع وفود القبائل في أسواق عكاظ ومجنة وذي المجاز، ومن رحلاتها التجارية صيفاً وشتاء إلى الشمال والجنوب، فلم يكن من السهل عليها ـــ حسب نظرتها المادية ـــ أن تتنازل عن كل هذه المكاسب أو تضحي بها في سبيل الإيمان بدعوة محمد، التي ستقلب عليهم كل الأوضاع، وتغير كل ما تعارفوا عليه من معتقدات وقيم وتقاليد.

وسلكت قريش طريقين في تصديها لدعوة الإسلام ومقاومتها ومنع انتشارها، أولهما: طريق الإرهاب والتهديد والإيذاء للمسلمين، وتعذيب المستضعفين منهم إلى درجة الموت، ليرتدوا عن دينهم، وليرتدع غيرهم فيصرفهم الخوف عن التفكير في اتباع هذه الدعوة، ويدفعهم الرعب إلى تجنبها.

أما الطريق الثاني فهو طريق المجادلة والمحاجة، لإبطال ما تدعو إليه من اعتقاد، وتسفيه ماتحمله من مبادئ وأفكار. وقد فتح هذا الطريق المجالِ لنمو فكرى ونشاط عقلي لم تعهده هذه البيئة العربية من قبل، فوقف المشركون بكل قواهم الفكرية، وخبراتهم التجريبية، وغرورهم السيادي، يجادلون النبي صلى الله عليه وسلم فيما جاءهم به من نبأ عظيم، وما صدعهم به من كلمات الله وآياته المنزلات.

ومن هذه المجادلات التي دارت بينه وبينهم، حين اجتمع نفر من رؤسائهم وقالوا له: «إنك قد علمت أنه ليس من الناس أحد أضيق بلداً، ولا أقل ماءً، ولا أشد عيشاً منا، فسل لنا ربك الذي بعثك بما بعثك به، فليسير عنا هذه الجبال التي ضيقت علينا، وليبسط لنا بلادنا، وليفجر لنا فيها أنهاراً كأنهار الشام والعراق، وليبعث لنا من مضى من آبائنا وليكن فيمن يبعث منهم قُصَي بن كلاب، فإنه كان شيخ صدق، فنسألهم عما تقول: أحق هو أم باطل. فإن صدقوك، وصنعت ما سألناك صدقناك، وعرفنا به منزلتك من الله، وأنه بعثك رسولاً كما تقول. فقال لهم صلوات الله وسلامه عليه: مابهذا بعثت إليكم، إنما جئتكم من الله بما بعثني به، وقد بلغتكم

ما أرسلت به إليكم، فإن تقبلوه فهو حظكم في الدنيا والآخرة، وإن تردوه عليّ أصبر لأمر الله تعالى، حتى يحكم الله بيني وبينكم. قالوا: فإن لم تفعل هذا لنا، فخذ لنفسك، سل ربك أن يبعث معك ملكاً يصدقك بما تقول، ويراجعنا عنك، وسله فليجعل لك جناناً وقصوراً وكنوزاً من ذهب وفضة، يغنيك بها عما نراك تبتغي، فإنك تقوم بالأسواق كما نقوم، وتلتمس المعاش كما نلتمسه، حتى نعرف فضلك ومنزلتك من ربك، إن كنت رسولاً كما تزعم. فقال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم: ما أنا بفاعل، وما أنا بالذي يسأل ربه هذا، ومابعثت إليكم بهذا، ولكن الله بعثني بشيراً ونذيراً ــ قالوا: فأسقط السماء علينا كسفاً، كما زعمت أن ربك إن شاء فعل، فإنا لانؤمن لك إلا أن تفعل. فقال: ذلك إلى الله، إن شاء أن يفعله بكم فعل. قالوا: يامحمد، أفما علم ربك أنا سنجلس معك، ونسألك عما سألناك عنه، ونطلب منك مانطلب، فيتقدم إليك فيعلمك ماتراجعنا به، ويخبرك ماهو صانع في ذلك بنا، إذ لم نقبل منك ماجئتنا به ! إنه قد بلغنا أنك إنما يعلمك هذا رجل باليمامة يقال له: الرحمن، وإنا والله لانؤمن بالرحمن أبداً، فقد أعذرنا إليك يامحمد، وإنا والله لانتركك وما بلغت منا حتى نهلكك، أو تهلكنا. وقال قائلهم: نحن نعبد الملائكة، وهي بنات الله. وقال قائلهم: «لن نؤمن لك حتى تأتينا بالله والملائكة قبيلا»[(١)].

وكانت آيات الذكر الحكيم تنزل بالرد على مايثيره المشركون من تحديات في جدالهم، فنزل قوله تعالى في طلبهم تسيير الجبال عنهم، وتغيير طبيعة أرضهم، وبعث موتاهم ﴿ وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا سُيِّرَتْ بِهِ ٱلْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ ٱلْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ ٱلْمَوْتَىٰ ۗ بَل لِّلَّهِ ٱلْأَمْرُ جَمِيعًا ﴾ (٢) أي أن الله لا يصنع شيئاً من ذلك إلا بمشيئته هو، لا حسب طلبهم.

ونزل قوله تعالى فيما طلبوا منه أن يأخذه لنفسه من القصور والكنوز، وأن يكون معه ملك: ﴿ وَقَالُوا۟ مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأْكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشِى فِى ٱلْأَسْوَاقِ ۙ لَوْلَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُۥ نَذِيرًا ۝ أَوْ يُلْقَىٰٓ إِلَيْهِ كَنزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُۥ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا ۚ وَقَالَ ٱلظَّٰلِمُونَ

---

(١) سيرة ابن هشام ق ١ ص ٢٩٦ ــ ٢٩٧.

(٢) سورة الرعد آية ٣١.

﴿إن تتبعون إلا رجلاً مسحوراً انظر كيف ضربوا لك الأمثال فضلوا فلا يستطيعون سبيلاً تبارك الذي إن شاء جعل لك خيراً من ذلك جنات تجري من تحتها الأنهار ويجعل لك قصوراً﴾[1]. كما نزل قوله تعالى في آية أخرى ﴿وما أرسلنا قبلك من المرسلين إلا إنهم ليأكلون الطعام ويمشون في الأسواق وجعلنا بعضكم لبعض فتنة أتصبرون وكان ربك بصيراً﴾[2]

ونزل قوله تعالى رداً على بعض هذه التحديات التي أثاروها ﴿وقالوا لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعاً أو تكون لك جنة من نخيل وعنب فتفجر الأنهار خلالها تفجيراً أو تسقط السماء كما زعمت علينا كسفاً أو تأتي بالله والملائكة قبيلاً أو يكون لك بيت من زخرف أو ترقى في السماء ولن نؤمن لرقيك حتى تنزل علينا كتاباً نقرؤه قل سبحان ربي هل كنت إلا بشراً رسولاً﴾[3]. وتشير هذه الآيات إلى بعض مطالب رؤساء قريش في جدالهم السابق، كما تشير إلى ماطلبه عبدالله بن أبي أمية — وهو ابن عمته عاتكة — بعد أن قام معه من مجلس الجدال، إذ قال: «والله لا أومن بك أبداً حتى تتخذ إلى السماء سلماً، ثم ترقى فيه وأنا أنظر إليك حتى تأتيها، ثم تأتي معك أربعة من الملائكة، يشهدون لك أنك كما تقول»[4].

ونزل قوله تعالى فيما زعموا عن رحمٰن اليمامة، وإعلانهم الكفر بالرحمٰن: ﴿كذلك أرسلناك في أمة قد خلت من قبلها أمم لتتلو عليهم الذي أوحينا إليك وهم يكفرون بالرحمن قل هو ربي لا إله إلا هو عليه توكلت وإليه متاب﴾[5].

ونزل قوله تعالى رداً على قولهم بعبادة الملائكة، وأنها بنات الله: ﴿وينذر الذين قالوا اتخذ الله ولداً ما لهم به من علم ولا لآبائهم كبرت كلمة تخرج من أفواههم إن يقولون إلا كذباً﴾[6]. وقوله تعالى في آية أخرى: ﴿وقالوا اتخذ الرحمن ولداً سبحانه

---

(١) سورة الفرقان آيات ٧ — ١٠.
(٢) سورة الفرقان آيـــة ٢٠.
(٣) سورة الإسراء آيات ٩٠ — ٩٣.
(٤) سيرة ابن هشام ق ١ ص ٢٩٨.
(٥) سورة الرعــد آيـــة ٣٠.
(٦) سورة الكهف آيـــة ٤، ٥ وانظر السيرة ق ١ ص ٣٠٢.

﴿بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ﴾[1]

واتسعت حركة الجدل، وتطورت إلى مجابهة ثقافية وفكرية، لصرف الناس عن دعوة الإسلام، يتضح ذلك فيما كان يفعله النضر بن الحارث، وكان قد قدم الحيرة، وتعلم أحاديث ملوك الفرس، فإذا جلس رسول الله صلى الله عليه وسلم مجلساً، فدعا فيه إلى الله تعالى، وتلا فيه القرآن، وحذر فيه قريشاً ما أصاب الأمم الخالية، خلفه في مجلسه إذا قام، فحدثهم عن رستم السنديد، وعن اسفنديار، وملوك فارس، ثم يقول: والله ما محمد بأحسن حديثاً مني، وما حديثه إلا أساطير الأولين، اكتتبها كما اكتتبها[2]. فأنزل الله فيه يدحض زعمه ﴿وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا قُلْ أَنزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾[3].

وجلس رسول الله صلى الله عليه وسلم يوماً في المسجد مع بعض رجال قريش، فعرض له النضر بن الحارث، فكلمه رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى أفحمه، ثم تلا عليه وعليهم: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَارِدُونَ لَوْ كَانَ هَٰؤُلَاءِ آلِهَةً مَّا وَرَدُوهَا وَكُلٌّ فِيهَا خَالِدُونَ﴾[4] ثم قام رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأقبل عبدالله بن الزبعري حتى جلس، فقال له الوليد بن المغيرة: والله ماقام النضر ابن الحارث لابن عبدالمطلب آنفاً وما قعد، وقد زعم محمد أنا ومانعبد من آلهتنا هذه حصب جهنم، فقال عبدالله بن الزبعري: أما والله لو وجدته لخصمته، فسلوا محمداً: أكل من يعبد من دون الله في جهنم مع من عبده؟ فنحن نعبد الملائكة، واليهود تعبد عزيراً، والنصارى تعبد عيسى بن مريم (عليهما السلام) فعجب الوليد ومن كان معه في المجلس من قول ابن الزبعري، ورأوا أنه قد احتج وخاصم. فذكر ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال: إن كل من أحب أن يعبد من دون الله فهو مع من عبده، إنهم إنما يعبدون الشياطين، ومن أمرتهم بعبادته[5]. فأنزل الله تعالى عليه في

(١) سورة الأنبياء آيـــة ٢٦، ٢٧.
(٢) سيرة ابن هشام ق ١ ص ٣٠٠، ٣٥٨.
(٣) سورة الفرقان آيـــة ٥، ٦.
(٤) سورة الأنبياء آيـــة ٩٨ ــ ٩٩.
(٥) سيرة ابن هشام ق ١ ص ٣٥٨ ــ ٣٥٩.

ذلك ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ أُو۟لَـٰٓئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا ۖ وَهُمْ فِى مَا ٱشْتَهَتْ أَنفُسُهُمْ خَـٰلِدُونَ ﴾[1]. وقوله في آية أخرى: ﴿ وَمَن يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّىٓ إِلَـٰهٌ مِّن دُونِهِۦ فَذَٰلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴾[2]

وتطلبت الجابهة الجدلية أن تستعين قريش بأهل الكتاب من اليهود، فأرسلت النضر بن الحارث وعقبة بن أبي معيط إليهم في المدينة المنورة، ليسألوا أحبارهم عما جاء به محمد، فإنهم أهل الكتاب الأول، وعندهم من علم الأنبياء، ماليس عند قريش، فقدما المدينة المنورة، وسألا أحبار يهود عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ووصفا لهم أمره، وأخبراهم ببعض قوله ــ فقالوا لهما: سلوه عن ثلاث نأمركم بهن، فإن أخبركم بهن فهو نبي مرسل، وإن لم يفعل فالرجل متقّول، فروا فيه رأيكم. سلوه عن فتية ذهبوا في الدهر الأول ماكان أمرهم، وسلوه عن رجل طواف قد بلغ مشارق الأرض ومغاربها ماكان نبؤه، وسلوه عن الروح ماهي؟ وعاد الرجلان إلى قريش بهذه الأسئلة، التي ظنوا أنها ستعجز محمداً صلى الله عليه وسلم.

وبادرت قريش بتوجيه سؤالها إلى النبي صلى الله عليه وسلم عن هذه الأمور الثلاثة، فوعدهم بالإجابة عليها، وانتظر نزول جبريل بالوحي، حتى نزل بآيات سورة الكهف، التي تفصل القول في خبر فتية الكهف، وفي خبر الرجل الطواف ذي القرنين[3]. كما نزلت الإجابة عن أمر الروح في آية من سورة الإسراء.

ومع كل ماعرفته قريش من وجوه الحق، فقد استمرت في عنادها وكفرها، وكثر جدالها وتحديها، وآيات القرآن تنزل على كل مايتقولون به، وتنقض مزاعمهم وادعاءاتهم، وتفضح تآمرهم وكيدهم، وهم يبذلون كل مايستطيعون من جهد فكري، وكد ذهني، دفاعاً عن معتقداتهم الجاهلية، وحفاظاً على ما توارثوه عن آبائهم من تقاليد وأعراف.

---

(١) سورة الأنبياء آيـــة ١٠١ ــ ١٠٢.
(٢) سورة الأنبياء آيـــة ٢٩.
(٣) سيرة ابن هشام ق ١ ص ٣٠٠ ــ ٣٠٢.

ومما لاشك فيه أن هذه المجالات الكثيرة التي دارت بينهم و بين النبى محمد صلى الله عليه وسلم، ومايتنزل عليه من آيات الذكر الحكيم، قد أيقظت فكرهم من سباته العميق، وأجبرت عقولهم على التفكر والتدبر في أمور لم تكن تثير اهتمامهم، أو تشغل بالهم من قبل ــ وإضافة إلى ذلك، أن هذه المجالات تحمل في طياتها الكثير من عناصر المناقضة التي عرفوها في أشعارهم، من تكذيب وقلب، وتوجيه ومناظرة، وتقريع وهجاء، وتهديد ووعيد، وكثيراً مانجد هذه المجادلات تنتهي إلى مناقضات صريحة. نذكر منها أنهم لما اتهموا الرسول صلى الله عليه وسلم بالسحر والجنون والكهانة والشعر، نزلت الآيات الكريمة تكذبهم وتوجههم إلى الحقيقة، من ذلك قوله تعالى: ﴿فَذَكِّرْ فَمَآ أَنتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ ۝ أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِۦ رَيْبَ ٱلْمَنُونِ ۝ قُلْ تَرَبَّصُوا۟ فَإِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُتَرَبِّصِينَ﴾ [1]. وقوله: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ۝ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ ۚ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ ... تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [2]. وقوله: ﴿وَعَجِبُوٓا۟ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ ۖ وَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا سَٰحِرٌ كَذَّابٌ﴾ [3]. إلى غير ذلك من الآيات التي تنفي هذه المزاعم وتكذبها، وتوجههم إلى الحقيقة، ليعرفوها و يصححوا مفهوماتهم الخاطئة.

وحين مشى أبيّ بن خلف إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم بعظم بال قد ارفتّ، فقال: يامحمد أنت تزعم أن الله يبعث هذا بعدما أرم، ثم فته في يده، ثم نفخه في الريح نحو رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال له: نعم أنا أقول ذلك، يبعثه الله وإياك بعدما تكونان هكذا، ثم يدخلك الله النار، فأنزل الله تعالى فيه: ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِىَ خَلْقَهُۥ ۖ قَالَ مَن يُحْىِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ ۝ قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ۝ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَآ أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ﴾ [4] فقد نقضت الآيات ادعاءه، وكشفت قصور تفكيره، وأوضحت له حقيقة الخلق في نفسه وفي كل المخلوقات.

---

(١) سورة الطور آيات ٢٩ ــ ٣١.

(٢) سورة الحاقة آيات ٤٠ ــ ٤٣.

(٣) سورة ص ــ آيــــة ٤.

(٤) سيرة ابن هشام ق ١ ص ٣٦١ ــ ٣٦٢. والآيات من سورة يس رقم ٧٨ ــ ٧٩.

ويصل الأمر أحياناً إلى الهجاء مع التهديد والوعيد، فقد نزلت الآيات في أبي لهب وزوجته تقرعهما وتتوعدهما بالعذاب الأليم، لما قدمت أيديهما من أذى لرسوله الكريم: ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ وَٱمْرَأَتُهُۥ حَمَّالَةَ ٱلْحَطَبِ فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍۭ﴾[1]. وحين سمعت أم جميل ــ امرأة أبي لهب ــ ما نزل فيها وفي زوجها من القرآن أتت رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو جالس في المسجد عند الكعبة، ومعه أبو بكر الصديق، وفي يدها فهر[2] من حجارة، فلما وقفت عليهما أخذ الله ببصرها عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، فلا ترى إلا أبا بكر، فقالت: يا أبا بكر، أين صاحبك؟ فقد بلغني أنه يهجوني، والله لو وجدته لضربت بهذا الفهر فاه، أما والله إني لشاعرة، ثم قالت[3]:

مُـذَمَّما عـصَـيْـنـا وأمــرَه أبَـيْـنـا

ودينَـه قَـلَـيْـنـا

فهي تناقض الآيات الكريمة بالشعر في هجاء محمد صلى الله عليه وسلم، ووصفه بضد معنى اسمه، وتعلن إصرارها على رفض دينه وإبغاضه.

ولم تقف هذه المجادلات والمناقضات عند كفار قريش وحدهم، فقد رأينا كيف استعانوا بأحبار يهود، فأشركوهم معهم في معركة الجدال ضد الدين الجديد، وقد احتدمت هذه المعركة فيما بعد، لما هاجر النبي صلى الله عليه وسلم إلى المدينة المنورة، وبدأ احتكاكه باليهود وتعامله معهم بمسالمة وعهد وحلف، ثم انقلب الوضع بغدرهم ومكرهم وكيدهم للإسلام إلى عداء وحرب. وفي خلال هذه الفترة وقع كثير من الجدل والخلاف معهم حول قضايا ومسائل عديدة، كان لابد من حسمها.

ومن أولى المجادلات التي بدأوا بها النبي صلى الله عليه وسلم مانزل من قوله

---

(١) سورة المســـد.

(٢) الفهر: حجر على مقدار ملء الكف.

(٣) سيرة ابن هشام ق ١ ص ٣٥٦.

تعالى في أمر الروح، وهي إحدى المسائل التي كانوا ذكروها لكفار قريش، ليمتحنوا بها النبي صلى الله عليه وسلم — كما سبق أن ذكرنا — إذ قال الله فيها: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ ۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾[1] فقالت أحبار يهود: أرأيت قولك «وما أوتيتم من العلم إلا قليلاً» إيانا تريد، أم قومك؟ قال: كُلاًّ، قالوا: فإنك تتلو فيما جاءك أنا قد أوتينا التوراة فيها بيان كل شيء. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: إنها في علم الله قليل، وعندكم في ذلك مايكفيكم لو أقمتموه، فأنزل الله تعالى عليه فيما سألوه عنه من ذلك: ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِى ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَـٰمٌ وَٱلْبَحْرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَـٰتُ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾أي أن التوراة في هذا من علم الله قليل[2].

وقد تناول القرآن الكريم تاريخ اليهود منذ بدايتهم، وما حفل به من آيات ومواعظ، معدداً أنعم الله الكثيرة عليهم، وكيف قابلوها بالجحود والنكران، ومذكراً إياهم بالعهود والمواثيق التي عاهدوا الله عليها، وكيف نقضوها غادرين، بل تمادوا في عصيانهم وكفرهم، فبدلوا كلمات الله، وغيروا شريعته، حسب أهوائهم المضللة، وقتلوا أنبياءه إمعاناً في البغي والضلال، وتقولوا عليه الأقاويل التي تتنافى مع جلاله وقدسيته، عرض القرآن كل ذلك، مبيناً للحقيقة، ناقضاً لمزاعمهم وادعاءاتهم المغرضة.

ومن مزاعمهم التي كانوا يتقولون بها أن مدة الدنيا سبعة آلاف سنة، وإنما يعذب الله الناس في النار بكل ألف سنة من أيام الدنيا يوماً واحداً في النار من أيام الآخرة، وإنما هي سبعة أيام ثم ينقطع العذاب[3]. فأنزل الله في ذلك ﴿وَقَالُوا۟ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَةً ۚ قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِندَ ٱللَّهِ عَهْدًا فَلَن يُخْلِفَ ٱللَّهُ عَهْدَهُۥٓ ۖ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ بَلَىٰ مَن كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَـٰطَتْ بِهِۦ خَطِيٓـَٔتُهُۥ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ﴾[4]

---

(١) سورة الإسراء آيــــة ٨٥.

(٢) سيرة ابن هشام ق ١ ص ٣٠٨. والآية من سورة لقمان رقم ٢٧.

(٣) نفسه ق ١ ص ٥٣٨.

(٤) سورة البقرة آيــــة ٨٠ — ٨١.

ولما دعا أبو بكر فنحاص اليهودي أن يسلم، لما يعلمه من حقيقة رسالة محمد صلى الله عليه وسلم، قال له: والله يا أبا بكر ما بنا إلى الله من فقر، وإنه إلينا لفقير، ومانتضرع إليه كما يتضرع إلينا، وإنا عنه لأغنياء، وماهو عنا بغني، ولو كان عنا غنيا ما استقرضنا أموالنا، كما يزعم صاحبكم، ينهاكم عن الربا و يعطيناه، ولو كان عنا غنياً ما أعطانا الربا، فغضب أبو بكر فضرب وجهه، فذهب إلى النبي يشكوه، ولما ذكر أبو بكر ماقاله، جحد ذلك فنحاص وأنكر قوله، فنزلت الآيات تؤكده، وتتوعد اليهود بالعذاب[1] ﴿لَّقَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَآءُ سَنَكْتُبُ مَا قَالُواْ وَقَتْلَهُمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ﴾ونزل في أبي بكر الصديق رضى الله عنه، وما بلغه في ذلك من الغضب﴿وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓاْ أَذًى كَثِيرًا ۚ وَإِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ﴾[2]. ثم قال فيما قال فنحاص والأحبار معه من يهود: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُۥ فَنَبَذُوهُ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ وَٱشْتَرَوْاْ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ لَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَآ أَتَواْ وَّيُحِبُّونَ أَن يُحْمَدُواْ بِمَا لَمْ يَفْعَلُواْ فَلَا تَحْسَبَنَّهُم بِمَفَازَةٍ مِّنَ ٱلْعَذَابِ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾[3] يعنى فنحاص وأشيع وأشباههما من الأحبار، الذين يفرحون بما يصيبون من الدنيا على ماز ينوا للناس من الضلالة، ويحبون أن يحمدوا بما لم يفعلوا، أن يقول الناس علماء وليسوا بأهل علم، لم يحملوهم على هدى ولاحق، ويحبون أن يقول الناس قد فعلوا[4].

وكان اليهود يستفتحون على الأوس والخزرج برسول الله صلى الله عليه وسلم قبل مبعثه، فلما بعثه الله من العرب، وجحدوا ماكانوا يقولون فيه، قال لهم معاذ بن جبل و بشر بن البراء: يامعشر يهود، اتقوا الله وأسلموا، فقد كنتم تستفتحون علينا بمحمد ونحن أهل شرك، وتخبروننا أنه مبعوث، وتصفونه لنا بصفته، فقال سلام بن مشكم ــ أحد بني النضير: ماجاءنا بشيء نعرفه، وماهو بالذي كنا نذكره لكم[5]. فأنزل الله

(١) سيرة ابن هشام ق ١ ص ٥٥٨ ــ ٥٥٩. والآية من سورة آل عمران رقم ١٨١.
(٢) سورة آل عمران آيـــة ١٨٦.
(٣) نفسها آيـــة ١٨٧ ــ ١٨٨.
(٤) سيرة ابن هشام ق ١ ص ٥٥٨ ــ ٥٥٩.
(٥) نفسه ص ٥٤٧.

في ذلك ينقض قولهم و يكشف تضليلهم: ﴿ وَلَمَّا جَآءَهُمْ كِتَٰبٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا۟ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُوا۟ كَفَرُوا۟ بِهِۦ فَلَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾[1]

وجاء نفر من أحبار يهود رسول الله صلى الله عليه وسلم ليسألوه عن أربع مسائل، فأخذ عليهم عهد الله وميثاقه، أن يتبعوه و يصدقوه و يؤمنوا به إن أخبرهم بها. وجعلوا يسألونه مسألة مسألة وهو يجيبهم، بعد أن يؤكد عليهم عهد الله وميثاقه في كل مرة، حتى أجابهم عن ثلاث أقروا له فيها بصواب القول. وجاءت الرابعة فسألوه عن الروح فقال: أنشدكم بالله و بأيامه عند بني إسرائيل، هل تعلمونه جبريل، وهو الذي يأتيني؟ قالوا : اللهم نعم ، ولكنه يامحمد لنا عدو، وهو ملك إنما يأتي بالشدة و بسفك الدماء، ولولا ذلك لاتبعناك. فأنزل الله عز وجل فيهم[2] ﴿ قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَىٰلَ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَدُوٌّ لِّلْكَٰفِرِينَ وَلَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ وَمَا يَكْفُرُ بِهَآ إِلَّا ٱلْفَٰسِقُونَ أَوَكُلَّمَا عَٰهَدُوا۟ عَهْدًا نَّبَذَهُۥ فَرِيقٌ مِّنْهُم بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ وَلَمَّا جَآءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾

و يزخر القرآن الكريم بالكثير من هذه المجادلات مع اليهود، حيث يكشف خداعهم وخبث طويتهم، و ينقض أكاذيبهم وادعاءاتهم المضللة، سواء ماكان من ذلك في قصه لتاريخهم الماضي، أو في رصده لمواقفهم الحاضرة خلال تعاملهم مع المسلمين، وماحفلت به من محاجة وجدل، أو تآمر وغدر وعداء.

ودخل النصارى كذلك هذه المعارك الجدلية، وخاصة بعد مجيء وفد من نصارى نجران إلى النبي صلى الله عليه وسلم في المدينة المنورة، فجادلوه في مسائل العقيدة، كما جادلوا أحبار يهود فيا بينهم من خلافات. وقد سجل القرآن الكريم خلاصة هذه المجادلات في آيات عديدة، منتهياً بها إلى كلمة الحق الفاصلة.

---

(١) سورة البقرة آيــــة ٨٩.

(٢) سيرة ابن هشام ق ١ ص ٥٤٣ ــ ٥٤٤. والآيات من سورة البقرة ٩٧ ــ ١٠١.

ومن هذه المجادلات أنهم اجتمعوا ومعهم الأحبار من يهود عند رسول الله صلى الله عليه وسلم، ودعاهم إلى الإسلام، فقال أحد الأحبار: أتريد منا أن نعبدك كما تعبد النصارى عيسى بن مريم؟ وقال رجل من نصارى نجران: أو ذاك تريد منا يا محمد وإليه تدعونا؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «معاذ الله أن أعبد غير الله، أو آمر بعبادة غيره، فما بذلك بعثني الله ولا أمرني»[١]. فأنزل الله تعالى ينقض ادعاءهم في قضية الألوهية عامة، وفساد اعتقادهم في عبادة عيسى: ﴿ مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ ٱللَّهُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا۟ عِبَادًا لِّى مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَـٰكِن كُونُوا۟ رَبَّـٰنِيِّـۧنَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ ٱلْكِتَـٰبَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ وَلَا يَأْمُرَكُمْ أَن تَتَّخِذُوا۟ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةَ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ أَرْبَابًا ۗ أَيَأْمُرُكُم بِٱلْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾[٢].

ويكمل هذه القضية زعم اليهود أن عزيراً ابن الله، وزعم النصارى أن المسيح ابن الله، فنزل قول الله تعالى مكذباً هذه الفرية التي اختلقوها كما فعل الكفار من قبلهم، مؤكداً أنه لم يأمرهم إلا بعبادته وحده، ولكنهم ينزعون إلى الإشراك به وتبديل أمره: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ وَقَالَتِ ٱلنَّصَـٰرَى ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ ۖ ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَٰهِهِمْ ۖ يُضَـٰهِـُٔونَ قَوْلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَبْلُ ۚ قَـٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ ۚ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ٱتَّخَذُوٓا۟ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَـٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓا۟ إِلَـٰهًا وَٰحِدًا ۖ لَّآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ سُبْحَـٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾[٣] وفي آيات أخرى كثيرة يتكرر نقض هذه الفرية على وجوه متعددة.

ولما زعم كل من اليهود والنصارى أن لهم منزلة خاصة عند الله، لأنهم أبناؤه وأحباؤه، وليسوا كغيرهم من البشر، نزل قوله تعالى يكذب زعمهم الباطل، وينقضه بالدليل المنطقي القاطع ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ وَٱلنَّصَـٰرَىٰ نَحْنُ أَبْنَـٰٓؤُا۟ ٱللَّهِ وَأَحِبَّـٰٓؤُهُۥ ۚ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم ۖ بَلْ أَنتُم بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ ۚ يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ ۚ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۖ وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ﴾[٤]

---

(١) سيرة ابن هشام ق ١ ص ٥٥٤.

(٢) سورة آل عمران آيـــة ٧٩ ــ ٨٠.

(٣) سورة التوبة آيـــة ٣٠ ــ ٣١.

(٤) سورة المائدة آيـــة ١٨. وانظر سيرة ابن هشام ق ١ ص ٥٦٣.

ومن مزاعمهم أيضاً أنه لن يدخل الجنة إلا من كان على دينهم، فينقض الله تعالى هذا الزعم الباطل مكذباً متحدياً إياهم أن يأتوا ببرهان على صدق قولهم، ثم يؤكد لهم بطلانه على أساس أن من يدخل جنته و ينال رضاه، هو من يسلم وجهه إليه ويحسن العمل، وليس فيهم أحد على ذلك، فكيف لهم أن يدخلوها؟ يقول عز وجل: ﴿ وَقَالُوا لَن يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ ۗ تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ ۗ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِندَ رَبِّهِ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ (١)

وكشفت المعارك الجدلية ماكان بين اليهود والنصارى من خلاف، فقد تنازعوا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال أحد أحبار يهود للنصارى: ما أنتم على شيء، وكفر بعيسى و بالإنجيل، فقال رجل من نصارى نجران لليهود: ما أنتم على شيء، وجحد نبوة موسى وكفر بالتوراة، فأنزل الله تعالى في ذلك من قولهم: ﴿ وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصَارَىٰ عَلَىٰ شَيْءٍ وَقَالَتِ النَّصَارَىٰ لَيْسَتِ الْيَهُودُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ الْكِتَابَ ۗ كَذَٰلِكَ قَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ ۚ فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴾ فيسوق عز وجل دليلاً على لجاجة كلا الفريقين في الادعاء والتضليل، وهو أن كلاً منهما يتلو في كتابه تصديق ماكفر به، أي يكفر اليهود بعيسى، وعندهم التوراة فيها ما أخذ الله عليهم على لسان موسى عليه السلام بالتصديق بعيسى عليه السلام، وفي الإنجيل ماجاء به عيسى عليه السلام، من تصديق موسى عليه السلام، وما جاء به من التوراة من عند الله، وكل يكفر بما في يد صاحبه (٢).

ومن خلافهم أيضاً ماكان في أمر خليل الله إبراهيم عليه السلام، فقالت الأحبار: ماكان إبراهيم إلا يهودياً، وقالت النصارى من أهل نجران: ماكان إبراهيم إلا نصرانيا. فأنزل الله تعالى ينقض ادعاء كل منهما، و يبطله بالحجة الدامغة، و يبين لهم فصل القول في هذا الخلاف، يقول عز وجل: ﴿ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تُحَاجُّونَ فِي إِبْرَاهِيمَ وَمَا أُنزِلَتِ التَّوْرَاةُ وَالْإِنجِيلُ إِلَّا مِن بَعْدِهِ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ هَا أَنتُمْ هَٰؤُلَاءِ حَاجَجْتُمْ فِيمَا لَكُم بِهِ

---

(١) سورة البقرة آيـــة ١١١ ــ ١١٢.

(٢) سيرة ابن هشام ق ١ ص ٥٤٩. والآية من سورة البقرة رقم ١١٣.

عِلْمٌ فَلِمَ تُحَاجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ۝ مَا كَانَ إِبْرَٰهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ۝ إِنَّ أَوْلَى ٱلنَّاسِ بِإِبْرَٰهِيمَ لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ وَهَٰذَا ٱلنَّبِىُّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ (١).

وكان المنافقون كذلك ممن تناول القرآن الكريم أقوالهم وأعمالهم بالنقض والتكذيب، والفضح والتشهير، فقد نزل قوله تعالى يكشف نفاقهم وخداعهم: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ ۝ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ۝ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًا ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْذِبُونَ ﴾ (٢) فهو يكذب ما يدعون من إيمان، و يرد خداعهم لله وللمؤمنين على أنفسهم، و يصف نفاقهم وعدم إخلاصهم بأنه مرض تمكن في قلوبهم، فزاده الله تمكنا فيها، كما توعدهم بالعذاب الأليم جزاء لهم على كذبهم وخداعهم.

وتستعرض الآيات الكريمة جدالهم وتبريرهم لموقفهم المشين، فتنقض كل ما يدعون: ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ قَالُوٓا۟ إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ۝ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْمُفْسِدُونَ وَلَٰكِن لَّا يَشْعُرُونَ ۝ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا۟ كَمَآ ءَامَنَ ٱلنَّاسُ قَالُوٓا۟ أَنُؤْمِنُ كَمَآ ءَامَنَ ٱلسُّفَهَآءُ ۗ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلسُّفَهَآءُ وَلَٰكِن لَّا يَعْلَمُونَ ۝ وَإِذَا لَقُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا۟ إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمْ قَالُوٓا۟ إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ ۝ ٱللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ۝ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُا۟ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلْهُدَىٰ فَمَا رَبِحَت تِّجَٰرَتُهُمْ وَمَا كَانُوا۟ مُهْتَدِينَ ﴾ (٣)
فهم يدعون أنهم يصلحون بين المؤمنين وأهل الكتاب، ولكنهم في حقيقة الأمر يزيدون الخلاف و يوقعون الفتنة، وهم حين يصفون المؤمنين بالسفاهة يرد الله ذمهم عليهم، وهم إذ يتظاهرون بالإيمان ثم يخلون إلى شياطينهم من يهود (٤) فيبدون حقيقة طويتهم الكافرة، وأنهم إنما يفعلون ذلك استهزاء بالإسلام وأتباعه، يرد الله عليهم باستهزائه لهم، وجعلهم يترددون في عماية الضلالة، و يلقون عقبى نفاقهم وغدرهم، ويجنون ثمار تجارتهم الخاسرة.

---

(١) نفسه ص ٥٥٣. والآيات من سورة آل عمران ٦٥ ــ ٦٨.
(٢) سورة البقرة آيـــات ٨ ــ ١٠.
(٣) سورة البقرة آيات ١١ ــ ١٦.
(٤) سيرة ابن هشام ق ١ ص ٥٣١.

ويتعقب القرآن الكريم مواقف المنافقين في الخداع والمكر والفتنة وتشكيك المسلمين وخذلانهم في قتال أعدائهم، فيكشف دخائل نفوسهم المريضة، وينقض تقولاتهم وادعاءاتهم المغرضة. ومن ذلك ماحدث من عبد الله بن أبيّ بن سلول حين انخزل عن النبي صلى الله عليه وسلم بثلث الناس، وهم في طريقهم للقاء كفار قريش يوم أحد، فرجع بمن اتبعه من قومه من أهل النفاق والريب، واتبعهم عبدالله ابن عمرو بن حرام، يقول: ياقوم أذكركم الله ألا تخذلوا قومكم ونبيكم عندما حضر من عدوهم، فقالوا: لو نعلم أنكم تقاتلون لما أسلمناكم، ولكنا لانرى أنه يكون قتال[1]. ونزل قوله تعالى يكشف حقيقة موقفهم، وماتنطوي عليه نفوسهم من ريب يدنيهم من الكفر: ﴿ وَمَآ أَصَٰبَكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡتَقَى ٱلۡجَمۡعَانِ فَبِإِذۡنِ ٱللَّهِ وَلِيَعۡلَمَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَلِيَعۡلَمَ ٱلَّذِينَ نَافَقُواْۚ وَقِيلَ لَهُمۡ تَعَالَوۡاْ قَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوِ ٱدۡفَعُواْۖ قَالُواْ لَوۡ نَعۡلَمُ قِتَالٗا لَّٱتَّبَعۡنَٰكُمۡۗ هُمۡ لِلۡكُفۡرِ يَوۡمَئِذٍ أَقۡرَبُ مِنۡهُمۡ لِلۡإِيمَٰنِۚ يَقُولُونَ بِأَفۡوَٰهِهِم مَّا لَيۡسَ فِي قُلُوبِهِمۡۚ وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا يَكۡتُمُونَ ﴾[2].

ولما حاولوا أن يظهروا سلامة موقفهم بعد أن قتل وأصيب الكثير من قومهم في المعركة، فقالوا: لو أنكم أطعتمونا بالبقاء والتحصين بالمدينة ودفع العدو عنها ــ عملاً بمشورة عبدالله بن أبيّ[3] ــ لما قتل هؤلاء، فرد الله تعالى عليهم حجتهم وأظهر مافيها من مغالطة واعتراض على مشيئته المتحكمة في الآجال: ﴿ ٱلَّذِينَ قَالُواْ لِإِخۡوَٰنِهِمۡ وَقَعَدُواْ لَوۡ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُواْۗ قُلۡ فَٱدۡرَءُواْ عَنۡ أَنفُسِكُمُ ٱلۡمَوۡتَ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴾[4].

وتتعدد مواقف المنافقين المخذلة، وأقاويلهم المريبة، وخاصة في أوقات الشدة، كما حدث في غزوة الخندق، وفي غزوة تبوك، وفي الحروب ضد اليهود، وفي حديث الإفك، وغير ذلك من الأحداث والظروف، وتنزل آيات الذكر الحكيم لتكشف تآمرهم ومكرهم السيئ، وتنقض أقاويلهم وأكاذيبهم، وتشدد عليهم النكير ليرتدعوا ويتوبوا ويسلموا لله، ويخلصوا نفوسهم من آفة النفاق.

---

(١) نفسه ق ٢ ص ٦٤.

(٢) سورة آل عمران آيــة ١٦٦ ــ ١٦٧.

(٣) راجع تفاصيل ذلك فى السيرة ق ٢ ص ٦٣.

(٤) سورة آل عمران آيــة ١٦٨.

من ذلك كله يتبين لنا أن الإسلام قد صحبته حركة فكرية واسعة وصحوة عقلية نشطة، فاحتدمت معارك الجدل بين النبي صلى الله عليه وسلم ومعارضيه من المشركين واليهود والنصارى وغيرهم، وكذلك بين صحابته وبينهم، ونزلت آيات الذكر الحكيم داعية إلى إعمال العقل بالتفكر والتدبر، مقتحمة هذه المجادلات بنقض ما يعرضه المناوئون من دعاوى وحجج ومزاعم وأكاذيب، لتظهر كلمة الحق، وتدحض زيف الباطل، وتكشف بواطن النفوس، وتفضح تآمر النفاق وكيد الخداع والمكر الخبيث. ومامن ريب في أن هذه الحركة الفكرية، بكل جوانبها العقلية والروحية، كان لها أثرها الكبير في المجتمع العربي لتلك الفترة؛ مسلمين وغير مسلمين، وأن هذا الأثر طبع بصماته على الشعر عامة وعلى شعر النقائض بوجه خاص.

ويبقى من هذه العوامل الإسلامية العامل الحاسم والمباشر في إذكاء شعر النقائض وهو عامل العداء والحرب بين المسلمين والمشركين، وما من شك في أن بذور هذا العداء قد غرست منذ الفترة الأولى للدعوة في مكة. حيث تشددت قريش في إنكارها، وأمعنت في كفرها، وعمدت إلى إيذاء محمد صلى الله عليه وسلم، ونكلت بالضعفاء منهم، وأذاقتهم صنوفاً من العذاب، وكانت هجرة بعض المسلمين إلى الحبشة فراراً بدينهم من بطش قريش، التي لم تقف عند هذا الحد في محاربتها لدعوة الإسلام، إذ قررت مقاطعتهم وعدم التعامل معهم، والتضييق عليهم ومحاصرتهم في شعب أبي طالب لتجويعهم وإذلالهم، ليفتنوهم عن دينهم ويردوهم إلى حظيرة الكفر. ولم يجدِ ذلك كله شيئاً في وقف الدعوة أو منع انتشارها، إلا أنه زاد من تمكن العداء في نفوس الفريقين.

وكانت بيعتا العقبة الصغرى ثم الكبرى في العام التالى، بين النبي صلى الله عليه وسلم ومن أسلم من الأوس والخزرج[1] بداية مرحلة جديدة في الصراع بين الإسلام والكفر ؛ إذ بايعوه على أن ينتقل إليهم في المدينة المنورة لينصروه ويؤازروه، وهاجر النبي صلى الله عليه وسلم والمسلمون إلى هناك، حيث استقروا آمنين من كيد قريش وبطشها.

---

(١) انظر تفاصيل البيعتين فى السيرة ق ١ ص ٤٣١ إلى ص ٤٦٧.

وتكون في دار الهجرة مجتمع إسلامي صغير على أسس من مبادئ الإسلام وشريعته، تمت فيه المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار، وألف الله بين قلوب المؤمنين فمحى منها الأحقاد والضغائن التي خلفتها الوقائع والأيام بين الأوس والخزرج، والتي لم يكن مضى على آخرها سوى سنين قليلة لا تتجاوز الخمس. كما وادع النبي صلى الله عليه وسلم اليهود وعاهدهم، وأقرهم على دينهم وأموالهم[1].

ولم يكن النبي صلى الله عليه وسلم والمهاجرون لينسوا عداء قريش وإيذاءها لهم، وأنها ماتزال سادرة في غيها وكفرها وعدائها، تتحين الفرص لضرب الإسلام والتصدي لدعوته، التي تهدد سيادتها ومكانتها الدينية بين قبائل العرب. فلابد من صدام وشيك معها، لتخضيد شوكتها، وعقابها على ما اقترفته في حقهم وفي حق الله من الظلم والبغي. فأخذ الرسول صلى الله عليه وسلم يعد العدة لهذا اليوم بالتربية الروحية للمسلمين، ليزدادوا إيماناً، وليتأهبوا للجهاد في سبيل الله، على أساس قوي من الإخلاص لعقيدته والتضحية بالنفس والمال في سبيلها. ويتمثل هذا الإعداد الروحي والعسكري في السرايا والغزوات التي أعقبت الهجرة وإلى يوم بدر، وهى غزوة ودان (الأبواء) وسرية عبيدة بن الحارث، وسرية حمزة، وغزوة بواط، وغزوة العشيرة، وسرية سعد بن أبي وقاص، وغزوة صفوان، وسرية عبدالله بن جحش[2]، وكلها في فترة قصيرة لم تتجاوز ستة شهور تقريباً[3]، ولم يحدث في أي منها قتال إلا في سرية ابن جحش التي قتلت واحداً وأسرت اثنين من قريش، إذ كان هدفها الرئيسي إظهار قوة المسلمين وتزايدها لإرهاب قريش ومراقبة تحركاتها وتخويف القبائل الأخرى في المنطقة، حتى لا تتعرض لدعوة الإسلام، أو تقف ضدها، أو تحالف أعداءها على حربها.

---

(١) انظر تفاصيل ذلك فى السيرة ق ١ ص ٥٠١ — ٥٠٦

(٢) انظر فى هذه السرايا والغزوات السيرة ق ١ ص ٥٩١ — ٦٠٣.

(٣) كانت بداية خروجه للغزو على رأس اثنى عشر شهراً من مقدمه المدينة، وغزوة بدر بعد ثمانية عشر شهراً، فالفاصل بينهما ستة شهور (انظر السيرة ق ١ ص ٥٩٠، ٦٠٦).

ووقع أول صدام حربي حقيقي بين المسلمين وقريش في غزوة بدر الكبرى[1] قبل أن يكتمل العام الثاني للهجرة، وكان القتال فيها إنفاذاً لمشيئة الله، على غير رغبة من المسلمين: ﴿ وَإِذْ يَعِدُكُمُ ٱللَّهُ إِحْدَى ٱلطَّآئِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ ٱلشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُحِقَّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَيَقْطَعَ دَابِرَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾[2]. وتحقق وعد الله بنصر القلة من المؤمنين على الكثرة من المشركين، وأذل كبرياء قريش وغرورها وشفى قلوب قوم مؤمنين.

وزاد العداء حدة وشدة بين المسلمين في المدينة المنورة والمشركين في مكة المكرمة، وهو عداء قام على أسس دينية، لاعلى عصبية قبلية كما عهد العرب في جاهليتهم. وإذا كانت هذه الأسس مكتملة تماماً لدى المسلمين، فإنها عند قريش ممتزجة بعصبيتها القبلية. ولم يكن أمامها من خيار إلا أن تنتقم وتثأر لقتلاها في بدر، فعبأت كل قواها لذلك، وتحقق لها ما أرادته بعد عام في أحد[3]، ولكن هذه النتيجة كانت ابتلاء من الله للمسلمين، ودرساً لقنه إياهم في الإيمان والطاعة، ليواصلوا مسيرة الجهاد الطويلة أقوى إيماناً وأخلص تضحية وأصلب عوداً.

وفي هذه الظروف التي اشتد فيها العداء واحتد، علا صوت الشعر، واحتدمت نقائضه بين شعراء الفريقين، فانبرى لها شعراء قريش وعلى رأسهم عبدالله بن الزبعري، وضرار بن الخطاب، وهبيرة بن أبي وهب، وتصدى لهم شعراء المسلمين وعلى رأسهم حسان بن ثابت وكعب بن مالك وعبدالله بن رواحة.

وتوالت الغزوات ضد قريش من الخندق إلى الحديبية إلى فتح مكة، كما اتسع نطاقها فشمل اليهود الذين نقضوا العهد، بدءاً بغزو بني قينقاع، ثم إجلاء بني النضير، ثم الفتك بقريظة، ثم غزوة خيبر، وشمل عدداً من القبائل منها ماكان مع قريش في الخندق، ومنها ما صار مع المسلمين في الفتح، ومنها ماوقف معادياً للإسلام في حنين والطائف وغيرها من الغزوات، وكانت النقائض الشعرية هى الحرب اللسانية التي

---

(١) انظر تفاصيلها في السيرة ق ١ ص ٦٠٦ وما بعدها.

(٢) سورة الأنفال آية ٧.

(٣) انظر تفاصيلها وما قيل بعدها من نقائض في السيرة ق ٢ ص ٦٠ وما بعدها.

تعزز معارك القتال، فدخل ميدانها شعراء كثيرون من يهود ومن القبائل الأخرى، زادوا هذه الظاهرة الشعرية ازدهاراً وتفنناً.

وبذا يتضح لنا أن فترة الصراع الحربي بين الإسلام والشرك، هي الفترة التي برزت فيها ظاهرة النقائض الشعرية، وازدهرت متأثرة بهذه العوامل الإسلامية المحدثة، إلى جانب التأثير الذي عرفناه للعوامل الجاهلية الموروثة.

الفصل الثاني

النقائض في مرحلة إثبات الوجود الإسلامي

(من العقبة إلى بدر)

كانت محاولات الرسول صلى الله عليه وسلم لنشر دعوته بين القبائل دائبة جادة، بعدما لقي من قريش ألواناً من الصد والنكران، والعداء والإيذاء، وأسفرت هذه المحاولات عن نتيجة طيبة، حين التقى برهط من الخزرج في موسم الحج عند العقبة، ودعاهم إلى الله عز وجل وعرض عليهم الإسلام، وتلى عليهم القرآن، فقال بعضهم لبعض: ياقوم، تعلّموا والله إنه للنبي الذي توعدكم به يهود، فلا تسبقنكم إليه، وأجابوه فيما دعاهم إليه، ووعدوه أن يدعوا قومهم إلى أمره إذا عادوا إليهم، عسى أن يجمعهم الله عليه، ثم انصرفوا راجعين إلى المدينة المنورة، وقد آمنوا وصدقوا. وذكروا لقومهم أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم، ودعوهم إلى الإسلام حتى فشا فيهم[(١)].

وفي العام المقبل وافى الموسم من أهل المدينة اثنا عشر رجلاً، تسعة من الخزرج وثلاثة من الأوس، فلقوا رسول الله صلى الله عليه وسلم بالعقبة فبايعوه على الإسلام، وهي بيعة العقبة الأولى، قبل أن تفترض عليهم الحرب، وبعث معهم مصعب بن عمير ليعلمهم الإسلام، ويقرئهم القرآن. وزاد الإسلام انتشاراً بينهم[(٢)].

وفي العام التالي خرج عدد كبير منهم إلى مكة المكرمة في موسم الحج، فواعدوا رسول الله صلى الله عليه وسلم العقبة، فاجتمعوا به في الليل مستخفين، وكانوا ثلاثة وسبعين رجلاً وامرأتين، فبايعوه البيعة الكبرى على أن ينصروه ويمنعوه مما يمنعون منه نساءهم وأبناءهم، وأخذ عليهم العهد والميثاق المؤكد، وطلب منهم أن يختاروا منهم

(١) سيرة ابن هشام ق ١ ص ٤٢٩.

(٢) نفسه (انظر التفاصيل ص ٤٣١ وما بعدها).

اثنـى عشر نـقيباً، ليكونوا على قومهم بمافيهم، فأخرجوهم إليه، وهم تسعة من الخزرج وثلاثة من الأوس. فجعلهم كفلاء على قومهم ككفالة الحواريين لعيسى بن مريم[١].

ومـا أن عـلـمـت قريش بخبر هذه البيعة حتى جاءوا أهل المدينة في صبيحة اليوم التـالـى، يسألونهم و يعاتبونهم على هذا العمل العدائي، لما فيه من استخراجهم محمداً صلـى الله عـليه وسلم من بين أظهرهم، ومبايعته على حربهم، فسكت المسلمون ورد المشركون منهم مكذبين ماحدث، وحلفوا لهم بالله مؤكدين، إذ لم يكونوا على علم به، لأن المسلمين تكتموه ولم يخبروهم بشيء. ونفر الناس من منى راجعين إلى ديارهم، وكـان رجال قـريـش قـد تَـنَـطَّسُوا الخبر، فوجدوه قد كان، فخرجوا في طلب القوم، فـأدركوا سـعـد بـن عـبـادة والمـنـذر بن عمرو، وكلاهما كان نقيباً. فأما المنذر فأعجز القـوم، وأمـا سـعـد فـأخـذوه، فـربـطوا يديه إلى عنقه، ثم أقبلوا به حتى أدخلوه مكة المكرمة يضربونه. ولم يخلصه من أيديهم إلا رجلان منهم، كان يجير لهما تجارتها ويحميها حين يمران بالمدينة المنورة، وهما الحارث بن حرب وجبير بن مطعم[٢].

وهـذا الحـادث يدل على استياء قريش وغضبها لهذه البيعة، التي تنذر بخطر شديد يتهـددهـا، ولـعل هذا الغضب هو الذي دفع ضرار بن الخطاب الفهري[٣] إلى أن يقول شـعـراً يـعبر عـن غـضـبـه، ورغـبـتـه فـي الانتقام من الرجلين، فيلوم على إطلاق سعد و يتمنى لو نالت يده المنذر ليهدر دمه، يقول[٤]:

تـداركـتَ سـعـداً عَـنْـوةً فـأخـذتَـه	وكـان شـفـاءً لـو تـداركـتَ مُـنـذرا
ولـو نِـلـتُـه طُـلَّـت هـنـاك جـراحُـه	وكـان حـرِيّـاً أن يُـهـانَ ويُـهـدرا

---

(١) نفسه (انظر التفاصيل ص ٤٣٨ وما بعدها).

(٢) نفسه ص ٤٤٩ ـــ ٤٥٠.

(٣) كـان ضـرار فـارس قريش وشاعرها، ورث السيادة في بني محارب بن فهر عن أبيه وجده، وكان يـتـزعـم جمعاً من حلفاء قريش ومن مراق كنانة، فيغير و يسبي و يأخذ المال. عده بعض العلماء أشعر من ابن الزبعري وأقل سقطاً. أسلم عام الفتح (طبقات الشعراء ص ٩٨ والاستيعاب جـ ٣ ص ٩٠٢ والاشتقاق جـ ١ ص ١٠٢).

(٤) السيرة ق ١ ص ٤٥٠ ـــ ٤٥١.

فأجابه حسان بن ثابت ينقض قوله، ويحط من قدره إذا قيس بسعد أو المنذر، ويهزأ من تمنيه قتل أي منهما، فهذا حلم بعيد مناله عنه، و يواصل سخريته من ملبسه المنعم، ووهمه المنافي لحقيقته، ويهدده ضارباً الأمثال له بمن يجلب على نفسه الشر، و يقلل من أهمية شعر ضرار في مواجهة شعره وشهرته، يقول[1]:

لستَ إلى سعدٍ ولا المرءِ منذرٍ إذا ما مطايا القوم أصبحن ضُمرًّا

فلولا أبو وهبٍ لمرّت قصائدٌ على شرفِ البرقاءِ يهوينَ حُسَّرا[2]

أتفخرُ بالكتّان لما لبستَه وقد تلبَس الأنباطُ رَيْطاً مقصَّرا[3]

فلا تكُ كالوسنانِ يحلُمُ أنه بقرية كسرى أو بقرية قيصرا

ولا تكُ كالثكلىَ وكانت بمعزِلٍ عن الثُّكلِ لو كان الفؤادُ تفكَّرا

ولا تكُ كالشاةِ التي كان حتفُها بَحفر ذراعيها فلم تَرْض مَحفَرا[4]

ولا تكُ كالعاوى فأقبل نحرَه ولم يخشَه سهماً من النَّبل مُضمَرا

فإنّا ومن يُهدي القصائد نحونا كمستْبضِع تمراً إلى أرضِ خيبرا[5]

كانت هذه أول مناقضة شعرية بين شاعر مشرك وآخر مسلم، حسب ما أوردت مصادر السيرة. وهي ــ على ماتقدم ــ قيلت إثر بيعة العقبة الثانية أو الكبرى، وليست بعد الهجرة كما قال الأستاذ الشايب[6]، و يبدو أنه بنى حكمه على أساس قول ابن إسحاق الذي أورده ابن هشام مقدماً لبيتي ضرار بأنهما «أول شعر قيل في

---

(١) السيرة ق ١ ص ٤٥١.

(٢) أبو وهب: كنية سعد بن عبادة. البرقاء: موضع بالبادية. حسّرا: أضناها الإعياء.

(٣) الأنباط: قوم من العجم. الريط: الملاحف البيض، واحدتها ريطة.

(٤) يشبهه بشاه تحفر التراب فتثير ما يكون سبباً لذبحها، و يضرب بذلك المثل لمن أثار على نفسه شراً.

(٥) يشير فى الشطر الثانى إلى مثل معروف «كمستبضع التمر إلى خيبر» وخيبر مشهورة بكثرة تمرها، و يضرب هذا المثل لمن يدل بشيء بين أصحابه وذوي الخبرة والشهرة به.

(٦) تاريخ النقائض ص ١٢٠.

الهجرة»[1] بينما لم تكن هجرة النبي صلى الله عليه وسلم حدثت بعد، وإن كانت بدأت هجرة بعض أصحابه.

وواضح أن حسانَ في نقيضته كان شديد السخرية والاستهزاء بضرار، بالغ التحقير لشأنه والإعلاء لشأن صاحبيه، على أساس من عصبيته القبلية التي تربطه بهما، ولم يظهر في أبياته أي تأثير إسلامي، ولاغرابة في ذلك؛ إذ أن الإسلام كان مايزال حدثاً وليداً في نفوس الأنصار، ولم يتغلغل فيها بعد.

وتمضي الأحداث تباعاً، ويهاجر النبي صلى الله عليه وسلم إلى المدينة المنورة، وكان بعض صحابته قد هاجروا قبله، واستمرت هجرة بعضهم الآخر بعده، و يستقر المهاجرون في المدينة المنورة مع إخوانهم الأنصار. و يقضي النبي صلى الله عليه وسلم عاماً يمكن لدعوته، و يربي صحابته ثم يبدأ في الخروج منها بغزوات حولها في جماعات من المسلمين، كما يخرج سرايا من المهاجرين خاصة يقودها أكفاء منهم. وهدفه من ذلك تأمين الإسلام في داره الجديدة، وإرهاب قريش ومراقبة تحركاتها. وإعداد صحابته للجهاد المقبل، فلم يقع فيها صدام مع قريش إلا مناوشات يسيرة كما سبق أن أشرنا.

ونجد في السيرة بعض المناقضات الشعرية، التي قيلت في سرية عبيدة، وفي سرية حمزة. ففي الأولى نجد قصيدة منسوبة لأبي بكر الصديق مطلعها .[2]

أمِن طيفِ سلمى بالبطاحِ الدَّمائث أرقتَ وأمرٍ في العشيرة حادثِ

ولكن ابن هشام يقدم لها بقوله: «وأكثر أهل العلم بالشعر ينكر هذه القصيدة لأبي بكر»[3].

ويجيبه عبدالله بن الزبعري السهمي بنقيضة لها مطلعها :[4]

أمنْ رسم دارٍ أقفرت بالعَثاعِث بكيت بعينٍ دمعُها غيرُ لابث

(١) السيرة ق ١ ص ٤٥٠.

(٢) و (٣) نفسه ص ٥٩٢.

(٤) كان شاعر قريش في الجاهلية، و يقولون إنه كان أشعرها قاطبة، ولكنه كان يهجوها حتى هوا

ويعقب ابن هشام أيضاً عليها بأن أكثر أهل العلم بالشعر ينكرها له.[1]

وقول ابن هشام له أهميته في توثيق النقيضتين، إذ يغلب الشك فيها، وهذا الشك له جانبان: جانب النسبة، وجانب الأصالة. وكلام ابن هشام يمكن أن يفهم منه الشك في نسبتها لقائليها، ويقوي نفي نسبة قصيدة أبي بكر ماروى من حديث الزهري عن عروة عن عائشة أنها قالت: «كذب من أخبركم أن أبا بكر قال بيت شعر في الإسلام»[2].

وإذا نظرنا في جانب الأصالة، واعتبرنا أن النقيضين يمكن أن يكون قائلاهما غير أبي بكر وابن الزبعري من رجال هذه الفترة. فإننا لانجد دليلاً نرتكز عليه في معرفة قائليها، وإذا أمعنا النظر في تمحيص النصين لنرى مدى ملاءمتها لمستوى شعر هذه الفترة، وجدنا أنها دون المستوى، إذ تغلب عليها ركاكة الأسلوب، وسطحية المعاني، والنزعة الوعظية، مما يرجح أنها من القصائد التي كانت توضع لتزيين الخبر أو القصة، وهذا مثل من القصيدة الأولى يوضح ذلك:

تــرى مـن لـؤيٍّ فـرقـةً لايـصـدُّهـا ... عـن الـكـفـر تذكيرٌ ولابعثُ باعث

رسـولٌ أتـاهـم صـادقٌ فـتـكـذَّبـوا ... عـليه وقـالـوا: لـستَ فـينـا بـماكـث[3]

إذا مـا دعـونـاهـم إلـى الحـقِّ أدبروا ... وهـرُّوا هـريـرَ الـمُـحجرات اللواهث

فـكـم قـد مَـتَـتْـنـا فيـهـمُ من قـرابةٍ ... وتـركُ الـتـقَـى شيءٌ لهم غيرُ كارث

= بقطع لسانه، وقد تصدى للنبي صلى الله عليه وسلم بالجدل والاستهزاء والإيذاء، وكان أشد الشعراء عنفاً في هجائه وهجاء المسلمين. وأسلم عام الفتح (البيان والتبيين ١٠٨/١ والاستيعاب ٩٠١/٣ وطبقات الشعراء ٩٧ والسيرة في مواضع متعددة، وتفسير القرطبي ٤٠٦/٦، ٨٥/١٥ والأعلام ٢١٨/٤).

(١) السيرة ق ١ ص ٥٩٣.

(٢) نفسه ص ٥٩٢ هامش ٤.

(٣) من المحقق أن قريشاً لم تقل ذلك ولم تفعله، بل إنها حاولت منعه من الهجرة.

ومثل آخر من القصيدة الثانية :

ومن عجبِ الأيام والدهرُ كلُّه له عجبٌ من سابقاتٍ وحادث

لجيش أتانا ذى عُرامٍ يقودُه عبيدةُ يُدعى في الهياج ابنَ حارث [(١)]

لنترك أصناماً بمكة عُكَّفا مواريثَ موروثٍ كريمٍ لوارث

فمواضع الضعف بينة لاتحتاج إلى تفصيل القول أو العناء في إثبات أنها موضوعة، وشتان بين مستوى الشعر الصحيح لابن الزبعري ومستوى هذا الشعر.

وماقيل عن هاتين النقيضتين يمكن أن يقال أيضاً عن نقيضتين أخريين، قيلتا في سرية حمزة، نسبت أولاهما لحمزة، ونسبت ثانيتها لأبي جهل، وعلق عليهما ابن هشام بأن أكثر أهل العلم بالشعر ينكرهما لهما[(٢)]. ونسوق مثلاً من القصيدة المنسوبة لحمزة رضى الله عنه لنتبين مظاهر الضعف والوضع :

ألا يا لقومي للتحلُّم والجهل وللنقصِ من رأي الرجالِ وللعقلِ

وللراكبينا بالمظالم لم نطأ لهم حرماتٍ من سوامٍ ولا أهل

فما برحوا حتى انتدبتُ لغارةٍ لهم حيث حلُّوا أبتغي راحةَ الفضل [(٣)]

بأمر رسول الله أولُ خافقٍ عليه لواءٌ لم يكن لاح من قبل [(٤)]

ويستمر في سرد الأحداث على هذا النحو من الضعف والركاكة. وهذا مانجده أيضاً في القصيدة المنسوبة لأبي جهل، ومنها هذه الأبيات:

عجبتُ لأسبابِ الحفيظةِ والجهل وللشاغبين بالخلاف وبالبُطل

وللتاركين ماوجدنا جدودَنا عليه ذوي الأحساب والسؤدَدِ الجزْل

(١) ليس من المستساغ أن يقول ابن الزبعرى ذلك عن عدوه، كما أن الجيش كان قليل العدد.

(٢) السيرة ق ١ ص ٥٩٦، ٥٩٧، ٥٩٨.

(٣) لا يستساغ لقائد محارب أن يقول ذلك الشعر، الذى يشبه وعظ الوعاظ.

(٤) يبدو أن واضع الشعر كان مهتماً بأن يجعل حمزة أول قائد للواء المسلمين، ولا أظن أن حمزة (رضى الله عنه) كان يعير هذا الأمر اهتماماً.

فقلنا لهم: يا قومنا لاتخالفوا　　على قومكم إن الخلاف مدى الجهل

فقالوا لنا: إنا وجدنا محمداً　　رضاً لذوي الأحلام منا وذي العقل[1]

ويمضي في سرد أخبار لقائه بسرية حمزة، وحجز مجدي بن عمرو الجهني بينهما، مع التهديد والوعيد، بهذا المستوى المزيل الذي لايخفى الوضع فيه على بصير بالشعر، ومع أن من وضع هذه النقائض كان يتمثل موقف قائليها من الإسلام والشرك إلا أنه فاتته تفصيلات دقيقة تكشف تزييفه وانتحاله.

وتأتي غزوة بدر فتحقق ماكان متوقعاً من صراع دام بين المعسكرين، ولتنفذ كلمة الله بنصره الذي وعد به رسوله، ولتتكسر شوكة الشرك، وينحطم صرح التغطرف والصلف، الذي كان قائماً في وهم قريش. وكان وقع الهزيمة قاسياً عليها أشد القسوة، إذ قتل كثير من رجالها، بينهم عدد من سادتها غير قليل، فلم تستطع أن تكتم حسراتها وأحزانها، وانفجرت تبكيهم وترثيهم أحر رثاء. ولم يتركهم شعراء المسلمين يتجرعون غصص أحزانهم، بل نقضوها عليهم ليزيدوهم غماً على غم، من ذلك رثاء ابن الزبعري لقتلاهم، يقول :[2]

ماذا على بدرٍ وماذا حولَه　　من فتيةٍ بيضِ الوجوهِ كرامِ

تركوا نُبيهاً خلفهم ومُنبِّهاً　　وابنَيْ ربيعةَ خيرَ خَصم فِئامِ[3]

والحارثَ الفياضَ يبرُقُ وجهُه　　كالبدرِ جلَّى ليلةَ الإظلامِ[4]

والعاصِيَ بنَ منبِّهٍ ذا مِرَّةٍ　　رُمحاً تميماً غيرَ ذي أوْصام

تَنمِي به أعراقُه وجدودُه　　ومآثرُ الأخوالِ والأعمام

---

(١) هل يعقل أن يصدر عن أبي جهل هذا المدح لأعدائه المسلمين ؟

(٢) السيرة ق ٢ ص ١٥. وذكر ابن هشام أنها تروى للأعشى بن زرارة بن النباش.

(٣) نبيه ومنبه: ابنا الحجاج من بني سهم. ابنا ربيعة: شيبة وعتبة (أبو الوليد) من عبد شمس. فئام: جماعات من الناس.

(٤) الحارث بن زمعة من بني أسد. الفياض: الجواد كثير العطاء.

وإذا بـكـى بـاكٍ فـأعْـولَ شـجْـوَه   فعلى الرئيسِ الماجد ابنِ هشام [1]

حيَّـا الإلـه أبـا الـولـيـد ورهـطـه   ربُّ الأنـامِ وخـصَّـهُـم بـسـلام

فهو يبكي بعض سادة قريش الهالكين في بدر، معدداً مآثرهم من شرف الحسب وكرم الأرومة والنسب والقوة والحزم وسداد الرأي، وهي صفات كانت قوام السيادة والمجد في مجتمع الجاهلية، ثم نراه يدعو لهم الله أن يخصهم بسلامه.

ومع أن ابن الزبعري قصر رثاءه على بكاء القوم وتمجيدهم، ولم يعرض لقاتليهم من أي وجه، فإن حساناً ينبري له مناقضاً، فيجيبه بقوله : [2]

ابـكِ بـكـتْ عـيـنـاك ثم تـبـادرتْ   بـدمٍ تُـعـلُّ غـروبُـهـا سـجَّـام [3]

مـاذا بـكـيـتَ بـه الـذيـن تـتـابـعوا   هـلاَّ ذكـرتَ مـكـارمَ الأقـوام [4]

وذكـرتَ مـنـا مـاجـداً ذا هـمَّـةٍ   سـمـحَ الخـلائـق صـادقَ الإقـدام

أعـنـى الـنـبيَّ أخـا المكارمِ والـنـدى   وأبـرَّ مـن يُـولـىَ عـلـى الإقـسـام

فـلـمـثـلـه ولمـثـلِ مـايـدعـو لـه   كـان المـمـدَّحَ ثَـمَّ غـيـرَ كـهـام

وكـأنمـا أراد حسان أن يتشفى منه وممن يبكيهم، وأن يزيده حسرة على حسرة، إذ يستنكر البكاء على هؤلاء الذين ألقوا بأنفسهم في التهلكة، فهم لايستحقون ذلك، وأن الأولى بالذكر الطيب هو النبي الكريم ذو الهمة العالية، والخلق السمح، والإقدام الصادق، فله ولدعوته الحقة ينبغي أن يوجه الاهتمام، وكأنه يغتنم هذه الفرصة ليدعوه إلى أن يسلم ويؤمن، ولعل ماحدث يكون عبرة له وعظة.

ويعلو صوت شعراء الإسلام بالفخر والإشادة بنصرهم المؤزر، الذي حباهم الله

---

(١) ابن هشام: أبو جهل، وبعضهم يرى أنه أبو البخترى العاص بن هشام، ولكن ابن هشام فى سيرته يصحح اسم أبيه على أنه هاشم لا هشام (انظر ق ١ ص ٢٦٤).

(٢) السيرة ق ١ ص ١٦. والديوان ص ٢٧٠ مع اختلاف فى بعض الألفاظ.

(٣) تعل: من العلل وهو تكرار الشرب. غروب: مجارى الدمع. سجام: سائل.

(٤) تتابعوا: ألقو بأنفسهم فى التهلكة.

به، والتنديد بأهل الشرك، وما آل إليه أمرهم من المذلة والهوان، بقتل من قتل، وأسر من أسر، وفرار من جبن، ومن ذلك قصيدة حسان، التي يقول في مطلعها :[1]

تبلتْ فؤادَكَ في المنام خريدةٌ ۝ تسقي الضجيعَ ببارِدٍ بسَّامِ

ويستطرد في نسيبه وغزله بالمحبوبة التي زاره طيفها في المنام، ويجري حواراً بينه وبينها، تلومه فيه، وهو يكذبها، ممهداً لغرضه المقصود، وهو السخرية من فرار الحارث ابن هشام من المعركة، وتركه الأحبة يقتلون — وفيهم أخوه أبو جهل — دون دفاع عنهم، يقول :

إن كنت كاذبة الذي حدثتِني ۝ فنجوتِ مَنجَى الحارث بن هشام

تركَ الأحبةَ أن يقاتلَ دونهم ۝ ونجا برأسِ طِمِرَّةٍ ولجام[2]

وبنو أبيه ورهطُه في معركٍ ۝ نصرَ الإلهُ به ذوي الإسلام

طحنتهمُ، واللهُ يُنفِذُ أمرَه ۝ حربٌ يُشَبُّ سعيرُها بضرام

لولا الإله وجريُها لتركنه ۝ جزرَ السباع ودُسْنَه بحوام

وهكذا يمضي في قصيدته مصوراً بطولة المسلمين في الفتك بالمشركين تقتيلاً، وأسرهم إذلالاً، وما تركه هول المعركة في نفس الحارث من رعب شديد، جعله يؤثر الفرار مكللاً بالذل والعار.

ولم يكن أمام الحارث بن هشام من سبيل إلى تكذيب حسان ونقض ماقاله وافتخر به، إلا أن يدافع عن موقفه، محاولاً تبرير فراره من المعركة، لتخفيف وطأة العار الذي وصم به، فأجابه بأبيات لم يلتزم فيها بالقافية وإن التزم الوزن يقول :[3]

---

(١) السيرة ق ٢ ص ١٧، ١٨ وديوان حسان تحقيق د. سيد حنفي ص ١٠٦ وما بعدها، مع اختلاف في رواية بعض الأبيات وترتيبها.

(٢) الطمرة: الفرس الكثيرة الجري.

(٣) السيرة ق ٢ ص ١٨، وقد وردت الأبيات في كثير من المصادر القديمة موافقة لرواية السيرة، ماعدا عيون الأخبار الذي انفرد برواية بيت جديد تماماً ولم يورد البيت الثاني (انظر جـ ١ ص ١٦٩).

اللهُ أعلمُ ماتركتُ قتالهم حتى حَبَوْا مُهرى بأشقر مُزبد[1]

وعرفتُ أنى إن أقاتلْ واحداً أقتلْ ولا يَنْكِى عدوِّى مَشهدى[2]

فصددتُ عنهم والأحبة فيهمُ طمعاً لهم بعقاب يومٍ مُفسدِ

فهو يعترف بتركه القتال لهول ما رآه من دماء تسفك، وتتفجر متناثرة في كل مكان، حتى غطت فرسه وصبغته بلون أشقر مزبد، وأن القتل قد استحر حتى أهلك قومه وأفناهم، فلما وجد نفسه وحيداً في المعركة، أيقن من أنه مقتول لا محالة إذا واصل القتال، وأن قتله لن يضر عدوه شيئاً، فآثر أن ينجو بنفسه على أمل الإعداد لمعركة أخرى يثأر فيها للأحبة الهاكين، و يعاقب أعداءه عقاباً قاسياً في يوم يكون و بالاً عليهم. ومهما كانت إجابته ومحاولته تلمس الأسباب لتبر ير فراره، فوقفه ضعيف وصعب، لايتيح له الانطلاق في القول، ومواجهة عاصفة التفاخر والسخر ية التي شنها عليه حسان.

ولما اشتدت على قر يش ضربات القول القاسية من شعراء المسلمين، حاول ضرار ابن الخطاب أن يتصدى لهم، مهوناً من شأن ماحدث، متوعداً إياهم بالثأر والانتقام، فيقول[3]:

عجبتُ لفخرِ الأوسِ والحيْنُ دائرُ عليهم غداً والدهرُ فيه بصائرُ

وفخرِ بني النجارِ إن كان معشرُ أصيبوا ببدر كلُّهم ثَمَّ صابر

فإن تكُ قتلَى غُودرتْ من رجالنا فإنا رجالٌ بعدهم سنغادر

فهو يبدي عجبه من تفاخر الأوس و بني النجار لقتل رجال قر يش في بدر، فهم قتلوا صابر ين في المعركة، وذلك موقف بطولي يحسب لهم، والموت كأس دائر على الجميع، وكلنا لابد أن نتجرعه، وغداً سيدور عليكم أيها المتفاخرون، فتبصروا حكم

(١) يريد بالأشقر: الدم. والمزبد: الذى علاه الزبد.
(٢) ينكى: يؤلم و يوجع.
(٣) السيرة ق ٢ ص ١٣، ١٤. والبداية والنهاية جـ ٣ ص ٤.

الدهر، ولكنه يحس ضيق الموقف عليه في الدفاع عن قضية خاسرة، فينفذ سريعاً إلى مجال أرحب، ينطلق فيه متوعداً إياهم بهجوم ساحق يجتاح ديارهم، ويتركهم صرعى تبكيهم نساؤهم :

وتَردي بنا الجُردُ العناجيجُ وسْطكم بني الأوسِ حتى يشفيَ النفس ثائر[1]

ووسط بني النجار سوف نكرُّها لها بالقنا والدَّارعين زوافر[2]

ونتركُ صرعَى تَعصِبُ الطيرُ حولهم وليس لهم إلا الأمانّي ناصر

وتبكيهمُ من أهل يثربَ نسوةٌ لهنَّ بها ليلٌ عن النوم ساهر

وذلك أنّا لا تزالُ سيوفُنا بهنَّ دمٌ ممَّن يحاربنَ مائر[3]

ويتنقل ضرار من وعيده وتهديده، الذي أطفأ به بعض مايضطرم في نفسه من رغبة جامحة في الانتقام والثأر، إلى محاولة لتجريد هؤلاء الأنصار من أسباب النصر التي يتفاخرون بها، ليردها إلى وجود أحمد بينهم، ومعه أولياؤه من رجال قريش الأخيار، فبهم كان الظفر الظاهر، وإليهم يعود الفضل فيه، لأنهم هم أبطال الهيجاء المحامون، وليس لأبناء الأوس والخزرج فضل في ذلك :

فإن تظفَروا في يوم بدرٍ فإنما بأحمدَ أمسى جَدُّكم وهو ظاهرُ

وبالنفرِ الأخيارِ هم أولياؤه يحامون في اللأواءِ والموتُ حاضر

أولئك لا مَنْ نَتَّجت في ديارها بنو الأوس والنجار حين تُفاخر

ولكنْ أبوهم من لؤيِّ بن غالب إذا عُدَّت الأنسابُ كعبٌ وعامر

هم الطاعنون الخيلَ في كلِّ مَعركٍ غداةَ الهياجِ الأطيبون الأكاثر

---

(١) تردى: تسرع. الجرد: الخيل العتاق القصيرات الشعر. العناجيج: جمع عنجوج وهو الطويل السريع.

(٢) زوافر: جمع زافرة، وهي الحاملات للثقل.

(٣) مائر: سائل.

وواضح أن ضرارا يستغل عصبيته القبلية استغلالاً ذكياً في مناقضته. فهو لايرى معركة بدر ونتائجها إلا في إطار جاهلي، وأن عصبة قريش هي صاحبة اليد الطولى فيها، ولايعترف بأنها معركة بين الإسلام والشرك، بل يفرق بين الأنصار والمهاجرين تفرقة خبيثة، ليسلب الأنصار أي فضل من بطولة، ويرجعه إلى المهاجرين من بني قومه، ولعله ظن ـ بنظرته الجاهلية ـ أنه بذلك يمكن أن يثير ضغناً يفتت وحدة الفريقين.

وينبرى لضرار كعب بن مالك، ينقض قوله بمفهوم إسلامي جديد عليه، يرد فيه النصر إلى مشيئة الله وقدرته القاهرة، بيد جنوده المؤمنين به وبرسوله الكريم. يقول:[١]

عجبتُ لأمر الله واللهُ قادرٌ ... على ما أرادَ، ليس لله قاهرُ

قضَى يومَ بدرٍ أن نلاقىَ معشراً ... بَغَوْا وسبيلُ البغي بالناس جائر

وقد حشدوا واستنفَروا من يَليهمُ ... من الناس حتى جمْعُهم مُتكاثر

وسارت إلينا لاتحاولُ غيرَنا ... بأجمعها كعبٌ جميعاً وعامر

فنراه يبدأ نقيضته متعجباً كما بدأ ضرار، ولكنه يختلف عنه تماماً في تعجبه، إذ يجعله تعجب مؤمن بقدرة الله وقضائه في ذلك اليوم، فإرادته هى التي دبرت أن يلاقوا هؤلاء القوم الباغين، ليثبت حكمته فيما ينتهي إليه البغي من خسران. ثم يذكر ماتجنب ضرار ذكره، من جمعهم الحاشد الكثير عدده، الذي ساروا به إليهم قاصدين حربهم، متمادين في بغيهم، ليؤكد ثقل الهزيمة عليهم من قلة مؤمنة. ثم يذكر كعب كيفية تصديهم لهؤلاء البغاة، فيقول :

وفينا رسولُ اللهِ والأوسُ حولَه ... له معقِلٌ منهم عزيزٌ وناصر

وجمعُ بني النجار تحت لوائه ... يُمَشُّوْن في الماذِيِّ والنقعُ ثائر[٢]

فلما لقيناهمْ وكلٌّ مجاهدٌ ... لأصحابه مُستبسِلُ النفس صابر

(١) السيرة ق ٢ ص ١٤، ١٥. وديوان كعب ص ٢٠٠، ٢٠١.

(٢) يروى «يميسون» موضع «يمشون» والميس: التبختر والاختيال. الماذى: الدروع البيض اللينة.

شَهِدنا بأن الله لا ربَّ غيرَه وأن رسول الله بالحقّ ظاهر

وقد عُرِّيت بيضٌ خِفافٌ كأنها مقابيسُ يُزهيها لعينيك شاهر[1]

بهنَّ أبدْنا جمعَهم فتَبدَّدوا وكان يلاقي الحيْنَ من هو فاجر

فهو يقدم رسول الله صلى الله عليه وسلم قائداً للمسلمين في تلك المعركة، تأكيداً لإيمانه بالغاية من ورائها، وأنها حرب دينية وليست صراعاً قبلياً جاهلياً كما أراد ضرار أن يصورها، ويركز كعب على إظهار دور الأنصار من الأوس والخزرج حول رسول الله صلى الله عليه وسلم في المعركة، وكيف حاموا عنه وعززوه، نقضاً وقلباً لقول ضرار، الذي ألغى به جهادهم، وسلبهم بطولتهم، وهو لايذكر المهاجرين إغفالاً لدورهم، وإنما لأن هذا الدور لاخلاف عليه، ويكفي أن ضراراً أشاد به وأظهره، ثم إنه يصف كل مجاهد من المسلمين بالاستبسال والصبر في لقاء العدو، وهذا التعميم يشمل الأنصار والمهاجرين على السواء، فهم جميعاً يلتقون عند غاية واحدة من الإيمان بوحدانية الله، وحتمية ظهور الحق بنصره لرسوله، وبجهادهم البطولي الذي أباد جمع الكفرة الفجرة، وألحق بهم خزى الدنيا والآخرة.

ويمضي كعب في نقيضته معدداً بعض أسماء القتلى من رؤساء قريش، مصوراً ما أصابهم من نكال وخزى لكفرهم، وقد أمسوا وقوداً لنار جهنم، مع غيرهم ممن كفر، يصلون لظى لهيبها وشدة حميها، ثم يختم نقيضته بأن ماحدث لهم كان بأمر من الله الذي أراد لهم أن يهلكوا به وليس لأمره من راد:

لأمر أراد اللهُ أن يَهلِكوا به وليس لأمرٍ حَمَّه اللهُ زاجر

وبهذا يؤكد كعب التزامه المنهج الإسلامي في مناقضته لضرار، متجنباً نزعته الجاهلية القبلية، متصدياً لها بنزعة إسلامية، قلبت موازين قيمهم المتهرئة، لتقيم مكانها قيماً جديدة، على مبادئ الإسلام وتعاليمه.

وهناك نقيضتان قيلتا في يوم بدر؛ أولاهما تنسب لحمزة بن عبد المطلب، مطلعها:[2]

(١) يزهيها: يستخفها ويحركها.

(٢) السيرة ق ٢ ص ٨، ٩.

ألم ترَ أمراً كان من عجب الدَّهر وللحَيْن أسبابٌ مبيَّنةُ الأمرِ

وثانيتها تنسب للحارث بن هشام مجيباً حمزة، مطلعها:[١]

ألا يا لقومي للصبابة والهجر وللحزن مني والحرارة في الصدر

وقد أوردهما ابن هشام على رواية ابن إسحاق، ولكنه علق عليها بأن أكثر أهل العلم بالشعر ينكرهما[٢]، والأرجح أن هؤلاء الأكثرية من أهل العلم بالشعر كانوا على حق في إنكارهما، فكلتاهما ضعيفتا البناء والأسلوب، لا ترقيان إلى مستوى الأشعار الصحيحة التي قيلت في هذه الفترة، وقصيدة حمزة ليست إلا نظماً إخبارياً لما حدث يوم بدر وما أنزل فيه من آيات قرآنية، وقصيدة الحارث منظومة تترجم عن موقفه من الهزيمة ومن قتل أخيه أبي جهل، ودعوة إلى الثأر. ولعل أصحاب مصادر السيرة الآخرين، قد أحجموا عن إيراد النقيضتين لضعفهما الظاهر، ولأنهما من رواية ابن إسحاق، التي لايوثق بها. ومن ثم يترجح لدينا الحكم بأنهما منحولتان، دون الدخول في تفاصيل أبياتهما التي تعزز هذا الحكم.

ومثلهما نقيضتان أخريان، أولاهما تنسب لعلي بن أبي طالب، ومطلعها:[٣]

ألم ترَ أن الله أبلَى رسولَه بلاءَ عزيزٍ ذي اقتدارٍ وذي فضل

وثانيتها منسوبة للحارث بن هشام يجيب بها علياً، ومطلعها:[٤]

عجبتُ لأقوامٍ تغنىَّ سفيهُهم بأمرٍ سفاهٍ ذي اعتراضٍ وذي بُطْل

ويقول ابن هشام في تقديمه لأولاهما: «ولم أر أحداً من أهل العلم بالشعر يعرفها ولانقيضتها، وإنما كتبناهما لأنه يقال: إن عمرو بن عبدالله بن جدعان قتل يوم بدر، ولم يذكره ابن إسحاق في القتلى وذكره في هذا الشعر»[٥]. وهذا القول لابن هشام

(١) نفسه ص ١٠، ١١.
(٢) نفسه ص ٨.
(٣) نفســـه ١١، ١٢.
(٤) نفسه ص ١٢، ١٣.
(٥) نفسه ص ١١.

يقدم الدليل الأقوى لنحلها، من عدم معرفة أحد من أهل العلم بالشعر بها، وليس ذكر عمرو هذا فيها مبرراً لإيرادهما، على افتراض أن يكون ذلك من دواعي صحتها، فإن هذا السبب نفسه يمكن أن يكون من دواعي نحلها. هذا إلى مايبدو واضحاً على النقيضتين من ضعف بين، وأنها كسابقتيها من رواية ابن إسحاق، الذي كان يؤتى بالأشعار، فيدخلها في كتابه، دون تمحيص لها، لأنه لم يكن له علم بالشعر[1]. كما أن المصادر الأخرى التي احتفلت برواية أشعار السيرة لم توردهما، وكل ذلك يدعم الشك في صحتها والحكم بانتحالها.

وقد شارك شعراء آخرون من غير قريش في رثاء قتلاها، لما كان لها من مكانة بين القبائل، ولما أحدثته هزيمتها في بدر من صدمة زلزلت النفوس، وأثارت المخاوف من هذا الخطر الإسلامي المحدق. ولعل ذلك ماجعل رثاءهم زاخراً بالتحريض ضد الإسلام وأتباعه، على نحو مانرى في رثاء أمية بن أبي الصلت[2] لهم، وكذلك في رثاء كعب بن الأشرف اليهودي، الذي أوردت السيرة نقضاً له، وهو ما يعنينا في هذه الدراسة. وكان كعب قد أذهله سماع خبر بدر فقال: «أحق هذا؟ أترون محمداً قتل هؤلاء الذين يسمى هذان الرجلان ــ يعني زيد بن حارثة وعبدالله بن رواحة اللذين أبلغاهم الخبر ــ فهؤلاء أشراف العرب وملوك الناس، والله لئن كان محمد أصاب هؤلاء القوم، لبطن الأرض خير من ظهرها»[3]. وذهب إلى قريش بمكة، وجعل يحرض على رسول الله صلى الله عليه وسلم وينشد الأشعار، ويبكي أصحاب القليب من قريش، الذين أصيبوا ببدر، فقال:[3]

طَحنتْ رحَى بدرٍ لمَهلِكِ أهلِه ولمثلِ بدرٍ تَسْتَهِلُّ وتَدْمعُ
قُتلتْ سراةُ الناسِ حولَ حياضِهم لاتَبْعَدوا إن الملوكَ تُصرَّع

(١) الفهرست ص ١٣٦، وطبقات الشعراء ص ٧.
(٢) انظره فى السيرة ق ٢ ص ٣٠ ــ ٣٣.
(٣) السيرة ق ٢ ص ٥١. وكعب هو أحد بنى نبهان الطائيين، وأمه يهودية من بنى النضير. كان شاعراً فارساً قوي الشكيمة. وله مناقضات مع حسان وغيره فى حروب الأوس والخزرج قبل الإسلام (طبقات الشعراء ص ١١٠، والأغاني جـ ١٩ ص ١٠٦، والمغازى ص ١٨٥).
(٤) السيرة ق ٢ ص ٥٢.

كم قد أصيب به من ابيضَ ماجدٍ ذي بهجةٍ يأوي إليه الضُيَّع
طلقِ اليدين إذا الكواكبُ أخلفتْ حمَّالِ أثقالٍ يسودُ ويَرْبَع[1]

فهو يهول ماحدث في بدر من هلاك هؤلاء الأشراف، و يراهم جديرين بأن يبكى عليهم و يستبكي، و يشيد بما كان لهم من سيادة ومجد، ومعروف وكرم، وهيبة وهمة عالية، و يتبع كعب ذلك بتحديه للمسلمين فيقول :

ويقولُ أقوامٌ أُسَرُّ بسُخطهم إن ابن الاشَرف َظلّ كعباً يجزع
صَدقوا فليت الأرضَ ساعة َقُتِّلوا ظلَّت تسوخُ بأهلها وتُصدَّع
صار الذي أثَرَ الحديثَ بطَعْنه أو عاش أعمَى مُرعَشاً لايسمع

فإعلانه عن جزعه لمقتلهم، سوف يثير سخط المسلمين عليه، وسخطهم هذا يسره، وهذا يعني أنه حاقد عليهم أشد الحقد، يريد أن يغيظهم بقوله، و يتمنى لو أن الأرض زلزلت وصدعت وساخت بأهلها لمقتل هؤلاء، وأن من يبدي سخطه عليه من المسلمين يصير أعمى أصم مرتعش الأعضاء. و ينتقل إلى إثارة حفائظ القرشيين، وتحريضهم على الانتقام، فيقول :

نُبِّئتُ أن بني المغيرة كلَّهم خَشَعوا لقتلِ أبي الحَكمِ وجُدِّعوا[2]
وابنا ربيعة عنده ومنبِّهٌ ما نال مثل المُهلكين وتُبَّع
نُبِّئتُ أن الحارث بن هشامهم في الناسِ يبني الصالحاتِ ويجمع
ليزورَ يثربَ بالجموعِ ِوإنما يَحْمَى على الحسبِ الكريمُ الأَرْوع

فذكره لبعض أسماء القتلَى من سادة قريش، وما أصاب ذويهم وعشائرهم من شرخ لعزتهم وكبريائهم، إنما يهدف إلى إثارة دواعي الثأر في نفوسهم، وأن مابلغه عن إعداد الحارث بن هشام العدة للحرب، وتجميع الجموع للانتقام من المسلمين في

(١) طلق اليدين: أي كثير العطاء والمعروف. وأخلفت الكواكب: أي لم يكن معها مطر فتجدب الأرض، يربع: يأخذ ربع الغنيمة على عادة الرؤساء فى قبائلم وعشائرهم فى الجاهلية.
(٢) أبى الحكيم هو أبو الحكم المشهور بأبى جهل. جدعوا: قطعت أنوفهم، وأراد به هنا ذهاب عزهم.

يثرب هو غاية التحريض التي يضعها موضع اليقين، فلا يترك لهم سبيلاً إلى التراجع عن تحقيق تلك الغاية.

وأجابه حسان ناقضاً قوله، فقال:[1]

أتبكّي لكعبٍ ثم عُلَّ بعَبرةٍ منه وعاش مجدَّعاً لا يَسمعُ؟
ولقد رأيتُ ببطنِ بدرٍ منهمُ قتْلَى تَسُحُّ لها العيونُ وتَدمَع
فابكي فقد أبكيت عبداً راضعاً شِبْه الكُليب إلى الكليبةِ يَتْبع
ولقد شفَى الرحمنُ منا سيِّداً وأهانَ قوماً قاتلوه وصُرِّعوا
ونجا وأفلتَ منهم من قلبُه شعَف يظلُّ لخوفه يتصدَّعُ[2]

فهو يسخر من بكاء كعب وممن يبكي لبكائه، إمعاناً في إذلالهم، ويذكرهم بقتلاهم في بدر ليزدادوا حزنا عليهم، وتسح عيونهم الدموع الغزار لفقدهم، ويهجو كعباً بأنه عبد تابع لقريش، ويشبهه بالكليب الذي يتبع أمه ليرضع منها، ثم يتشفى منهم بما أراده الله لهم من هلاك وهوان لقتالهم رسوله الكريم، وليشفى نفسه منهم، ويهزأ حسان ممن فر منهم ناجياً بنفسه من المعركة، جبناً وهلعاً صدع قلبه، ولعل حسان يعني بذلك الحارث بن هشام، الذي سبق أن عيره بفراره، ليقلب قول كعب عنه وعن إعداده للانتقام، كأنما يريد أن يقول له: كيف لجبان مثله أن يعاود القتال؟

ولعل شعور حسان بأنه في موقف القوة جعله يكتفي بهذا الرد الموجز، الذي شفى به واشتفى، وجمع كل عناصر النقض اللازمة لإفحام خصمه كعب، والنيل من خصومه القرشيين.

وانبرت لكعب كذلك امرأة من المسلمين من بني مُرَيد ــ بطن من بلى ــ

---

(١) السيرة ق ٢ ص ٥٣، وديوانه ص ٣٩٠.
(٢) شعف: ملتهب محترق، ويروى «شغف» بمعنى أن الحزن بلغ إلى شغاف قلبه.

كانوا حلفاء في بني أمية بن زيد ـ يقال لهم الجعادرة ـ واسمها ميمونة بنت عبدالله، تجيب كعباً في بكائه على قتلى بدر :[1]

تحنَّن هذا العبدُ كلَّ تحنُّن ... يُبَكِّي على قتلَى وليس بناصب

بكتْ عينُ من يبكى لبدرٍ وأهلِه ... وعُلَّتْ بمثلَيْها لُؤَيُّ بن غالب

فليت الذين ضُرِّجوا بدمائهم ... يَرى مابهم من كان بين الأخاشب[2]

فيعلمُ حقاً عن يقينٍ ويُبصروا ... مَجرَّهمُ فوق اللِّحَى والحواجب

فقد هجته فجعلته عبداً يتحنن أسياده ببكاء قتلاهم، ودعت له ولهم باستزادة البكاءِ ليزدادوا حسرة وكمداً، وشمتت بهم متمنية لو رأوا قتلاهم صرعى مضرجين في دمائهم، تجر رءوسهم في التراب مهينة، ليعلم يقيناً بما أصابهم من ذل ونكال.

وأجابها كعب بن الأشرف ناقضاً قولها فقال[3] :

ألا فاز جروا منكم سفيهاً لتَسْلَموا ... عن القول يأتي منه غيرَ مُقارِب

أتشتُمنى أن كنتُ أبكى بعبرةٍ ... لقومٍ أتاني وُدُّهم غيرُ كاذب

فإني لباكٍ مابقيتُ وذاكرٌ ... مآثرَ قومٍ مجدُهم بالجباجب[4]

لعمري لقد كانت مُرَيدٌ بمعزلٍ ... عن الشرّ فاحتالت وجوةَ الثعالب

فحُقّ مريدٌ أن تُجَدَّ أنوفُهم ... بشتمهمُ حيَّىْ لؤيّ بن غالب

فهو يهجوها رامياً إياها بالسفاهة، ويهدد المسلمين بهجائه إن لم يزجروها، وينقض شتمها له لبكائه قتلى قريش في بدر، بتوجيه موقفه منهم على أنه قائم على الود الصادق في علاقتهم به، ويصر على استمراره في بكائه لهؤلاء القوم، وذكر مآثرهم

---

(١) السيرة ق ٢ ص ٥٣. وبنو أمية بن زيد بطن من الأوس.

(٢) ضرجوا: لطخوا. والأخاشب يريد بها الأخشبين، وهما جبلان بمكة، جمعهما مع ما حولها.

(٣) السيرة ق ٢ ص ٥٤.

(٤) الجباجب: منازل مكة.

وأمجادهم مابقى حياً، ليزيد في إغاظة خصومه، ثم يصب هجاءه على بني مريد ــ عشيرة ميمونة ــ مستهزئاً بهم، لانعزالهم عن الشر، جبناً وضعفاً، حسبما هو معروف في قيم الحياة الجاهلية، وأنهم يحتالون للدخول فيه بمكر كمكر الثعالب، وأنهم يستحقون جذ أنوفهم إذلالاً لهم، لتجرؤهم على شتم قريش.

وإذا كانت هذه المناقضات الثلاثة الأخيرة ــ من رد حسان على كعب، ومابين ميمونة وكعب ــ قد علق عليها ابن هشام بأن أكثر أهل العلم بالشعر يستنكرونها لهم[1]، إلا أن تصويرها الدقيق للمواقف، وتماثل مستواها الفني مع مستوى شعر هذه الفترة، وانحسار عوامل الوضع وظواهره عنها، كل ذلك يجعلنا نرجح صحتها.

من هذه النقائض التي أوردتها مصادر السيرة، للمرحلة الأولى من مراحل الصراع، بين الجماعة الإسلامية الناشئة من الأنصار والمهاجرين في المدينة المنورة، وجمع الشرك المتأصل في قريش بمكة، ومن أيدها، يتبين لنا بزوغ هذه الظاهرة الشعرية بوجه جديد، ترتسم عليه سمات التغيير المصاحبة لدعوة الإسلام، وتنطبع عليه صور الأحداث المواكبة لهذا الصراع. وهي أحداث أثبتت وجود الإسلام ديناً له أتباعه المؤمنون به، إيماناً يدفعهم إلى التضحية في سبيله بكل مايملكون من مال ونفس. وأنهم أصبحوا يشكلون قوة ظاهرة قادرة على التصدي لقوى البغي والشرك، التي تبذل قصارى جهدها للحيلولة دون انتشار هذا الدين.

---

(١) السيرة ق ٢ ص ٥٣.



الفصل الثالث

النقائض في مرحلة الحفاظ والثأر

(بعد بدر إلى أُحد)

كانت هزيمة قريش في بدر شديدة الوقع على نفوس القوم، إذ أذلت كبرياءهم وغطرستهم، وزلزلت أركان سيادتهم ومكانتهم التي تبوءوها بين القبائل، فلم يكن من السهل عليهم أن يصبروا على مالحقهم من عار، أو يقعدوا عن الأخذ بثأرهم، ليشفوا غليل الضغن المستعر في قلوبهم، وليرفعوا رءوسهم مرة أخرى بعد أن نكستها هذه الهزيمة. وما كادوا يفيقون من هول صدمتها القاسية، حتى بدءوا يعدون العدة لمعركة الثأر، و يشحذون الهمم لخوضها بكل قواهم المعنوية والمادية. وزاد من إثارة حفائظهم تلك الأشعار التي كانت تصك آذانهم ليل نهار، سواء من شعرائهم الباكين قتلاهم، المحرضين على الثأر لهم، أو من شعراء القبائل الموالية لهم، بما أبدوه من مشاركة وجدانية حزينة مثيرة، أو من شعراء المسلمين المتفاخرين بنصرهم، الساخرين بهم، المنددين بكفرهم وتماديهم في البغي والضلال.

وكانت أولى المحاولات الانتقامية لقريش، بعد ثلاثة شهور من بدر، إذ قام أبو سفيان في مئتي راكب من قريش بغارة على أطراف المدينة، فأحرقوا بعض النخيل وقتلوا رجلين، وانصرفوا راجعين، قبل أن يدركهم الرسول صلى الله عليه وسلم بجمع من رجاله، وتعرف هذه الغزوة بغزوة السويق[1] لما تركه القرشيون وراءهم من أزواد، تخففوا منها للنجاء، كان أكثرها من السويق. ولم يحقق أبو سفيان شيئاً بغارته هذه سوى التهكم والسخرية به، حتى من قريش نفسها.

وكان الرسول صلى الله عليه وسلم يعرف أن قريشاً تعمل جاهدة للأخذ بثأرها،

(١) السيرة ق ٢ ص ٤٤، ٤٥. والسويق هو طحين الحنطة أو الشعير، يصلح زادا للمسافر، وقد يمزج باللبن والعسل والسمن، فإن لم يكن مزج بالماء.

وأنه ينبغي أن يكون مستعداً للقائها، ولم تكن غارتها هذه إلا نذيراً بما تعد له، ولهذا واصل غزواته لتأمين المدينة، فكانت غزوته لبنى سليم بالكدر، بعد بدر مباشرة، وقبل السويق، ثم غزوته بعد ذلك لغطفان بذى أَمَر، ولقريش بالفُرُع من بحران. ولم يلق في أي منها كيداً[١]. ثم كانت سرية زيد بن حارثة إلى القَرَدة حيث أصاب عير قريش وأعجزه الرجال[٢]. والهدف من كل ذلك هو الحفاظ على الوجود الإسلامي وحماية داره.

وكان لابد من وقفة حازمة مع يهود بني قينقاع، الذين بدءوا يظهرون نواياهم المعادية، بتهديدهم للرسول صلى الله عليه وسلم، حين أنذرهم بما نزل بقريش، ودعاهم إلى الإسلام، فقالوا: «يا محمد، إنك ترى أنا قومك! لايغرنك أنك لقيت قوماً لاعلم لهم بالحرب، فأصبت منهم فرصة، إنا والله لئن حاربناك لتعلمن أنا نحن الناس»[٣] وتبع ذلك انتهاكهم لحرمة امرأة عربية في سوقهم، مما أثار رجلاً من المسلمين، فقتل اليهودي المعتدي، فشد اليهود عليه فقتلوه، وهنا وقع الشر بين الفريقين، وحاصرهم رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى نزلوا على حكمه، لولا أن تصدى له عبدالله بن أُبَيّ بن سلول، حماية لهم ــ إذ كانوا حلفاء الخزرج ــ فوهبهم له. وأجلوا عن المدينة[٤].

وتمثلت الضربة الأخرى لردع اليهود، في مقتل كعب بن الأشرف من بني النضير[٥]. لموقفه العدائي الظاهر ضد الإسلام، وقدر رأينا جانباً منه في الفصل السابق، في مناقضاته الشعرية، التي رثى فيها قتلى قريش في بدر، وحرضها على الانتقام. أما الجانب الثاني فهو في هجائه للمسلمين وتشبيبه بنسائهم، وخاصة تشبيبه بأم الفضل زوج العباس عم النبي صلى الله عليه وسلم؛ لذلك كان قتله ضرورة أمنية لازمة في هذه الظروف.

---

(١) انظر هذه الغزوات فى السيرة ق ٢ ص ٤٣، ٤٦.

(٢) نفسه ص ٥٠.

(٣) نفســـه ص ٤٧.

(٤) نفسه ص ٤٨ والبداية والنهاية جـ ٣ ص ٣٤٤.

(٥) السيرة ق ٢ ص ٥١ وما بعدها.

وحان يوم اللقاء مع قريش في أحد[1]، بعد عام من بدر، حيث كانت قريش قد تجهزت له وأعدت عدتها، فتعبأت في ثلاثة آلاف من رجالها وأحابيشها[2] ومن أطاعها من كنانة وأهل تهامة، وخرجوا قاصدين المدينة، ونزلوا عند جبل أحد بقربها. وخرج إليهم النبي صلى الله عليه وسلم في سبعمائة من الأنصار والمهاجرين، بعد أن انخزل عنه ابن سلول رأس المنافقين بثلث الناس، فرجع بمن اتبعه من قومه. ورفض النبي صلى الله عليه وسلم الاستعانة بالحلفاء من يهود، حين أشار عليه بعض الأنصار بذلك، مفضلاً أن يكون الجهاد في هذه المعركة إسلامياً خالصاً.

ودارت رحى القتال، فكان النصر حليف المسلمين في أولها، إلا أن رماة السهام أخذتهم نشوة الانتصار، فترك معظمهم مكانهم، ونزلوا للاستيلاء على المغانم، مغفلين أمر النبي صلى الله عليه وسلم لهم بعدم مبارحة موقعهم مهما كان الأمر، وانكشف المسلمون وأتوا من خلفهم، فانقلب النصر إلى هزيمة، وقتل منهم سبعون رجلاً، على رأسهم أسد الله حمزة بن عبد المطلب، وأصيب النبي صلى الله عليه وسلم بجراح في وجهه. وكان يوم بلاء على المسلمين وتمحيص لهم.

وقد صور القرآن الكريم هذه المعركة مبيناً أسباب الفشل في عصيان الأمر، والانشغال بالدنيا ﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥٓ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ وَعَصَيْتُم مِّنۢ بَعْدِ مَآ أَرَىٰكُم مَّا تُحِبُّونَ ۚ مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلْءَاخِرَةَ[3] ۚ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ ۖ وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ ۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ تُصْعِدُونَ وَلَا تَلْوُۥنَ عَلَىٰٓ أَحَدٍ وَٱلرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِىٓ أُخْرَىٰكُمْ فَأَثَٰبَكُمْ غَمًّۢا بِغَمٍّ لِّكَيْلَا تَحْزَنُوا۟ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا مَآ أَصَٰبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾[4] كما صور بلاء من أخلصوا

(١) انظر تفاصيلها فى السيرة ق ٢ ص ٦٠ وما بعدها.

(٢) الأحابيش: كل من حالف قريشاً ودخل فى عهدها من القبائل، وسموا بذلك لأنهم تحالفوا بواد يقال له الأحبش بأسفل مكة، أو عند جبيل يقال له حبشى (السيرة ق ١ ص ٣٧٣، وديوان كعب بن مالك ص ٢٢٥).

(٣) قال السهيلي: قال ابن عباس: هو عبد الله بن جبير الذي كان أميراً على الرماة، وكان أمرهم أن يلزموا مكانهم، ولا يخالفوا أمر نبيهم، فثبتت معه طائفة، فاستشهد واستشهدوا، وهم الذين أرادوا الآخرة، وأقبلت طائفة على المغنم وأخذ السلب، فكر عليهم العدو وكانت المصيبة.

(٤) سورة آل عمران آيات ١٥١ ــ ١٥٣.

من المؤمنين في جهادهم ﴿مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا﴾[1].

ونزلت آيات أخرى تخفف من وقع الهزيمة على المسلمين، وتغرس في نفوسهم الثقة في الله وفي أنفسهم ﴿أَوَلَمَّا أَصَابَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّىٰ هَٰذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾[2]. ﴿إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَاءَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ﴾[3] فهو يذكرهم بما أصاب عدوهم في بدر. ثم بين لهم منزلة الشهداء عند ربهم ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾[4]

وانتهت معركة السلاح لتبدأ معركة اللسان، متمثلة في النقائض الشعرية بين الفريقين. واستمد شعراء قريش من انتصارهم في أحد ذخيرة وفيرة من التفاخر والتباهي، من ذلك قصيدة هبيرة بن أبي وهب المخزومي[5] التي يبدؤها بنسيب تقليدي، فيقول :[6]

ما بالُ همٍّ عميدٍ بات يَطرُقُني ... بالوُدِّ من هندَ إذ تعدُو عواديها

وهو نسيب يربطه بذكر الحرب التي شغلته عن صاحبته، مبرزاً شخصيته بين قومه، وحمله الأعباء الثقال معهم، وإعداده للحرب وحمله سلاحها على فرسه المشترف السبوح، ويستطرد في وصف أصالته وقوته وسرعته، ووصف سيفه ورمحه ودرعه، ثم

(١) سورة الأحزاب آيـــة ٢٢.
(٢) سورة آل عمران آيـــة ١٦٥.
(٣) سورة آل عمران آيات ١٣٩ ــ ١٤١.
(٤) سور آل عمران آيـــة ١٦٩ ــ ١٧٠.
(٥) هو من شعراء قريش وفرسانها المعدودين، وكان من أشدهم عداوة لله ولرسوله، جابه الإسلام بسيفه ولسانه، وحاربه فى كل المعارك، وسعى فى تأليب العرب عليه، لم يسلم بعد فتح مكة، وآثر الهروب إلى نجران، حيث مات على كفره (طبقات الشعراء ص ١٠١، وأنساب الأشراف جـ ١ ص ٣١٢، والسيرة فى مواضع متفرقة).
(٦) السيرة ق ٢ ص ١٢٩.

ينتقل إلى الحديث عن المعركة فيقول[1]:

سُقنا كِنانةَ من أطراف ذى يمنٍ	عُرْضَ البلاد على ماكان يُزْجيها
قالت كِنانةُ: أنّى تذهبون بنا؟	قلنا: النُّخَيْل فأمُّوها ومن فيها
نحن الفوارسُ يوم الجرّ من أحدٍ	هابت مَعَدٌّ فقلنا نحن نأتيها
هابوا ضراباً وطعناً صادقاً خَذِماً	ممّا يَرَوْن وقد ضُمَّت قواصيها
ثُمَّتَ رُحنا كأنّا عارِضٌ بَرِدٌ	وقام هامُ بنى النجار يَبكيها
كأن هامَهمُ عند الوغى فِلَقٌ	من قَيْض رُبْدٍ نَفَتْه عن أداحيها
أو حنظلٍ ذَعْذَعَته الريحُ في غُصُن	بالٍ تعاوره منها سوافيها

فنرى في حديثه نعرة التعالي والاعتزاز بقوة قومه وسطوتهم في حشدهم الجموع من كنانة، واجتياحهم البلاد واسعة أمامهم دون رهبة أو اعتراض من أحد، قاصدين المدينة، وأنهم الفوارس الشجعان، الذين أقدموا على حرب ضروس في أحد، هابتها قبائل معد، لما فيها من ضراب شديد، وطعن فتاك. ثم يصف ماحاق بالأنصار ــ ممثلاً لهم ببني النجار ــ من تقتيل أبكاهم، ويشبه تطاير رءوسهم في المعركة بالقطع المتناثرة من قشر بيض النعام، أو الحنظل الذي تتلاعب به ريح سافية.

ويمضى هبيرة في قصيدته متفاخراً بسخاء قومه وبطولتهم. وأنه قد ورث عن آبائه شمائل الكرم وخلال المروءة في أوقات الشدة العصيبة، ليبلغ بقصيدته ثمانية وعشرين بيتاً.

---

(١) عرض البلاد: سعتها. يزجيها: يسوقها. النُّخَيْل (كزبير) اسم لعين قرب المدينة. أموها: قصدوها. الجر: أصل الجبل. خذم: يقطع اللحم سريعاً. قواصيها: ما تفرق منها. عارض برد: سحاب فيه برد. الهام: جمع هامة وهى الطائر الذى تزعم العرب أنه يخرج من رأس القتيل يصيح لطلب الثأر. والهامة أيضاً بمعنى الرأس. القيض: قشر البيض. الربد: النعام. أداحيها: مواضع بيضها. ذعذعته: حركته. تعاوده: تتداوله. السوافي: الرياح المثيرة للرمال والتراب.

ويجيب على هبيرة حسان بن ثابت، أو كعب بن مالك ــ على ماذكر ابن هشام عن أبي زيد الأنصارى ــ فينقض قوله، و يقلب معانيه التي افتخر بها، فيقول :[1]

سقتم كنانة جهلاً من سفاهتِكم ... إلى الرسول فجندُ اللهِ مُخْزِيها

أوردتموها حياضَ الموتِ ضاحيةً ... فالنارُ موعدُها والقتلُ لاقيها

جمّعتموها أحابيشاً بلا حسبٍ ... أئمةَ الكفرِ غرَّتكم طواغيها

ألا اعتبرتم بخيل الله إذ قتلتْ ... أهلَ القَليبِ ومن ألقينَه فيها

كم من أسيرٍ فككناه بلا ثمنٍ ... وجَزِّ ناصيةٍ كنا مَواليها

فهو يقلب مايفتخر به هبيرة من تجميع كنانة، إلى أنه عمل دال على الجهالة والسفاهة من طواغيت الكفر، لأنهم قصدوا به حرب الرسول صلى الله عليه وسلم، وأنهم لابد أن يلاقوا الخزى والقتل على يد جنود الله المؤمنين، و يصيروا إلى عذابه في نار جهنم التي وعدهم بها، وبهذا يستمد من عقيدته الإسلامية معاني مناقضته، و يضيف إلى ذلك وصف جموعهم بأنها جموع أحابيش مكة، الذين يفتقدون أصالة الانتماء القبلى، فلا معنى لأن يفخر بهم فخره الجاهلي هذا. ثم يذكره بقتلاهم في بدر، الذين ألقوا في القليب، و بأسراهم في أيدي المسلمين؛ لعلهم يعتبرون مما فعل الله بهم.

ومن الواضح أن حسانَ أو كعباً قد ركز نقضه على مايخص وقعة أحد وفخر هبيرة بما فعلوه فيها، ولم يتجاوز ذلك إلى مفاخر هبيرة الأخرى التي خص بها نفسه، والتي تشكل أغلب نقيضته؛ ولهذا يبدو هبيرة متفوقاً مالكاً لناصية القول نتيجة لموقفه المنتصر.

---

(١) السيرة ق ٢ ص ١٣١ـــ ١٣٢. وديوان كعب ص ٢٩٢. وديوان حسان ص ٢٠٥ مع اختلاف فى بعض الألفاظ.

ولعل إحساس كعب بأن الرد على هبيرة لم يشف غليله، وأن الإيجاز فيه قد يبدو قصوراً عن مطاولته، وأن باستطاعته أن يقول فيطيل ويجيد و يفحم، لعل هذا هو مادفعه إلى تدبيج نقيضته الطويلة، التي تبلغ تسعة وأربعين بيتاً، والتي تعد أطول النقائض في شعر السيرة، يقول في مطلعها :[1]

ألا هل أتى غسَّان عنا ودونَهم ... من الأرض خرقٌ سيْرُه مُتَنَعنِعُ

فهو لايلتزم بوزن نقيضة هبيرة ولا بقافيتها. و يبدأ نقيضته بمقدمة تقليدية في خمسة أبيات، يصف فيها الديار التي تفصل بين المدينة ومملكة غسان بالشام، وذكره لغسان له دلالته التي يقصدها في مجال تفاخره، فهم أبناء عمومتهم الذين يرتبطون بهم بنسب قريب، ولهم من الملك والجاه والسلطان ماليس لقريش.

و ينتقل بعد المقدمة إلى الفخر بقوة قومه، التي يجالدون بها عن دينهم وعن أصولهم؛ من عدة السلاح وشجاعة الرجال، مما اشتهر عنهم في بدر، والتي تجعلهم يقيمون في أرض الخوف، لايهابون تهديداً أو حرباً من قريش أو غيرها، ولو كانت قبيلة غيرهم لما تحملت ذلك، بل هم الذين يرهبون القبائل و يفزعونها. وقد استغرق في ذلك تسعة أبيات نذكر منها قوله:

مُجالِدُنا عن ديننا كلُّ فخمةٍ ... مُذرَّبةٍ فيها القوانسُ تلمعُ [2]

ولكن ببدرٍ سائلوا من لقيتُمُ ... من الناسِ والأنباءُ بالغيب تَنفع

وإنا بأرض الخوف لوكان أهلُها ... سوانا لقد أجلَوا بليلٍ فأقشَعُوا

إذا جاء منا راكبٌ كان قولُه ... أعِدُّوا لما يُزجِي ابنُ حربٍ ويجمع

---

(١) السيرة ق ٢ ص ١٣٢. وديوان كعب ص ٢٢٢. الخرق: الفلاة الواسعة التى تنخرق فيها الريح. متنعنع: مضطرب. و يروى متتعتع أي متردد.

(٢) فى تعليق ابن هشام أن كعباً كان قد قال: «مجالدنا عن جذمنا» أي أصلنا، فقال الرسول صلى الله عليه وسلم: أيصلح أن تقول: مجالدنا عن ديننا؟ فقال كعب: نعم. فقال الرسول صلى الله عليه وسلم: فهو أحسن. فعدلها كعب. والفخمة: الكتيبة العظيمة. والمذربة: المتعودة للقتال الماهرة فيه. والقوانس: رءوس بيض السلاح.

نجالدُ لاتبقى علينا قبيلةٌ ... من الناس إلا أن يهابوا ويَفظُعُوا

ويشفع استعراض هذه القوة القبلية بالقوة الروحية الماثلة في وجود الرسول صلى الله عليه وسلم، يتبعون أمره ويطيعونه طاعة صدق وإيمان، وجبريل ينزل عليه بالوحي من ربه، ويشاورونه في الأمر، فيوصيهم بالجهاد ويحضهم على الاستبسال والتضحية في سبيل مرضاة الله، وابتغاء لمثوبته العظيمة، يقول:

وفينا رسولُ الله نتبعُ أمرَه ... إذا قال فينا القولَ لانتطلّع

تدلّى عليه الروحُ من عند ربّه ... يُنزَّلُ من جوّ السماءِ ويُرفع

نشاورُه فيما نريدُ وقَصرُنا ... إذا ما اشتهى أنّا نُطيعُ ونَسمع

وقال رسولُ الله لما بَدَوْا لنا ... ذَرُوا عنكم هولَ المنيّاتِ واطمعوا

وكونوا كمن يشري الحياة تقرُّباً ... إلى ملكٍ يُحيا لديه ويُرجَع

وينتقل كعب إلى وصف المعركة فيفيض إفاضة رائعة، مفصلاً القول في إقدامهم على جموع العدو الغفيرة، وبلائهم أحسن البلاء في مقارعتهم، ووصف الخيل وأنواع الأسلحة، واحتدام القتال وشدة وطأته على الفريقين، وما أوقعوه بالعدو من ضربات فتاكة، أفزعتهم، وأجبرتهم على التقهقر موجفين، من ذلك قوله:

فسرنا إليهم جَهرةً في رِحالِهم ... ضُحَيّاً علينا البيض لانتخشّع (١)

فجئنا إلى موجٍ من البحر وَسْطَه ... أحابيشُ منهم حاسرٌ ومُقنَّع (٢)

ثلاثةُ آلافٍ ونحن نَصيّةٌ ... ثلاثُ مئينٍ إن كثُرنا وأربع

نُغاوِرُ همْ تجري المنيّةُ بيننا ... نشارِعُهم حوضَ المنايا ونَشرع (٣)

---

(١) ضحياً: تصغير ضحى. والبيض: السيوف، وبفتح الباء تكون جمع بيضة السلاح، وهي أوفق للمعنى في البيت.

(٢) أحابيش: قبائل محالفة لقريش. والحاسر: الذي لا درع عليه ولا مغفر، والمقنع: الذي لبس المغفر على رأسه.

(٣) نغاورهم: نغير عليهم، من الغارة. نشارعهم: نشاربهم.

ضربناهمُ حتى تَركنا سَراتَهم ... كأنهمُ بالقاع خُشْبٌ مُصَرَّع [1]

وراحُوا سِراعاً موجفينِ كأنهم ... جهامٌ هراقتْ ماءَه الريحُ مُقلع [2]

ورحنا وأخرانا بطاءٌ كأننا ... أسودٌ على لحم ببيشةَ ظُلَّع [3]

وتصوير كعب للمعركة على هذه الشاكلة يوافق ماحدث في أولها من نصر ظاهر للمسلمين، ولكن انقلاب الحال إلى هزيمة يعالجه معالجة ذكية في أن الحرب سجال، وأنهم نالوا منا كما نلنا منهم، وأن ما عند الله أفضل لنا وأوسع، وأننا لانرى القتل سبة، ونأبى الفرار منه، وأننا بنو الحرب؛ لانجزع إن أصابتنا، ولانفحش إن ظفرنا، إلى غير ذلك من المعاني التي يؤكد بها قوة جلادهم وإيمانهم، يقول :

فنِلْنا ونالَ القومُ منا وربما ... فَعلنا ولكن مالدى الله أوسع

ودارت رحانا واستدارت رحاهُمُ ... وقد جُعلوا كلٌّ من الشرّ يَشبع

ونحن أناسٌ لانرى القتل سُبّةً ... على كل من يحمى الذّمارَ ويمنع

ولكننا نَقْلى الفرارَ ولانرى الـ ... ـفرار لمن يرجو العواقبَ ينفع [4]

بنو الحرب إن نظفَرْ فلسنا بفُحَّشٍ ... ولانحن من أظفارها نتوَجَّع

ولكنه يعود مرة أخرى في آخر القصيدة ليذكر هجمة المسلمين الأولى التي كان النصر حليفهم فيها، والتي صرعوا فيها حملة لواء قريش واحداً بعد الآخر حتى سقط على الأرض، وهذا شاهد على صدق بلائهم وتخاذل عدوهم يقول:

شددنا بحول الله والنصر شَدَّةً ... عليكم وأطرافُ الأسنة شُرَّع

عمَدنا إلى أهل اللواء ومن يطرْ ... بذكر اللواء فهو في الحمد أسرع [5]

---

(١) سراتهم: خيارهم، القاع: المنخفض من الأرض. مصرع: ملقى على الأرض.

(٢) موجفين: مسرعين. والجهام: السحاب الرقيق الذى ليس فيه ماء.

(٣) بيشة: موضع كثير الشجر بشمال اليمن. ظلع: جمع ظالع أى عاجز عن المشى لشبعه.

(٤) نقلى: نكره ونترك. وهذا البيت لم يرد فى السيرة، وأورده جامع الديوان عن مصادر أخرى (انظر ص ٢٢٧).

(٥) انظر تفاصيل قتل حملة لواء قريش فى السيرة ق ٢ ص ٧٨.

فخانوا وقد أعطوْا يداً وتخاذلوا أبَى اللهُ إلا أمرَه وهو أصنع

والملاحظة التي تسترعي الانتباه في هذه النقيضة، أنه يوجه رده فيها إلى ابن الزبعري ويهجوه، حيث يقول :

فخرتَ على ابنَ الزبعرى وقد سرَى لكم طلبٌ من آخرِ الليل مُتْبع

فسل عنك في عُلبا مَعدٍّ وغيرها من الناس من أخزَى مقاماً وأشنع

وهذا يطرح تساؤلاً عمن وجهت إليه هذه النقيضة، هل هو ابن الزبعرى كما تشير الأبيات؟ أم هو هبيرة كما أثبت ابن هشام لقول ابن إسحاق فى تقديمها دون اعتراض؟ ويزيد الأمر غموضاً أنه لا يوجد لأي من الشاعرين نقيضة على وزن هذه وقافيتها. وربما كانت موجودة ولكنها حذفت فيما حذف من أشعار قريش التى كانت مسرفة فى الهجاء والنيل من الرسول صلى الله عليه وسلم وصحابته. وعلى أي حال فهى نقض لما قاله شعراء قريش، سواء هبيرة أو ابن الزبعري، أو ربما غيرهما، فى فخرهم بنصرهم فى أحد. وخاصة إذا نظرنا إلى كثرة أشعارهم فى تلك الواقعة، والتى استطاع كعب أن يبلغ فى مناقضتها درجة عالية من التوفيق والتفوق.

ومن النقائض التى اشتهرت لابن الزبعري فى يوم أحد، نقيضته التى يبدؤها بقوله :[1]

يا غرابَ البَيْنِ أسمعتَ فقُلْ إنما تنطقُ شيئاً قد فُعِلْ

إن للخيرِ وللشرِّ مدًى وكلا ذلك وجهٌ وقَبَلْ[2]

فهو يبدأ بمقدمة تتلاءم مع الحدث المشئوم، بذكر غراب البين الذى يتطير منه العرب، وكأنما يريد أن ينعي قتلى المسلمين شامتاً بهم، ثم يصطنع الحكمة فى حديثه عن الخير والشر، ويستطرد فى بيتين تاليين متحدثاً عن الموت وتسويته بين الغني والفقير، وزوال الحياة ونعيمها، وصروف الدهر وتقلباته، ليكشف عن العبرة التي

(١) السيرة ق ٢ ص ١٣٦.

(٢) المدى: الغاية. والقبل: المواجهة والمقابلة، يريد أن كل ذلك ملاقيه الإنسان فى مستقبل أيامه.

ينبغي تبصرها في أحداث آحد، والتي يريد إبلاغها لحسان، حيث يقول :

أبـلـغـنْ حـسـانَ عـنـى آيـةً   فـقـريـضُ الـشـعـر يشفى ذا الغُلَل

كـم تـرى بـالـجَرّ مـن جُـمـجـمـةٍ   وأكـفٌ قـد أُتِـرَّتْ ورِجـل[1]

وسـرابـيـلَ حِـسـانٍ سُـرِيَـتْ   عـن كـمـاةٍ أُهلِكوا فى الـمُـنْـتَزَل[2]

كـم قـتـلـنـا مـن كـريـمٍ سـيـدٍ   مـا جـدِ الجـدَّيـن مِـقـدامٍ بـطـل

فَـسَـل الـمِـهْـراسَ مـن سـاكِـنـهُ؟   بين أقْـحـافٍ وهـامٍ كـالـحَـجَـل[3]

فهذه العبرة أو الآية يبلغها لحسان ليشفى غليل نفسه، وليعلن شماتته فيما حدث للمسلمين من تقتيل لأبطالهم وأماجدهم، ويجعل المهراس إزاء القليب، وهى شماتة مقرونة بالفخر، ثم يخص الأنصار بتشفيه منهم، والثأر لقتلى بدر، فيقول :

لـيـت أشـيـاخـى بـبـدرٍ شـهِـدوا   جـزعَ الخـزرج مـن وقـع الأسَـلْ

حين حـكّـتْ بـقُـبـاءٍ بَـرْكَـهـا   واسـتـحرَّ القـتلُ فى عبـد الأشَل[4]

ثم خـفُّـوا عـنـد ذاكـم رُقّـصـاً   رَقَصَ الـحَـفَّـان يعلو فى الجبل[5]

فـقـتـلـنـا الـضِّـعـفَ مـن أشرافهم   وعَـدَلـنـا مـيـلَ بـدرٍ فـاعـتـدل

لقد ركز ابن الزبعري حديثه عن المعركة وأحداثها التى أضير فيها المسلمون، ولم يعرج على فخر شخصي، أو بعيد عن المعركة كما فعل هبيرة، ليبلغ غايته من التشفي والشماتة، وليصب جام حقده على أعدائه، و يغيظهم و يكبتهم، كما فعلوا به من قبل، فحقق كثيرا مما أراد.

(١) الجر: أصل الجبل. أترت: قطعت. الرجل: الأرجل.

(٢) السرابيل: الدروع. سريت: جردت. الكماة: الشجعان. المنتزل: ساحة النزال فى المعركة.

(٣) المهراس: المكان الذي دفن فيه قتلى أحد. الأقحاف: جمع قحف وهو أعلى الجمجمة. الهام: الرءوس.

(٤) البرك: الصدر. عبد الأشل: يريد بنى عبد الاشهل، وهم بطن من الأوس.

(٥) رقص: مشى سريع. الحفان: صغار النعام.

وتصدى له حسان بنقيضة، حاول فيها أن يهدر قوله، وأن يطفئ لهيب تشفيه، موازناً فعالهم بفعال المسلمين. فقال [(١)]:

ذهبتْ يابن الزِّبَعرى وقعةٌ | كان منا الفضلُ فيها لو عَدَل
ولقد نِلتمْ ونلنا منكمُ | وكذاك الحرب أحياناً دُوَل
نضعُ الخطِّيَّ في أكتافكم | ثم نهوِي عَلَلاً بعد نَهَل [(٢)]
إذْ تولُّون على أعقابكم | هُرَّباً بالشِّعبِ أشباه الرَّسَل
إذ شددنا شدَّةً صادقةً | فأجأناكمْ إلى سفح الجبل

فهو يذكره بأن الغلبة فى هذه المعركة لم تكن خالصة لهم، وإنما كانت متداولة بين الفريقين، إذ نال كل من الآخر، ثم يفصل القول عن ظفر المسلمين بهم فى أولها، حين شدوا عليهم شدة صادقة، ووضعوا الرماح فى أكتافهم، فولوا على أعقابهم هاربين فى الشعب وسفح الجبل كالإبل المرسلة.

ومضى حسان فى وصف هذا الموقف البطولي للمسلمين، مضيفاً إليه ما تحلوا به من إيمان بالله، وطاعة له ولرسوله، مذكراً إياه بنصرهم المظفر فى بدر، وقتلهم رءوس قريش، يقول :

برجال لستمُ أمثالَهم | أيَّدُوا جبريلَ نصراً فنزل
وعلونا يومَ بدرٍ بالتُّقى | طاعةِ اللهِ وتصديقِ الرسل
وقتلنا كلَّ رأسٍ منهمُ | وطعنَّا كل جَحْجاحٍ رِفَل [(٣)]
وتركنا فى قريش عورةً | يوم بدرٍ وأحاديثَ المَثَل

(١) السيرة ق ٢ ص ١٣٧، وديوان حسان ص ٩٣ بزيادة ستة أبيات عن السيرة، وخلاف فى بعض الألفاظ.

(٢) الخطى: الرماح، وفى السيرة تروى الأسياف فى موضعها. عللا بعد نهل: يريد تتابع الضربات مثل تتابع الشرب.

(٣) الجحجاح: السيد. والرفل: الذى يجر ثوبه خيلاء.

فحسان يعتمد في رده على عدة عناصر، هي إبراز الدور البطولي للمسلمين في أحد، لموازنته بدور قريش، ثم ذكر نصر بدر المشهور، والذي أقر به ابن الزبعري، يضاف إلى ذلك تميز المعسكر الإسلامي بقوة روحية عظيمة، تتمثل في إيمانهم بالله ورسوله، ونصر الله لهم. وهي قوة تتضاءل أمامها قوة الشرك، بل أي قوة في الأرض. وبهذه العناصر يتفوق حسان فى نقضه من وجهة نظر إسلامية، أو على الأقل يتعادل معه من وجهة نظر عصره، دون احتساب للعنصر الإسلامي.

وكان بكاء قتلى أحد من المسلمين مجالاً للنقض، كما حدث في بكاء قتلى بدر من المشركين. فهذا كعب بن مالك ينظم قصيدة يبكي فيها حمزة بن عبد المطلب ورفاقه من شهداء الإسلام في أحد، فيقول [١]:

نَشَجْتَ وهل لك من مَنْشِج ... وكنت متى تذَّكِرْ تَلْجَجِ [٢]

تذكُّرَ قومٍ أتاني لهم ... أحاديثُ في الزمنِ الأعْوَجِ

فقلبُكَ من ذكرهِمْ خافِقٌ ... من الشوقِ والحَزَنِ المُنضِجِ

فهو يعبر عن حزن عميق تغلغل في قلبه، وأنضجت حرارته فؤاده، فجعله يبكي وينشج نشيجاً متوالياً، كلما تذكر هؤلاء الأحبة الذاهبين. ثم يردف ذلك بذكر مصيرهم بعد الموت في جنان النعيم، لجهادهم تحت لواء رسول الله صلى الله عليه وسلم، وما بذلوه من بطولة وتضحية، دفاعاً عن الحق المبين حتى استشهدوا في سبيله، فيقول:

وقتلاهمُ في جنان النَّعيم ... كرامُ المداخلِ والمخرج

بما صبروا تحت ظلّ اللواءِ ... لواءِ الرسولِ بذى الأضوُجِ [٣]

غداة أجابت بأسيافها ... جميعاً بنو الأوسِ والخزرج

---

(١) السيرة ق ٢ ص ١٣٨، وديوان كعب ص ١٨٧.

(٢) نشجت: بكيت بصوت، تلجج: من اللجج وهو الإقامة على الشيء والتمادى فيه.

(٣) الأضوج (بضم الواو): جمع ضوج وهو جانب الوادى، (وبفتح الواو): اسم مكان.

وأشـيـاعُ أحمـدَ إذ شـايَـعُـوا ... عـلـى الحـقّ ذى الـنـورِ والـمَنهج

فـمـا بَـرِحـوا يـضـربـون الكـمـاةَ ... ويمـضـون فـي الـقَـسْطل الـمُرهَج [1]

كـذلـك حـتـى دعـاهـمْ مـلـيـكٌ ... إلـى جـنـةٍ دوحـةِ المـوْلـج

و ينتقل إلى الحديث عن بطولة حمزة واستشهاده هو و بعض صحبه، فيقول :

فـكـلـهـمُ مـات حُـرَّ الـبـلاءِ ... عـلـى مِـلّـةِ اللـهِ لم يَـحـرَج

كـحـمـزةَ لـمّـا وَفَـى صـادقـاً ... بـذى هـبَّـةٍ صـارمٍ سَـلْـجَـج [2]

فـلاقـاه عـبـدُ بـنـى نـوْفَـل ... يُـبَـرْبِـرُ كـالجـمـلِ الأدْعَـج [3]

فـأوْجَـره حـربـةً كـالـشّـهـاب ... تـلـهَّـبُ فـى اللـهـبِ الـمُـوهَـج

ونـعـمـانَ أوْفَـى بمـيـثـاقِـه ... وحـنـظـلـةَ الخـيـرِ لم يُـحْـنَـجِ [4]

أولـئـك لا مَـن ثـوَى مـنـكـمُ ... مـن الـنـارِ فـى الـدَّرَك الـمُرْتَـج

ومن الواضح أن كعباً في حديثه عن مصير هؤلاء الشهداء، يستمد معانيه من معين الإسلام، ومن آيات الذكر الحكيم، التي بشرت بما ينتظرهم من رضوان الله في جناته، بينما أكدت مصير قتلى المشركين في الدرك الأسفل من النار.

و ينتهز ضرار بن الخطاب هذه الفرصة لينقض قصيدة كعب، ساخراً من بكائه، شامتاً به، متشفياً بقتلى المسلمين، فيقول :[5]

أيجـزعُ كـعـبٌ لأشـيـاعِـه ... ويـبـكـي مـن الـزمـنِ الأعـوج

---

(١) الكماة: الشجعان. القسطل: الغبار. المرهج: الذى علا فى الجو.

(٢) بذى هبة: يعنى سيفاً، وهبة السيف: وقوعه فى العظم. الصارم: القاطع. سلجج: مرهف.

(٣) عبد بنى نوفل: هو وحشى قاتل حمزة. يبربر: يصيح. الأدعج: الأسود.

(٤) نعمان: هو ابن عبد عمرو من بنى النجار، أو ابن مالك من بنى عوف، وكلاهما من شهداء الأنصار. وحنظلة: هو ابن أبى عامر الملقب بغسيل الملائكة. لم يحنج: لم يصرف عن وجهه من الحق الذى أراده.

(٥) السيرة ق ٢ ص ١٣٩ ــ ١٤٠.

عجيجَ المُذكّى رأى إلفه تَروّح فى صادرٍ مُخنَج[1]
فراح الزّوايا وغادرْتَه يُعَجْعجُ قسْراً ولم يُحدَج[2]
فقولا لكعب يثنِّى البكا وللنِّىْء من لحمه ينضَج
لمصرع إخوانه فى مَكَرٍّ من الخيل ذى قسطلٍ مُرْهَج[3]

فالسخرية والشماتة ظاهرتان من تكرار ذكر الزمن الأعوج، الذي اشتكى منه كعب فى قصيدته، ومن تشبيهه نشيجه بصياح المسن من الإبل، الذى تركه إلفه وراح فى جماعة منها صادرة عن الماء بعد ارتوائها، فأهملته وهو يعجعج و يصيح، ومن طلبه معاودة كعب بكاءه لمصرع إخوانه فى هذه المعركة الضروس، ليزداد حسرة وكمداً، ولينضج لحمه مشوياً على نار أحزانه.

و يتمنى ضرار لو أن قتلاهم فى بدر كانو بين جمعهم المتقد حمية وحماسة، ليروا ما أصاب الأوس والخزرج من تقتيل فى أحد، وليروا مقتل حمزة ومصعب، فتشتفى نفوسهم بما حققوه من الأخذ بثأرهم، وبما أوقعته بهم سيوفهم وخيلهم من هزيمة ساحقة، يقول :

فياليت عمْراً وأشياعَه وعتبةَ فى جمعنا السَّوْرَج[4]
فيَشفُوا النفوسَ بأوتارها بقتلى أصيبت من الخزرج
وقتلى من الأوس فى معرَكٍ أصيبوا جميعاً بذي الأضْوُج
ومقتلِ حمزةَ تحت اللواءِ بمُطّرِدٍ، مارِنٍ، مُخلَج[5]
وحيث انثنى مصعبٌ ثاوياً بضربةِ ذى هبَّةٍ سَلْجَج

(١) العجيج: الصياح. المذكى: المسن من الإبل. الصادر: الجماعة الصادرة عن الماء. مخنج: مصروف عن وجهه.
(٢) يعجعج: يصوت. قسراً: قهراً. لم يحدج: لم يجعل عليه الحدج، وهو مركب من مراكب النساء.
(٣) القسطل: الغبار. المرهج: المرتفع فى الجو.
(٤) السورج: المتقد.
(٥) المطرد: الذى يهتز، و يعني به رمحاً. المارن: اللين. المخلج: السريع فى الطعن.

بـــــأُحــدٍ وأســيــافُــنــا فيهـم تــلــهَّــبُ كــاللَّــهــبِ الــمُــوهَــج

غـداة لـقـيـنـاكُـمُ فـى الحـديـدِ كـأسْـدِ الـبَـراح فـلـم تُـعْـنَـج[1]

فـدسـنـاهـمُ ثَـمَّ حـتـى انـثـنَـوْا سـوى زاهـق الـنـفـس أو مُـحـرَج

فضرار يدور فى إطار أحداث المعركة ونتائجها، تدفعه انفعالات نفسية من التشفي والشماتة، يمازجها ابتهاج بالظفر وتفاخر بالبطولة، وهو إطار شبيه بالإطار الذى دار فيه ابن الزبعري، تلفه العصبية الجاهلية، فلا تتيح لهما النفاذ إلى الحديث عن المصير الأخروي للقتلى كما فعل كعب وحسان، وما يرتبط به هذا المصير من عقيدة دينية يفتقدانها، ولا يملكان أن يقولا فيها شيئاً.

وانبرى من قريش أيضاً عمرو بن العاص، مفتخراً بنصرها في أحد، وانتقامها من المسلمين، ومن الأنصار منهم خاصة، إذ يقول في مقطوعة له :[2]

خـرجـنـا مـن الـفَـيْـفا عليهم كـأنـنـا مع الصبح من رَضْوى الحَبيك المُنَطَّقُ[3]

تـمـنَّـت بـنـو الـنجار جهلاً لـقاءنا لدى جنب سَلْعٍ والأمانِيّ تصدُق[4]

فــا راعــهــم بــالشرّ إلا فــجــاءةً كــراديـسُ خـيـلٍ فـى الأزقَّـةِ تمرُق

أرادوا لـكَـيْـما يـسـتـبـيـحـوا قِـبـابَـنـا ودون الـقـبـابِ الـيـومَ ضربٌ مُـحَـرّق

وكـانـت قـبـاباً أومـنـت قـبلَ مـا تَـرى إذا رامـهـا قـومٌ أُبـيـحـوا وأُحْـنِـقـوا[5]

كـــأن رءوسَ الخـــزرجـــيـن غـــدوةً وأيمــانَــهــم بــالمــشـرفِـيَّـة بَـرْوَق[6]

---

(١) البراح: المتسع من الأرض. لم تعنج: لم تكف ولم تصرف.

(٢) السيرة ق ٢ ص ١٤٣.

(٣) الفيفا: القفر المجدب. رضوى: اسم جبل. الحبيك: الذى فيه طرائق. المنطق: الحزم.

(٤) سلع: اسم جبل فى ظاهر المدينة.

(٥) الرواية فى السيرة (إذ رامها) والمرجح أن صحتها (إذا) ليستقيم الوزن و يزيد المعنى دقة.

(٦) البروق: نبات له أصول تشبه البصل. و يقصد بالخزرجيين الأوس والخزرج معاً.

فهو لا ينظر إلى هذه المعركة إلا من خلال عصبية قرشية جامحة، إذ يراها دفاعاً عن مجد قريش، وذوداً عن قباب سيادتها وشرفها، التي ظلت عالية آمنة، لم يستطع أحد هدمها من قبل، وأن هؤلاء الخزرجيين أرادوا أن يستبيحوها، جهلاً منهم وحمقاً، فكانت عاقبتهم ماراعهم من الشر والهلاك، الذي أوقعته بهم جموع قريش وخيلها.

وتصدى له كعب بن مالك يجيبه ناقضاً قوله في مقطوعة مماثلة، فقال [1]:

ألا أبلغا فِهراً على نأْيِ دارِها	وعندهمُ من علْمنا اليومَ مَصْدَقُ
بأنا غداةَ السفح من بطنِ يَثربٍ	صبَرنا وراياتُ المنيَّة تَخْفِق
صَبرنا لهمْ والصبرُ منا سجِيَّةٌ	إذا طارت الأبرامُ نسمو ونَرْتُق [2]
على عادة تلكمْ جَرَينا بصبرِنا	وقِدْ ماً لدَى الغاياتِ نجرى فنَسبِق
لنا حومةٌ لا تستطاعُ بقودُها	نبيٌّ أتى بالحقِّ عفٌّ مُصَدَّق
ألا هل أتى أفناءَ فِهرِ بن مالكٍ	مُقَطَّعُ أطرافٍ وهامٌ مُفَلَّق [3]

فهو يوجه القول فيما أصاب قومه من شر، على أن موقفهم في القتال كان يتسم بالصبر والشجاعة في مواجهة الموت، وتلك محمدة تعرف لهم من قديم، فهم سباقون إلى الغايات السامية، ومن ثم يوازن ما ذكره ابن العاص عن مجد قريش وسيادتها. بما صاروا إليه من إيمان برسالة الحق، التي جاء بها النبي الصادق. فهم في حومة الإسلام وعزته تحت قيادته، وهي عزة تتضاءل إلى جانبها عزة قريش، التي هي مصدر تهديد لهم بالهلاك والتنكيل. وإذا كان ابن العاص قد بدا في أبياته أقوى فخراً، كما يقول الأستاذ الشايب [4]. فإن كعباً قد بدا أقوى ثقه وأبعد نظراً.

---

(١) السيرة ق ٢ ص ١٤٤.

(٢) الأبرام: اللئام، واحدها برم، وأصله الذى لا يدخل مع القوم فى الميسر للؤمه. نرتق: نسد ونصلح.

(٣) أفناء فهر: جموعهم المختلطة بمن ليس منهم. هام: جمع هامة، وهى الرأس.

(٤) تاريخ النقائض ص ١٣٤.

وكان أبو سفيان بن حرب كذلك ممن شاركوا في معركة اللسان إثر أحد، وقد كان قائد قريش في معركة القتال، وله أن يفخر و ينفس عما كان في صدره من غل وشجاً. فقال يذكر صبره في ذلك اليوم، وتشفيه من قتلى المسلمين[١]:

ولو شئتُ نجّتني كميتٌ طِمِرّةٌ ... ولم أحمِل النَّعماء لابن شَعُوب[٢]

وما زال مُهرى مَزْجرَ الكلب منهمُ ... لدُنْ غدوةٍ حتى دنتْ لغُروب[٣]

أقاتلُهمْ وأدّعى يالَغالبٍ ... وأدفعُهم عني بركنٍ صَليب

وسليَّ الذى قد كان فى النفس أننى ... قتلتُ من النجّار كلَّ نَجيب

ومن هاشم قَرماً كريماً ومُصْعباً ... وكان لدى الهَيْجاء غيرَ هَيوب

ولو أننى لم أشفِ نفسِيَ منهمُ ... لكانت شجاً فى القلب ذاتُ نُدوب

فآبوا وقد أودى الجلابيبُ منهمُ ... بهم خَدبٌ من مُعطبٍ وكئيب[٤]

فهو بعد أن يقلل من أهمية إنقاذ ابن شعوب له من القتل، يشيد بموقفه فى مواجهة المسلمين طوال النهار، على دنو من خطرهم، غير هياب لهم، يقاتل و يصيح مجمعاً رجاله، ومثيراً لحميتهم، ثم يعرب عن شفاء نفسه لأخذ ثأرهم وقتلهم كرام الرجال ونجباءهم من الأنصار والمهاجرين، وشماتته بما حل بهم من هزيمة وانكسار.

ويجيبه حسان، ناقضاً قوله، مهوناً تفاخره وتشفيه، إذ يقلبه عليه بتذكيره أن هؤلاء القروم النجباء ــ باعترافه ــ هم أصحاب السبق فى قتل رءوسهم وأشرافهم من

---

(١) السيرة ق ٢ ص ٧٥.

(٢) يشير هنا إلى معاونة ابن شعوب (شداد بن الأسود) له على قتل حنظلة بن أبى عامر (غسيل الملائكة) بعد أن كان علا أبا سفيان وكاد يقتله. يريد أنه كان بإمكانه الفرار على فرسه السريعة حتى لا يكون لابن شعوب فضل أو نعمة عليه.

(٣) مزجر الكلب: يريد أنه لم يبعد منهم إلا بمقدار الموضع الذى يزجر الكلب فيه. دنت لغروب: أى الشمس.

(٤) الجلابيب: جمع جلباب وهو الإزار الخشن. وكان مشركو مكة يلقبون المسلمين بالجلابيب. أودى: هلك. الخدب: الطعن النافذ إلى الجوف. المعطب: الذى يسيل دمه.

قبل، وآن ما ادعاه من تفاخر هو زور وكذب، يقول :[1]

ذكرتَ القُرومَ الصِّيدَ من آل هاشمٍ ولستَ لزورٍ قلتَه بمُصيبِ
أتعجبُ أن أقْصدتَ حمزةَ منهمُ نجيباً وقد سمَّيتَه بنجيبِ
ألم يقتلوا عمْراً وعتبةَ وابنَه وشيبةَ والحجاجَ وابنَ حبيبِ
غداةَ دعا العاصِي عليًّا فراعَه بضربةِ عَضْبٍ بلَّه بخَضيبِ[2]

ومع إيجاز حسان فى رده، فإنه قد أصاب موضع الداء الذي يسقم أبا سفيان وغيره من قريش. إلا أن ذلك لا يعد كافياً في معركة لسانية، وربما كان حسان متعجلاً أو مرتجلاً في رده، أو ربما كانت صدمة الهزيمة في بدايتها ما تزال شديدة الوطأة على نفسه، ولم يفق منها بعد، فلم يستطع أن يوفى رده كما ينبغي أن يكون.

وكانت أبيات أبي سفيان مثاراً لنقض آخرين غير حسان، لا من معسكر المسلمين كما يتوقع، وإنما من معسكر قريش نفسها، إذ أحس ابن شعوب أن في قوله تهويناً من قيمة فضله في إنقاذه، أو كراهية منه أن تكون له نعمة و يد عنده. فقال ابن شعوب يؤكد لنفسه هذا الفضل :[3]

ولولا دفاعي يابن حَرْب ومشْهَدى لأُلفيتَ يومَ النَّعْف غيرَ مُجيبِ
ولولا مَكرّى المُهرَ بالنعفِ قَرْقرتْ ضباعٌ عليه أو ضِراء كَليبِ

كذلك ظن الحارث بن هشام أن أبا سفيان عرض به فى قوله:

وما زال مُهرى مَزجرَ الكلب منهم

وذلك لفرار الحارث يوم بدر، فقال يجيبه، مؤكدا إقدامه وانتقامه من المسلمين:[4]

جَزَيتهمُ يوماً ببدرٍ كمِثْلِه على سابحٍ ذى مَيْعةٍ وشَبِيبِ[5]

(١) السيرة ق ٢ ص ٧٦، وديوان حسان ص ٣٧٢.
(٢) عليا: يقصد بنى على أي قريش. العضب: السيف القاطع. خضيب: أى خضب بدم.
(٣) (٤) السيرة ق ٢ ص ٧٧.
(٥) الميعة: الخفة والنشاط. شبيب: أى شبّاب، وهو أن يرفع الفرس يديه جميعاً.

لـدى صحـنِ بـدرٍ أو أقـتَ نـوائحاً　　عـلـيـك ولم تحـفِـلْ مُـصـابَ حبيب

وإنـك لـو عـايـنـتَ مـا كـان منهـمُ　　لأبـتَ بـقـلـبٍ ما بقيتُ نَخيب[1]

ومن الواضح أن دواعي المناقضة بين هذين وبين أبي سفيان شخصية، لا تمس القضية العامة التى قامت عليها المناقضات بين معسكر الإسلام ومعسكر الشرك، فكلهم ينتمون إلى معسكر واحد، وكل منهم يريد إبراز موقفه في هذا المعسكر.

وقد شاركت النساء أيضاً في مناقضات هذه المرحلة، لما اتسمت به من شدة العداء واحتدام الصراع، ومن المعروف أن هند بنت عتبة كانت أشد نساء قريش عداوة للإسلام، لما وترت به في بدر من قتل ابنها وأبيها وأخيها وعمها، ولذا قامت بدور كبير في التحريض على الانتقام والثأر، ودبرت لقتل حمزة على يد وحشى غلام جبير بن مطعم، وخرجت مع جيش قريش على رأس جماعة من النساء، يضربن بالدفوف وينشدن الأراجيز الحماسية المثيرة. بل شاركت بنفسها في القتال[2]. ومثلت هي والنسوة اللاتي معها بجثث قتلى المسلمين، وبقرت عن كبد حمزة فلاكتها، ثم علت على صخرة مشرفة، فصرخت بأعلى صوتها فقالت[3]:

نحـن جـزيـنـاكـمْ بـيـوم بـدرِ　　والحـربُ بـعـد الحـرب ذاتُ سُعْـر

مـا كـان عـن عـتـبـةَ لـي مـن صبر　　ولا أخـي وعـمِّـه وبَـكْـرى

شـفـيْـتُ نـفـسـي وقـضـيـتُ نَذْري　　شـفـيـتَ وَحْـشـيّ غـلـيـلَ صـدرى

فـشـكـرُ وحـشـيّ عـلـيَّ عُـمـرى　　حـتـى تُـرَمَّ أعـظُـمـى فـي قـبـرى

فهى تعرب عن تشفيها وشماتتها بالمسلمين، وعرفانها بجميل وحشى عليها، إذ شفى نفسها الموتورة من سقم أحزانها بقتله حمزة.

---

(١) النخيب: الجبان الفزع.

(٢) انظر السيرة ق ٢ ص ٦٢، ٦٧، ٦٨، ٦٩، ٩١.

(٣) نفســـه ص ٩١.

وتصدت لها من نساء المسلمين هند بنت أثاثة بن عباد بن المطلب؛ فأجابتها بقولها[1] :

خَزِيتِ في بدرٍ وبعدَ بدرِ يا بنتَ وقّاعٍ عظيمِ الكفرِ
صبَّحكِ اللهُ غداةَ الفجرِ مِلْهاشميّين الطوالِ الزُّهرِ
بكلِّ قطّاعٍ حسامٍ يَفري حمزةُ ليثي وعليّ صقري
إذ رام شَيبٌ وأبوكِ غدري فخضّبا منه ضواحي النّحرِ
ونَذْرك السُّوءَ فشرُّ نَذْرِ

فقد أفسدت عليها شماتتها وتشفيها، فذكرتها بما فعله الهاشميون بذويها، الذين لا يذكر لهم سوى الكفر والغدر بالإسلام، وأن الخزى سيظل ملاحقاً لها، وما نذرته من سوء بقتل حمزة هو شر وخيم العاقبة، إلا أن هذه النقيضة ينقصها ثلاث أبيات تركها ابن هشام لأنها أقذعت فيها[2]. وهذا يعني أنها اتخذت سبيل الهجاء المقذع فى ردها لتزيدها إيذاء، وتنال منها أشد النيل، وصولاً إلى إفحامها والتشهير بها.

و يبدو أن أشعار هند بنت عتبة كانت تؤذي المسلمين إيذاءً شديداً، لأنها كانت تقوم أساساً على التشفي بمقتل حمزة، وهم يعرفون مكانته من نفس النبي صلى الله عليه وسلم، ومدى حزنه لفقده، لذلك قال عمر بن الخطاب لحسان بن ثابت: يابن الفريعة، لو سمعت ما تقول هند، ورأيت أشرها قائمة على صخرة ترتجز بنا، وتذكر ما صنعت بحمزة؟ فقال له حسان: أسمعني بعض قولها أكفكوها، فأنشد عمر بعض ما قالت. فقال حسان :

أشِرَت لَكاعُ وكان عادتُها لُؤْماً إذا أشرتْ مع الكفرِ[3]

وهذا البيت — كما قال ابن هشام — في أبيات له تركها، وأبياتاً أيضاً له على الدال، وأبياتاً أخر على الذال، لأنه أقذع فيها[4]. و بالرجوع إلى ديوان حسان،

(١) و (٢) نفسه ص ٩١، ٩٢.
(٣) أشرت: بطرت. لكاع: لئيمة. وقد جعله هنا اسماً لها إمعاناً في هجائها.
(٤) السيرة ق ٢ ص ٩٢، ٩٣.

وجدت مع هذا البيت تسعة أبيات أخرى[1] مليئة بهجاء مقذع لهند ينال فيه من شرفها وعرضها نيلاً قاسياً. و يفسر ظاهرة الإقذاع هذه أن الشاعر المسلم كان شديد الحساسية والغضب إزاء أى قول أو عمل يؤذي النبي صلى الله عليه وسلم؛ ولذا يستبيح لنفسه مثل هذا الإقذاع، ليلجم خصمه و يفحمه، وإن كان النبي صلى الله عليه وسلم لا يرضاه، بل ينهى عنه.

والأمر الذي يسترعي الانتباه أن هذه المرحلة من مراحل النقائض في السيرة النبو ية، كانت غزيرة الإنتاج كثيرة الأشعار، حتى إنه ليمكننا أن نعدها أغنى فترات السيرة بشعر النقائض. وليس ما عرضنا له منها فى هذا الفصل هو كل ما أوردته المصادر، بل هناك نقائض أخرى لم نعرض لها، منها نقيضة ابن الزبعري التي مطلعها:[2]

ألا ذَرَفَت من مُقلتيْكَ دموعُ وقد بانَ من حبلِ الشبابِ قُطوعُ

ونقيضة حسان التى يجيبه بها، ومطلعها :[3]

أشاقتْك من أمّ الوليد رُبوعُ بلا قِعُ ما من أهلِهنّ جَميعُ

ومنها نقيضتان لضرار بن الخطاب، مطلع الأولى :[4]

إنى وجدّك لولا مُقْدمى فَرَسى إذ جالت الخيلُ بين الجِزع والقاعِ

ومطلع الثانية :[5]

لمّا أتتْ من بني كعبٍ مُزَيِّنةٌ والخَزرجيّةُ فيها البِيض تَأتَلِقُ

ومعها نقيضة ثالثة لعمرو بن العاص مطلعها :[6]

---

(١) ديوانه ص ٣٥٠.
(٢) السيرة ق ٢ ص ١٤١.
(٣) نفسه ص ١٤٢. وديوان حسان ص ٩٧.
(٤) و (٥) السيرة ق ٢ ص ١٤٥.
(٦) نفسه ص ١٤٦.

لمـــا رأيــــتُ الحـــربَ يـــنــــــ ــزو شـــرُّهـــا بـــالـــرَّضْـــف نَـــزْوا

وهذه النقائض الثلاث يجيب عليها كعب بن مالك بنقيضة مطلعها :[1]

أبْـلـغْ قـريـشـاً وخيرُ القولِ أصدقُه والـصدقُ عند ذوى الألبابِ مقبولُ

وكثير من القصائد الأخرى التى قيلت فى أحد، وأوردت منفردة دون نقائض تقابلها، نجدها موجهة إلى الخصم توجيهاً واضحاً، على غرار ما رأيناه فى النقائض التى عرضنا لها، من ذلك ــ على سبيل المثال ــ قصيدة حسان التى مطلعها :[2]

مـنـع الـنـومَ بـالـعَـشـاء الهـمـومُ وخـيـالٌ إذا تـغُـورُ الـنـجـومُ

ففيها يعرض بابن الزبعرى ويهجوه، فيقول :

تـلـك أفـعـالُـنـاوفـعـلُ الـزبَـعْـرَي خـامـلٌ فـى صـديـقـه مـذمـوم

لا تـسـبَّـنَّـنـى فـلـستَ بـسِـبِّـى إن سَـبِّـى مـن الـرجـال الـكـريم

مـا أبـالـي أنَـبَّ بـالـحَـزْنِ تـيْـسٌ أم لَـحـانـى بـظـهـر غـيـبٍ لـئـيم

ومنها قصيدة كعب بن مالك، التى مطلعها :[3]

إنـكِ عَـمْـرَ أبـيـكِ الـكـريــ ـم أن تـسـألـي عـنـكِ من يجـتـدينا

ففيها يهجو ابن الزبعري، و يدفع هجاءه للرسول صلى الله عليه وسلم فيقول:

سـألـتُ بـك ابـنَ الـزبَـعْـرَى فـلـم أنَـبَّـــأْكَ فـى الـقـوم إلا هَـجِـيـنـا

خـبـيـثـاً تُـطـيـف بـك الـمُـنْـدِيات مُـقـيـمـاً عـلـى اللؤم حينا فحينا

تَـبَـجَّـسْـت تـهـجـو رسـولَ الـمـلـيـ ـكِ قـاتـلـك اللهُ جِـلْـفـاً لَـعِـيـنـا

تـقـولُ الـخَـنـا ثم تَـرْمـى بـه نَـقِـيَّ الـثِّـيـابِ تَـقِـيّـاً أمـيـنـا

---

(١) نفسه ص ١٤٧. وديوان كعب ص ٢٥٥.

(٢) السيرة ق ٢ ص ١٤٩، ١٥٠. وديوان حسان ص ٨١، ٨٨ ــ ٩٢.

(٣) السيرة ق ٢ ص ١٥٨ ــ ١٦١. وديوان كعب ص ٢٧٤ ــ ٢٧٧.

ومثل هذه القصائد تحمل شواهد بينة على أنها قيلت مناقضة لقصائد مقابلة لها من أشعار الخصوم، وأغلب الظن أن هذه القصائد المقابلة قد أسقطت، لما كانت تتضمنه من هجاء للنبي صلى الله عليه وسلم وصحابته.

ويمكننا أن نضيف إلى ذلك ما ضاع من نقائض أخرى لعوامل مختلفة، فمثلا شاعر كعبد الله بن رواحة لا نجد له نقيضة واحدة فى هذه الفترة، مع أنه ممن تصدوا للرد على شعراء قريش.

ومن كل ذلك يتبين لنا مدى كثرة النقائض الشعرية وغزارتها فى هذه المرحلة وعلة ذلك واضحة، لا تحتاج إلى جهد فى معرفتها، إذ كان تعادل القوى بين الجبهتين المتصارعتين هو أبرز النتائج التى أفرزتها أحد، فجبهة المسلمين في المدينة تجاهد حفاظاً على وجودها وتعزيز مكانتها، بعد انتصارها فى بدر، وجبهة المشركين في مكة قد استعادت ثقتها في قوتها، وتخلصت من عقدة الهزيمة، واستشعرت عزتها وسيادتها التى كانت لها منذ زمن، بعد انتصارها في أحد، وأخذها بثأرها، وكان هذا الحدث مثيراً لشعرائها، فاندفع كثيرون منهم إلى المشاركة في تلك الحرب اللسانية على نحو ما رأينا، بينما لم يجابههم فيها أساساً سوى شاعرين من المسلمين، هما حسان وكعب، ولكنهما كانا كفيلين برد هذا العدوان الشعري، والتصدي له بقوة وبراعة، والحيلولة دون تفوق جبهة الإشراك على جبهة الإسلام فى هذا الميدان.

الفصل الرابع

النقائض في مرحلة العداء الجماعي للإسلام
(بعد أُحد إلى الخندق)

واصلت الدعوة الإسلامية انتشارها بين القبائل، فلم تكن هزيمة أحد عائقاً يحول دون المضى قدماً إلى غايتها، وإنما كانت درساً فى الطاعة والولاء، والإخلاص والتضحية في سبيل الله، أفاد منه المسلمون كثيراً، فزادوا من بذل جهودهم لرأب الصدع ومواصلة المسيرة.

وظن أعداء الإسلام أن هزيمة أحد قد فتحت أمامهم الطريق للقضاء على دعوته والخلاص من داعيته ورسوله، فقريش من ناحية تدبر لتحقيق هذا الهدف، واليهود من ناحية أخرى يتحينون الفرصة للانقضاض ولوأد هذا الدين، الذي يهدد وجودهم ويفضح أسرار افتراءاتهم وتخرصاتهم، ومع أنهم كانوا على عهد وميثاق مع المسلمين، إلا أنهم صاروا يتوجسون خيفة مما ينتظرهم، وخاصة بعد أن رأوا ماحل ببني قينقاع منهم، حين رفعوا عصا الغدر، وخرجوا على العهد، وما آل إليه مصير كعب بن الأشرف حين أظهر العداء للإسلام.

وحانت الفرصة التى كان ينتظرها يهود بنى النضير، لما خرج إليهم الرسول صلى الله عليه وسلم، ليستعينهم فى دية قتيلين من بنى عامر، قتلهما أحد المسلمين خطأً [١]، فتآمروا فيما بينهم على الغدر به، بإلقاء صخرة عليه من أعلى الجدار الذى كان يقعد إلى جنبه، ولكن الله عز وجل أعلمه بما يدبرون، فخرج راجعاً إلى المدينة، وأخبر صحابته بالخبر، وأمر بالتهيؤ لحربهم. ثم سار إليهم، وحاصرهم فى حصونهم. وتوسط فى

(١) السيرة ق ٢ ص ١٨٦.

الأمر بعض المنافقين من حلفائهم، وسألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يجليهم ويكف عن دمائهم، على أن لهم ما حملت الإبل من أموالهم إلا الحلقة ــ أي السلاح ــ فخرجوا إلى خيبر ومنهم من سار إلى الشام. ومن أشرافهم الذين ساروا إلى خيبر سلام بن أبي الحقيق، وكنانة بن الربيع بن أبي الحقيق، وحيي بن أخطب، فلما نزلوها دان لهم أهلها. وكان ذلك في شهر ربيع الأول من السنة الرابعة للهجرة[1]، أي بعد أحد بشهور قليلة.

ونزلت آيات الذكر الحكيم تذكر هذا الحدث في قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَخْرَجَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مِن دِيَٰرِهِمْ لِأَوَّلِ ٱلْحَشْرِ ۚ مَا ظَنَنتُمْ أَن يَخْرُجُوا۟ ۖ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَأَتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا۟ ۖ وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ ۚ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِى ٱلْمُؤْمِنِينَ فَٱعْتَبِرُوا۟ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَبْصَٰرِ﴾[2]

وكان إجلاء بني النضير مثاراً لنقائض شعرية بين شعرائهم وشعراء المسلمين، فقال رجل من المسلمين ــ لم يحدد ابن هشام اسمه، وإن قيل إنه علي بن أبي طالب، على رواية ابن إسحاق ــ يذكر هذا الحدث، مضيفاً إليه قتل كعب بن الأشرف[3]:

عرفتُ ومَنْ يعتدلْ يَعرفِ ... وأيقنتُ حقّاً ولم أصدِفِ

عن الكَلِم المحكَم اللاّءِ من ... لدى اللهِ ذي الرأفةِ الأرأف

رسائلُ تُدرس في المؤمنين ... بهنّ اصطفَى أحمدَ المُصطفِي

فأصبح أحمدُ فينا عزيزاً ... عزيزَ المقامةِ والموقف

فهو يبدأ قصيدته معرباً عن إيمانه بالله وآياته المحكمات، ورسوله الذى اصطفاه من بين البشر، ليبلغها للناس، كي يعتبروا بما فيها من عظات، ويستفيد المؤمنون بما فيها من دروس. ولعله يعني منها ــ بصورة خاصة ــ هذا الدرس البليغ فيما حدث لبني

(1) نفسه ص ١٩٠ ــ ١٩١.
(2) سورة الحشر آية ٢.
(3) السيرة ق ٢ ص ١٩٦ ــ ١٩٧. وقد علق ابن هشام على رواية ابن إسحاق بأنه لم ير أحداً يعرفها لعلي.

النضير، من إذلال وإجبار على ترك ديارهم. وما يقابله من إعزاز رسول الله صلى الله عليه وسلم ورفعة شأنه، وتمكين مقامه بين أنصاره وأصحابه.

ويتبع ذلك بتوجيه الوعيد والتهديد لهم، مذكراً إياهم بمصرع ابن الأشرف، فيقول:

فيا أيّها المُوعِدُوه سَفاهاً ولم يأتِ جوْراً ولم يَعْنُف

ألستم تخافونَ أدنىَ العذاب وما آمِنُ اللهِ كالأخوف

وأن تُصرَعوا تحت أسيافه كمصرعِ كعبٍ أبى الأشرف

غداةَ رأى اللهُ طُغيانَه وأعرضَ كالجملِ الأجنَف[1]

فأنزلَ جبريلَ في قتلِه بوحيٍ إلى عبدِه مُلطَف

ويستطرد في وصف مصرعه، وما أصاب قومه من حزن شديد، ثم ينتقل إلى الحديث عن إجلائهم أذلة مدحورين، فيقول :

فخلاهمُ ثم قال اظْعَنُوا دُحوراً على رغْم الآنُف

وأجلَى النضيرَ إلى غربةٍ وكانوا بدارٍ ذوي زُخف

إلى أذرعاتٍ رُدافىَ وهمْ على كل ذي دَبرٍ أعْجفِ[2]

فالشاعر هنا وإن بدا مفتخراً متوعداً مهدداً، إلا أنه يهدف بذلك إلى استجلاء ما في هذه الأحداث من عظة يعتبر بها، فيهتدى المنكرون إلى ما وراءها من حق، ويزداد المؤمنون بها إيماناً ويقيناً.

وينبرى لهذا الشاعر المسلم شاعر من يهود اسمه سمّاك، فيجيبه ناقضاً قوله، بإدانتهم فيا فعلوه، وتوعدهم بما ينتظرهم من الانتقام والثأر، فيقول :[3]

(١) الأجنف: المائل إلى جهة.

(٢) أذرعات: موضع بالشام. ردافى: يردف بعضهم بعضاً. ذو دبر أعجف: يعني جملاً جريحاً هزيلاً.

(٣) السيرة ق ٢ ص ١٩٨.

إن تفخَروا فهو فخرٌ لكم بمقتل كعبٍ أبي الأشرف

غداة غدوْتم على حتفِه ولم يأتِ غدراً ولم يُخْلِف

فعَلَّ الليالي وصرفَ الدّهورِ يُديلُ من العادلِ المنصف [1]

بقتل النَّضيرِ وأحلافِها وعقرِ النّخيل ولم تُقْطف

فهو يبدأ معتزا بشخصية ابن الأشرف الذي يفخر المسلمون بقتله، ولكنه يحاول أن يدينهم فى هذه الفعلة، بالدفاع عنه وتبرئة ساحته، و يبدى أمله وتوقعه لما تأتي به صروف الدهر من النقمة عليهم، لما اقترفوا من ظلم فيما فعلوا به و ببني النضير، ثم يتبع ذلك بالتهديد والوعيد، فيقول :

فإنْ لا أمتْ نأتِكمْ بالقَنا وكلّ حُسامٍ معاً مُرهَف

بكفّ كَمِيٍّ به يحتمى متى يَلْقَ قِرناً له يُتلِف [2]

مع القومِ صَخرٌ وأشياعُه إذا غاوَر القومَ لم يَضعُف [3]

كليثٍ بترْجٍ حمىَ غِيلَه أخى غابةٍ هاصرٍ أجْوَف [4]

وتهديده يقوم على أساسين: ما يعده قومه من الرجال والسلاح للانتقام من المسلمين. وما يجمعهم مع قريش من وحدة الهدف فى معاداة الإسلام، وتحالف الفريقين لمحاربته بكل ما يملكان من قوة. وهذا ما سيحدث بالفعل فى غزوة الخندق.

ونجد نقيضتين أخريين بين كعب بن مالك وسمّاك اليهودي، تدوران حول هذه الأحداث. وقد بدأ المناقضة كعب بقصيدة يضمنها إجلاء بني النضير وقتل كعب بن الأشرف، يبدؤها بقوله :[5]

---

(١) يريد بالعادل المنصف النبي صلى الله عليه وسلم، وهو أسلوب مدح يراد به الذم.

(٢) الكمى: الشجاع. والقرن: الخصم المقابل فى القتال.

(٣) صخر: هو أبو سفيان بن حرب.

(٤) ترج: جبل بالحجاز. الغيل: أجمة الأسد. هاصر: يكسر فريسته. أجوف: عظيم الجوف.

(٥) السيرة ق ٢ ص ١٩٩. وديوان كعب ص ٢٠٣.

لقد خَزِيتْ بغدْرَتِها الحُبُور … كذاك الدهرُ ذو صرْف يَدُورُ[1]
وذلك أنهمْ كفروا بربٍّ … عزيزٍ أمرُه أمرٌ كبير
وقد أُوتُوا معاً فَهماً وعِلْماً … وجاءهمُ من الله النَّذير
نذيرٌ صادقٌ أدّى كتاباً … وآياتٍ مبيَّنةً تُنير
فقالوا ما أتيتَ بأمرِ صدقٍ … وأنت بمنكرٍ منا جَدير

فكعب يتحدث عن علاقتهم برسول الله صلى الله عليه وسلم منذ بدايتها، وما جرى بينه وبينهم من جدال حين دعاهم إلى الإسلام، ويستطرد فى أبيات تالية، معطياً تفصيلات أخرى عن ذلك، ليخرج منها إلى بيان السبب في إجلائهم، فيقول:

فلما أُشرِبوا غدراً وكُفرا … وحادَ بهم عن الحقّ النُّفور
أرى اللهُ النبيَّ برأيِ صدقٍ … وكان اللهُ يحكمُ لا يَجُور
فأيَّده وسلَّطه عليهم … وكان نصيرَه نعمَ النصير

والسبب واضح فى غدرهم وكفرهم. مما دعا النبى صلى الله عليه وسلم إلى عقابهم بما فعل، مؤيداً فى ذلك من ربه، الذي سلطه ونصره عليهم. ثم يدخل كعب فى تفصيلات ما حدث لهم، بدءاً من قتل زعيمهم وشاعرهم ابن الأشرف، حيث يقول :

فغُودر منهم كعبٌ صريعاً … فذلّت بعد مصرعه النضير

ويذكر فى ثلاثة أبيات تالية كيف تم قتله والتدبير له. وينتقل بعد ذلك إلى ذكر ما حدث لبني النضير من حصار وإجلاء وإذلال، فيقول :

فتلك بنو النّضير بدارِ سَوْءٍ … أبارَهمُ بما اجترَمُوا المُبير

---

(١) الحبور: جمع حبر وهو العالم، ويجمع على أحبار أيضاً. ويريد بهم علماء اليهود.

غداةَ أتاهمُ فى الزَّحفِ رَهْواً ‏ رسولُ اللهِ وهو بهمْ بصير[1]

وغسانُ الحماةُ مُوازِروه ‏ على الأعداء وهو لهمْ وزير[2]

فقال السَّلمَ ويحكُمُ فصدُّوا ‏ وحالفَ أمرَهم كذبٌ وزور

فذاقوا غِبَّ أمرهمُ وَبالاً ‏ لكلِّ ثلاثةٍ منهم بعير

وأُجلُوا عامدين لقَيْنُقاعٍ ‏ وغُودرَ منهمُ نخلٌ ودور

وهكذا تتبع كعب قصة بنى النضير مع الرسول صلى الله عليه وسلم فى سرد تاريخي مصطبغ برؤياه الإسلامية، التى يبرز فيها مواضع العبرة فيما حل بهم نتيجة غدرهم وكفرهم، كما يبرز اعتزازه بنصر الله لنبيه، وبإظهاره الحق على الباطل، وذلك فخر له ولكل مسلم.

وأجاب سمّاك اليهودي كعباً بنقيضة عبر فيها عن موقفه وموقف قومه من هذه الأحداث، وما تركته من آثار فى نفوسهم، مهدداً بالثأر والانتقام، يقول[3] :

أرقتُ وضافَنى همٌّ كبيرُ ‏ بليلٍ غيرُه ليلٌ قصير

أرى الأحبارَ تُنكرُه جميعاً ‏ وكلُّهمُ له عِلمٌ خبير

وكانوا الدارسين لكلِّ عِلمٍ ‏ به التوراةُ تنطقُ والزَّبور

فنراه يبدأ نقيضته مترجماً عما يعانيه من هم شديد يسهده و يؤرقه، وهو ناتج ــ بطبيعة الحال ــ عن هذه المصائب التى حلت بهم، وإن لم يفصح عنها، وإنما اكتفى بذكر موقف أحبارهم وإنكارهم لما حدث، وهو إنكار علماء دارسين لكتب الله، وهذا دليل على اعتزازه بيهوديته. ثم ينتقل من ذلك إلى الحديث عن مقتل ابن الأشرف، متهما قاتله بالفجور والغدر، ومصوراً فداحة الخطب لفقده، فيقول :

---

(١) الرهو: المشى فى سكون.

(٢) ذكره لغسان هنا يعنى به قومه، إذ تربطهم بغسان أصول قبلية واحدة.

(٣) السيرة ق ٢ ص ٢٠٠.

قتلتمْ سيدَ الأحبار كعباً	وقِدْماً كان بأمنٌ من يُجير
تدلّىَ نحو محمودٍ أخيه	ومحمودٌ سريرتُه الفجور[1]
فغادره كأن دماً نجيعاً	يسيلُ على مدارِعه عبير
فقدْ وأبيكم وأبي جميعاً	أصيبتْ إذْ أصيب به النضير

وهذا التركيز من الشاعر على مقتل كعب، يجعله يبدو لديه وكأنه أخطر حدث أصيب به بنو النضير، وأن أحداث إذلالهم وطردهم من ديارهم تبدو هينة إلى جانبه. أو ربما وجد في مقتله ما يمكن أن يدين به قاتليه، ويندد بفعلتهم، بينما ذكره للأحداث الأخرى لا يسعفه بشيء يبني عليه موقفاً يرفع به رأسه، فذكره لها في نقيضته الفائية السابقة لم يزد على بيت واحد، فربما يكون آثر تجاوزها، مكتفياً بتوجيه وعيده بالانتقام، فيقول :

فإن نَسلمْ لكم نتركْ رجالاً	بكعبٍ حولهم طيرٌ تدور
كأنهمُ عتائرُ يومِ عيدٍ	تُذَبَّح وهي ليس لها نَكير[2]
ببيضٍ لا تُليقُ لهنَّ عظماً	صوافي الحدّ أكثرُها ذُكور[3]
كما لاقيتمُ من بأسِ صخرٍ	بأُحُدٍ حيث ليس لكم نصير

وحتى وعيده بالانتقام نلاحظ أنه يوجهه للأخذ بثأر كعب، ولكنه وعيد بالانتقام الجماعي والحرب الشاملة، يوحى بأنه رد على ما حل بهم من طرد وإذلال، إلى جانب الثأر لكعب، وأغلب الظن أن هذه النقيضة قد حذفت منها أبيات تضمنت نقض ما قيل فى تلك الأحداث، لأنها امتزجت بهجاء للنبي صلى الله عليه وسلم أو صحابته. إذ أنها بهذه الصورة التى وصلت إلينا تبدو ناقصة هذا الجزء الأساسي فى موضوعها.

(١) لعله يقصد بمحمود أخيه أبا نائلة سلكان بن سلامة، وكان أخاً لكعب من الرضاعة، وهو أحد السرية التى قامت بتدبير مقتله وتنفيذه (انظر السيرة ق ٢ ص ٥٥).
(٢) العتائر: جمع عتيرة، وهى الذبيحة.
(٣) لا تليق: لا تبقى.

ويدخل في هذه المعركة الشعرية شاعر عربي آخر، هو العباس بن مرداس السلمي متعاطفاً مع بني النضير، والذي يدعو إلى الدهشة أنه لا ينتمي إلى أيّ من الجهتين، فلا هو من اليهود، ولا هو من المسلمين، مما يدل «على مكانة كانت لليهود بين القبائل العربية من عدنان واليمن، وعلى المستوى المدنى والاقتصادي، الذي ظفر به بنو النضير إذ ذاك من ثراء، ونعومة عيش، وجمال خلق»[1]. فنرى العباس يبدى أساه لرحيلهم، وخراب ديارهم التى كانت عامرة بالنعم والخيرات، ويمتدح فيهم صفات الجمال والكرم، وحسن اللقيا لكل من يقصدهم، ومدهم يد المعروف إليه بإجابة طلبه، فيقول[2]:

لو أن أهلَ الدار لم يتصدَّعُوا	رأيت خِلالَ الدارِ مَلهىً ومَلعبا
فإنك عَمْرى هل أريك ظَعائنا	سَلكْنَ على رُكن الشَّطاةِ فتَيْأبا[3]
عليهنَّ عِينٌ من ظِباء تَبالةٍ	أوانسُ يُصبِين الحليمَ المُجرِّبا[4]
إذا جاء باغى الخيرِ قُلنَ فُجاءةً	له بوجوهٍ كالدنانير مَرحَبا
وأهلاً فلا ممنوعُ خيرٍ طلبتَه	ولا أنت تَخشىَ عندنا أن تُؤنَّبا
فلا تحسبنىّ كنت مولى ابن مِشكم	سلامِ ولا مولى حُيَيّ بن أخْطبا

ويبدو أن هذا التعاطف والحب الذى أبداه العباس تجاه بني النضير، لم يكن مقبولاً لدى المسلمين، فانبرى له شاعر منهم، هو خوّات بن جبير، من بني عمرو بن عوف الخزرجيين، يجيبه ناقضاً قوله، منكراً بكاءه لليهود، دون عصبته وأقاربه من بني جنسه، فاضحاً فيه سوء خلقه، مكذباً إياه فيما ادعاه من مدحهم، داعياً له أن يوجه مديحه لمن هم أحق به وأولى، من ذوي الملك والعزة، والمجد والكرم — أى من المسلمين — فيقول :[5]

---

(١) تاريخ النقائض ص ١٣٦.

(٢) السيرة ق ٢ ص ٢٠٠ — ٢٠١.

(٣) ظعائن: نساء في الهوادج. الشطاة وتيأب: موضعان.

(٤) عين: جمع عيناء وهى الواسعة العينين. تبالة: موضع باليمن. يصبين: يذهبن العقل.

(٥) السيرة ق ٢ ص ٢٠١ — ٢٠٢.

تُبكيّ على قتلَى يهودٍ وقد ترى من الشّجْو لو تبكِي أحبّ وأقربا

فهلاً على قتلَى ببطنِ أُرَيْنِق بكيتَ ولم تُعْوِلْ من الشجْو مُسهِبا[1]

إذا السِّلمُ دارت فى صديقٍ رَدَدْتَها وفى الدين صدَّاداً وفى الحرب ثَعْلبا

عمدتَ إلى قَدْرٍ لقومِك تَبْتغى لهم شَبَهـا كيْما تَعِزَّ وتَغْلبا

فإنك لمّا أن كَلِفْتَ تَمدُّحا لمن كان عَيْباً مدحُه وتكذُّبا

رحلتَ بأمرٍ كنت أهلاً لمثلِه ولم تُلْفِ فيهم قائلاً لك مَرحبا

فهلاً إلى قومٍ ملوكٍ مدحتَهمْ تَبَنَّوْا من العزِّ المُؤَثَّل مَنصِبا

إلى معشرٍ صاروا ملوكاً وكُرِّموا ولم يُلْفَ فيهم طالبُ العُرفِ مُجدِبا

أولئك أحرَى من يهود بمِدحةٍ تراهم وفيهم عزّةُ المجد تُرتُبا[2]

ولم تقف المناقضة بينهما عند هذا الحد، إذ رأى العباس فى رد خوات إنكاراً للحقيقة ــ كما يراها ــ فأجابه مكذباً إياه، مؤكداً ما مدح به بنى النضير من فضل وكرم يستحق الشكر والعرفان، وأن لهم من النعم على قوم خوات ما لا ينبغي إنكاره، بل يوجب عليه شكرهم والبكاء عليهم كما فعل هو، فهم أهل لذلك عن جدارة، يقول :[3]

هجوتَ صريحَ الكاهنَيْن وفيكمُ لهمْ نِعَمٌ كانت من الدهر تُرْتُبا[4]

أولئك أحرَى لو بكيتَ عليهمُ وقومُك لو أدَّوْا من الحقِّ مُوجِبا

من الشكر إن الشكرَ خيرٌ مَغبَّةً وأوفقُ فعلاً للذي كان أصوبا

فكنتَ كمن أمسى يُقطِّعُ رأسَه ليبلُغَ عزاً كان فيه مُركَّبا

(١) أرينق: موضع. الشجو: الحزن. المسهب: المتغير الوجه.

(٢) ترتب (بضم التاء والثانية وفتحها): ثابت. والتاء الأولى فيه زائدة. وهو من (رتب) عند سيبويه.

(٣) السيرة ق ٢ ص ٢٠٢.

(٤) الكاهنان: قبيلان من يهود المدينة، يزعمون أنهم من ولد هارون عليه السلام. ويروى «الكاهنين» بالجمع.

فَبَكِّ بني هارونَ واذكرْ فعالَهم ... وقتلَهمُ للجُوعِ إذ كنتَ مُجدِبا

أخوَّاتُ أذْرِ الدمعَ بالدمعِ وابكِهِمْ ... وأعرِضْ عن المكروهِ منهم ونَكِّبا

فإنك لو لاقيتَهمْ فى ديارِهمْ ... لألْفيتَ عما قد تقولُ مُنكِّبا

سراعٌ إلى العَلْيا كرامٌ لدَى الوغَى ... يقالُ لباغِى الخيرِ أهلاً ومَرْحبا

وواضح أن المناقضة بين الشاعرين، تدور فى نطاق موضوعي محصور فى إثبات الفضل لبنى النضير، أو نفيه عنهم، وإثباته للأنصار أو للمسلمين، وما إذا كانوا يستحقون البكاء والحزن لما حل بهم، أم لا يستحقون، ولا تخرج المناقضة عن ذلك إلى ذكر حقيقة الأحداث وأسبابها، وتوضيح موقفهم وموقف المسلمين، على نحو ما رأينا فى المناقضات السابقة، وتفسير ذلك أن العباس بن مرداس ليس واحداً من اليهود يعنيه الدفاع عن موقفهم، وإنما هو يعبر فقط عن تأثره بما أصابهم من خلال صلة مودة كانت تربطه بهم.

ولما كان العباس قد علا صوته فى رده على خوَّات، فأظهر بني النضير بهذه الصورة من المكانة والفضل، فقد اقتضى الموقف ضرورة الرد عليه مرة أخرى، لطمس تلك الصورة المتألقة لبني النضير، لهذا تصدى له كعب بن مالك، أو عبد الله بن رواحة ــ فيما قال ابن هشام ــ فأجابه بقوله :[1]

لعَمرى لقد حكَّتْ رحَى الحرب بعدما ... أطارت لُؤيّاً قبلُ شرقاً ومَغرِبا

بقيةَ آل الكاهنَيْن وعزَّها ... فعاد ذليلاً بعد ما كان أغْلبا

فطاح سلامٌ وابنُ سَعْيةَ عَنْوةً ... وقِيدَ ذليلاً للمنايا ابنُ أخْطَبا

وأجْلَبَ يبغى العزَّ والذلَّ يبتغى ... خلافَ يديه ما جنىَ حين أجْلبا[2]

كتاركِ سهلِ الأرض والحَزْنُ همُّه ... وقد كان ذا فى الناس أكْدَى وأصْعبا[3]

---

(١) السيرة ق ٢ ص ٢٠٢، وديوان كعب ص ١٧٦، وديوان ابن رواحة ص ١٣٦.

(٢) أجلب: جمع القوم وصاح بهم.

(٣) الحزن: المرتفع من الأرض. أكدى: لم ينجح فى سعيه.

وشَاسٌ وعَزَّالٌ وقد صَلِيَا بها ... وما غُيِّبا عن ذاك فيمن تَغَيَّبا

وعوفُ بن سَلمى وابنُ عوف ٍكلاهما ... وكعبٌ رئيسُ القوم حانَ وخُيِّبا

فبُعداً وسُحْقاً للنضيرِ ومِثْلها ... إن اعقبَ فتحٌ أو إن اللهُ أعْقبا [1]

وهنا يركز كعب أو ابن رواحة على أحداث الإجلاء والإذلال التى حاقت ببنى النضير، رابطاً بينها وبين ما حاق بقريش، ليبرز غلبة الإسلام وانتصاره على أعدائه أيا كان شأنهم، ولا نراه مهتماً بما أثاره ابن مرداس فى أبياته من عزة سابقة لهؤلاء اليهود، إذ صب اهتمامه على ما صارت إليه تلك العزة من ذلة ونكال، نتيجة لما جنت أيديهم من شر وغدر، وقد عدد أسماء رؤسائهم الذين قادوهم إلى الخزى والتهلكة، ليزيد هذا المعنى تأكيداً وجلاء. وليظهر اعتزازه بنصر الله وفتحه على المؤمنين.

وبعد تطهير المدينة من بني النضير، واصل الرسول صلى الله عليه وسلم إعداده للقاء المرتقب مع قريش عند بدر، بعد عام من أحد، حسب الموعد الذى كان متفقاً عليه مع أبى سفيان[2]. ولما حان الموعد خرج الرسول صلى الله عليه وسلم فى شعبان من سنة أربع إلى بدر، فأقام عليه ثماني ليال ينتظر أبا سفيان، الذى كان خرج فى أهل مكة، ثم بدا له فى الرجوع، لأسباب رآها، فرجعوا ولم يحدث لقاء، وتعرف هذه الغزوة ببدر الآخرة[3].

وكان تقاعس قريش عن ملاقاة جيش المسلمين، مثاراً لأشعار تتهكم بجبنهم وتخاذلهم، وتفخر بشجاعة المسلمين وقوتهم، ومنها قصيدة لحسان بن ثابت، ناقضه فيها أبو سفيان بن الحارث. يقول حسان :[4]

---

(١) إن الله أعقبا: أى إن جاء الله بالنصر عليهم.

(٢) السيرة ق ٢ ص ٩٤.

(٣) نفسه ص ٢٠٩.

(٤) نفسه ص ٢١١. وديوان حسان ص ١٦٣ مع اختلاف فى رواية الأبيات وترتيبها.

دعوا فَلَجات الشام قد حال دونها جِلادٌ كأفواه المخاض الأوارك[1]

بأيدى رجالٍ هاجروا نحوَ ربِّهم وأنصاره حقّاً وأيدِى المَلائك

إذا سلكت للغَوْر من بطنِ عالجٍ فقُولا لها ليس الطريقُ هنالك[2]

أقمنا على الرسِّ النَّزوع ثمانيا بأرعَنَ جرارٍ عريضِ المَبارِك[3]

بكل كُمَيْتٍ جوزُه نصفُ خلقه وقُبٍّ طِوالٍ مُشْرِفاتِ الحَوارك[4]

ترى العَرْفجَ الحوْلىَّ تَذْرى أصولَه مناسِمُ أخفافِ المَطىِّ الرَّوَاتك[5]

فإن نلقَ فى تَطْوافنا والتماسِنا فراتَ بن حيانٍ يكنْ رهنَ هالك[6]

وإن نلقَ قيسَ بن امرئ القيس بعدَه يُزَدْ فى سوادٍ لونُه لونُ حالك

فأبلغْ أبا سفيانَ عنى رسالةً فإنك من شرِّ الرجالِ الصَّعالك

ونرى حسان يبدى اعتزازاً وفخراً قوياً بجيش المسلمين، من حيث كثرته، وشجاعة رجاله من المهاجرين والأنصار المؤمنين بربهم، وقوة عدته من السلاح ورباط الخيل والإبل، وأنهم بهذه القوة قد تمكنوا من قطع طريق تجارة قريش إلى الشام، وبعثوا الرعب فى قلوب رجالها، فجبنوا عن لقائه عند بدر فى الموعد المضروب، إذ ظل فى انتظارهم ثمانية أيام، وبعد أن بلغ حسان مأربه من التفاخر والتهديد، وجه هجاءه

---

(١) الفلجات: جمع فلج وهو الماء الجارى يشق الأرض. المخاض: الحوامل من الإبل. الأوارك: التى ترعى الأراك.

(٢) الغور: المنخفض من الأرض. وعالج: مكان فيه رمل كثير.

(٣) الرس: البئر. النزوع: التى يخرج ماؤها بالأيدى. أرعن: جيش كثير. المبارك: مواضع برك الإبل.

(٤) كميت: فرس داكن الحمرة. جوزه: وسطه (يعنى ضخم الجنبين) قب: جمع أقب وهو الضامر. الحوارك: جمع حارك وهو أعلى الكتفين من الفرس.

(٥) العرفج: شجرة قدر ذراع لها زهر أصفر. الرواتك: المسرعة.

(٦) فرات بن حيان وقيس بن امرئ القيس كلاهما من بنى عجل البكريين. وهما دليلان كانت قريش استأجرتهما، حين خافت سلوك طريقها إلى الشام بعد بدر. فسلكا بها طريق العراق، فبعث الرسول صلى الله عليه وسلم زيد بن حارثة فى سرية إليهم فظفر بعيرهم وأعجزه الرجال (انظر تفاصيل الخبر فى السيرة ق ٢ ص ٥٠ والأغاني جـ ١٦ ص ٧٧ ط الساسي).

وسخريته إلى أبى سفيان بن حرب زعيم قريش، ليسلبها ما تدعيه من سيادة وشرف.

ويتصدى لحسان أبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب[1]، فيجيبه بقوله[2]:

أحسَّانُ إنَّا يابن آكلة الفَغا ... وجدّك نغْتالُ الخروقَ كذلك[3]

خرجنا وما تنْجو اليَعافيرُ بيننا ... ولو وألتْ منا بشدٍّ مُدارِكِ[4]

إذا ما انبعثْنا من مُناخٍ حبسته ... مُدَمَّن أهل المَوْسم المُتَعارك[5]

أقمتَ على الرسِّ النزوعِ تريدُنا ... وتتركُنا فى النخل عند المَدارك[6]

على الزرعِ تمشِى خيلُنا وركابُنا ... فما وَطِئَتْ ألصقْنَه بالدَّكادك[7]

أقمنا ثلاثاً بين سَلْعٍ وفارعٍ ... بجُرد الجيادِ والمطِىِّ الرَّوَاتك[8]

حسبتم جلادَ القوم عند قبابهم ... كمأخذكم بالعين أرطالَ آنُك[9]

---

(١) اسمه المغيرة، وهو ابن عم الرسول صلى الله عليه وسلم وشبهه ورضيعه، ولد معه فى ليلة واحدة، وكان أليفه وتربه، فلما بعث كان من أشد الناس عدواة له، حاربه فى معاركه مع قريش، وكان يهجوه بشعره. أسلم عام الفتح. وقد ضاع معظم شعره. (انظر طبقات ابن سعد جـ ٤ ص ٤٩، وطبقات الشعراء ص ٩٦، والأعلاق النفيسة ص ٢٠١ والسيرة فى عدة مواضع).

(٢) السيرة ق ٢ ص ٢١٢.

(٣) الفغا: التمر، أو هو الذي تعلوه غبرة قبل نضجه. نغتال: نقطع. الخروق: جمع خرق وهو الفلاة الواسعة.

(٤) اليعافير: الظباء الصغيرة. وألت: اعتصمت. شد مدارك: جرى سريع. يريد أنها لا تنجو منهم لكثرتهم.

(٥) المدمن: الموضع الذى يتركون فيه الدمن وآثار الدواب. الموسم المتعارك: المناسبة التى يزدحم فيها الناس وقد ذكر ابن هشام عن أبى زيد الأنصارى أن هذا البيت والذى قبله لحسان، وقد وردا فعلاً فى ديوانه.

(٦) المدارك: المواضع القريبة.

(٧) الدكادك: جمع دكدك، وهو الرمل اللين.

(٨) سلع وفارع: جبلان قريبان من المدينة. الرواتك: المسرعة.

(٩) العين: المال الحاضر أو الدر. الآنك: القزدير.

فلا تبعث الخيلَ الجياد وقلْ لها على نحو قول المُعْصِم المُتَماسك

سعدتُم بها وغيرُكم كان أهلَها فوارسُ من أبناء ِفِهر بن مالك

فإنك لا في هجرةٍ إن ذَكرتَها ولا حُرُماتِ الدين أنت بناسك

ونراه يبدأ نقيضته بهجاء حسان، محقراً شأنه وشأن قومه، مفتخراً بقريش وجيشها القوى، الذي يخترق الفيافى ويطأ الزروع، لا يخشى أصحابها، ولا يهاب أية قوة تعترضه، ويكذب حسان فيما ذكره عن جبنهم وتقاعسهم عن اللقاء الموعود، محاولاً قلب هذا الوصف وإلصاقه بجيش المسلمين، مدعياً أنهم هم الذين تجنبوا اللقاء، فلم يسعوا إليهم حيث أقاموا ثلاثة أيام بين سلع وفارع. ويهون من شأن ما أخذوه حين ظفروا بعير قريش من قبل، إذ لا يعد ذلك أمراً يقاس بالجلاد فى المعركة. ويحاول أن يسلب الأنصار بطولاتهم فيما وقع من حرب، وأن يسندها إلى القرشيين المهاجرين بينهم، وأن يسلب حسان صفاته الإسلامية، أو تمثله بتعاليم دينه، ليشوه صورته فى نظر المسلمين.

ومن ثم نرى كلتا النقيضتين تقومان على أسس موضوعية وجدلية قوية، فكل من الشاعرين استطاع أن يستخدم ما لديه من عناصر وأسباب استخداماً بارعاً، وأن يبني عليها موقفه الأدبي والشعري بناء محكماً.

ونصل إلى ذروة العداء الجماعي للإسلام فى غزوة الخندق. فقد سعى زعماء بنى النضير لتحزيب الأحزاب ضد رسول الله صلى الله عليه وسلم، وهم سلام بن أبي الحقيق وحُيَيُّ بن أخطب، وكنانة بن الربيع بن أبى الحقيق، فى نفر من بنى النضير، ومعهم هوذة بن قيس الوائلي، وأبو عمار الوائلي، فى نفر من بنى وائل — وهم بطن من الأوس[1] — وقدموا على قريش فدعوهم إلى حرب رسول الله صلى الله عليه وسلم، وقالوا: إنا سنكون معكم عليه حتى نستأصله، وشهدوا لهم بأن دينهم خير

(١) هم من الأوس بن حارثة، التى تعرف بأوس الله، وكان معهم بنو أمية بن زيد وخطمة وواقف، وفيهم أبو قيس بن الأسلت شاعرهم وقائدهم، الذى وقف بهم عن الإسلام إلى ما بعد الخندق (السيرة ق ١ ص ٤٣٧ — ٤٣٨).

من دينه، فسروا بذلك، ونشطوا له. ثم خرج أولئك النفر حتى جاءوا غطفان، فدعوهم إلى الأمر نفسه، فاجتمعوا معهم فيه(١).

وخرجت جموع هذه الأحزاب إلى المدينة في شوال سنة خمس. وكان المسلمون قد حفروا خندقاً حولها، لما سمعوا بما أجمعوا له من الأمر. وحاصرت الأحزاب المدينة وفي أثناء الحصار توجه حُيَيُّ بن أخطب النضري إلى كعب بن أسد القريظي، صاحب عقد بني قريظة وعهدهم، فظل يغريه بنقض العهد والانضمام إليهم في حرب محمد صلى الله عليه وسلم حتى وافقه(٢). وكان ذلك يعني خطورة شديدة على المسلمين، لانكشاف المدينة من جانب هؤلاء اليهود. واشتد البلاء، ونجم النفاق، وكانت فترة عصيبة على المؤمنين.

وكان نصر الله وقدرته فوق كل هذه القوى والمؤامرات، فأرسل عليهم ريحاً عاتية وجنوداً من ملائكته، فتفرقت جموعهم، وفشلت تدبيراتهم، يقول عز وجل: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا إِذْ جَاءُوكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا﴾(٣) إلى أن يقول ﴿وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ وَكَانَ اللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا﴾(٤).

وبعد أن تفرقت جموع الأحزاب وردت خائبة، كان لابد من عقاب بني قريظة لغدرهم، فخرج إليهم الرسول صلى الله عليه وسلم وحاصرهم في حصنهم، حتى نزلوا على حكمه، فحكم فيهم سعد بن معاذ حسب رغبتهم، إذ كانوا حلفاء الأوس ومواليهم، وكان حكمه أن تقتل الرجال، وتقسم الأموال، وتسبى الذراري والنساء(٥).

---

(١) انظر تفاصيل غزوة الخندق في السيرة ق ٢ ص ٢١٤ وما بعدها.
(٢) نفسه ص ٢٢٠.
(٣) سورة الأحزاب آيات ٩ - ١٢.
(٤) نفسها آية ٢٥.
(٥) السيرة ق ٢ ص ٢٣٣ - ٢٤٠.

وفى ذلك يقول عز وجل: ﴿ وَأَنزَلَ ٱلَّذِينَ ظَٰهَرُوهُم مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مِن صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَٰرَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُمْ وَأَرْضًا لَّمْ تَطَـُٔوهَا وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرًا ﴾ (١).

كانت غزوة الخندق وما تبعها من الفتك ببني قريظة، مثاراً لأشعار حماسية كثيرة، وخاصة فى الجانب الإسلامى، ومن هذه الأشعار بعض النقائض بين شعراء المسلمين وخصومهم، منها نقيضة ضرار بن الخطاب، التى يفخر فيها بقوة جيشهم وحصارهم للمسلمين فى المدينة، و يبدؤها بقوله : (٢)

ومُشفِقةٍ تظنُّ بنا الظنونا ... وقد قُدْنا عَرَنْدَسةً طَحونا (٣)

كأن زُهاءَها أُحُدٌ إذا ما ... بَدتْ أركانُه للناظرينا

ترى الأبدانَ فيها مُسبِغاتٍ ... على الأبطال واليَلَبَ الحَصينا (٤)

وجُرْداً كالقِداح مُسَوَّماتٍ ... نؤمُّ بها الغُواةَ الخاطِئينا (٥)

فهو يصف ضخامة الجيش، وقوة إعداده بالسلاح والخيل الأصيلة المدربة، وأنهم قادوه لضرب هؤلاء الغواة الخاطئين — أى المسلمين من وجهة نظره — ثم يصف حصارهم حيث يفصل الخندق بينها، فيقول:

كأنهمُ إذا صالُوا وصُلْنا ... ببابِ الخندقَيْن مُصافِحُونا

أناسٌ لا تَرى فيهم رَشيداً ... وقد قالوا ألَسنا راشدينا

فأحجرناهمُ شهراً كَريتاً ... وكنّا فوقَهم كالقاهرينا (٦)

نُراوِحُهم ونَغْدُو كلَّ يومٍ ... عليهم فى السّلاح مُدَجَّجينا

---

(١) سورة الأحزاب آيـة ٢٦، ٢٧.

(٢) السيرة ق ٢ ص ٢٥٤ — ٢٥٥.

(٣) العرندسة: الكتيبة الشديدة القوة. الطحون: التى تطحن كل ما مرت به.

(٤) الأبدان: يريد الدروع. مسبغات: كاملة تغطى الجسم كله. اليلب: الترسة أو الدرق.

(٥) الجرد: الخيل العتاق. القداح: سهام. مسومات: مرسلة أو غالية الأسوام. نؤم: تقصد.

(٦) أحجرناهم: حصرناهم. كريت: كامل.

بأيدينا صوارمُ مُرهَفاتٌ   نَقُدُّ بها المَفارِقَ والشّؤونا

ونراه يتخذ من هذا الحصار دليلاً على قوتهم الظاهرة، ومع أنه لم يستطع أن يدعى نصراً إلا أنه بدا معتزاً بهذا المظهر الذي يضعهم فى الكفة الغالبة، فهم يصولون ويجولون و يغدون عليهم كل يوم مدججين بالسلاح، يهددونهم و يرعبونهم. و يستطرد فى وصف ما يحملونه لهم من سيوف ماضية باترة براقة. ثم يتحدث عن منع الخندق وحمايته لهم من الهلاك والتدمير فيقول:

فلولا خندقٌ كانوا عليه   لدمَّرنا عليهم أجمعينا

ولكنْ حالَ دونهمُ وكانوا   به من خوفنا مُتَعوِّذينا

وأخيراً لا يجد ما يذكره من أضرار أصابوهم بها سوى ما أصاب سعد بن معاذ، فيلجأ إلى الوعيد والتهديد بإعادة الكرة عليهم عما قريب، يقول :

فإن نرحلْ فإنّا قد تَركْنا   لدى أبياتِكم سعداً رَهينا [(1)]

إذا جُنَّ الظلامُ سمعتُ نَوْحَى   على سعدٍ يُرجِّعْن الحَنينا

وسوف نزورُكم عمّا قريبٍ   كما زُرناكمُ مُتَوازرينا

بجمعٍ من كنانةَ غيرِ عُزْلٍ   كأُسْدِ الغابِ قد حَمتِ العَرينا

ويجيب ضراراً كعب بن مالك موازناً فخره الجاهلي بفخر إسلامي تتجلى فيه روح الإيمان بالله ورسوله، والصبر فى مواجهة البغاة الظالمين، والشجاعة فى صدهم دفاعاً عن دار الإسلام ونبيه الكريم. يقول : [(2)]

وسائلةٍ تُسائلُ ما لَقينا   ولو شَهدتْ رأتْنا صابرينا

صَبرْنا لا نرى للهِ عَدْلاً   على ما نابَنا مُتَوكّلينا

وكان لنا النبيُّ وزيرَ صدقٍ   به نَعلُو البَريَّةَ أجمَعينا

---

(1) يشير إلى إصابة سعد بن معاذ سيد الأوس بسهم أدى إلى موته بعد ذلك (انظر التفاصيل فى السيرة ق ٢ ص ٢٢٦).

(2) السيرة ق ٢ ص ٢٥٥ ــ ٢٥٦. وديوان كعب ص ٢٧٩.

نقاتلُ مَعشَراً ظلمُوا وعقُّوا   وكانوا بالعداوة مُرْصِدينا

نعاجلُهم إذا نَهضُوا إلينا   بضربٍ يُعجِلُ المُتسرِّعينا

ويستطرد فى وصف استعدادهم بالسلاح، وشجاعتهم فى مجالدة الأعداء، لمنعهم من اختراق الخندق، فيقول :

ترانا فى فضافضَ سابغاتٍ   كغُدرانِ المَلا مُتَسَرْبلينا[1]

وفى أيمانِنا بيضٌ خِفافٌ   بها نَشفي مِراحَ الشَّاغِبينا

بباب الخندقين كأن أُسْداً   شَوابِكُهنّ يحمينَ العَرينا

فوارسُنا إذا بكَرُوا وراحُوا   على الأعداءِ شُوساً مُعْلَمِينا[2]

ويبين عن الغاية من هذا الجهاد، وهى نصرة دين الله ورسوله، وليعلم هؤلاء الأحزاب حقيقة التوحيد لله وبطلان الشرك به، فيقول:

لننصرَ أحمداً واللهَ حتى   نكونَ عبادَ صدقٍ مُخلِصينا

ويعلمَ أهلُ مكةَ حيثُ ساروا   وأحزابٌ أتَوْا مُتحزِّبينا

بأن اللهَ ليس له شريكٌ   وأن اللهَ مولَى المؤمنينا

أما فخر ضرار بإصابة سعد بن معاذ، وتهديده بإعادة الكرة بعد رحيلهم، فينقضه كعب بما أعده الله لسعد من جنان طيبات، وبأن رحيلهم لم يكن إلا خزياً من الله لهم، وتأكيداً لقدرته على تسليط الريح عليهم، كما بينت آياته المنزلات، وفى ذلك يقول :

فإما تقتُلُوا سعداً سِفاهاً   فإن اللهَ خيرُ القادرينا

---

(١) فضافض: دروع واسعة. الملا: المتسع من الأرض. متسربلون: لابسون الدروع.

(٢) شوس: جمع أشوس. وهو الذى ينظر بمؤخر عينه كالمتكبر. المعلم: الذى أعلم نفسه بعلامة فى الحرب ليشتهر بها.

سيُدخِلُه جناناً طَيِّباتٍ ... تكونُ مُقامةً للصالحينا
كما قد رَدَّكم فلاً شريداً ... بغيظكُمُ خَزَايا خائبينا[1]
خَزَايَا لم تنالوا ثَمَّ خيراً ... وكِدتمْ أن تكونوا دامِرينا
بريحٍ عاصفٍ هبّتْ عليكمْ ... فكنتمْ تحتَها مُتكَمِّهينا[2]

والملاحظ على هاتين النقيضتين أن كلا من الشاعرين قد التزم بأحداث غزوة الخندق، لم يكد يعدوها، وإن وجهها كل منهما توجيهاً يتلاءم مع موقفه وموقف الجبهة التى ينتمي إليها، فيما يؤمن به ويحارب من أجله.

ومن النقائض التي قيلت فى غزوة الخندق أيضاً قصيدة عبد الله بن الزبعري،[3] التي مطلعها :

حتى الديارَ محا معارِفَ رَسْمِها ... طُولُ البِلَى وتراوحُ الأحقابِ

إذ يبدؤها بمقدمة تقليدية فى أربعة أبيات، يصف فيها الأطلال ورسوم الديار التى عفت، و يذكر ماضي الحياة فيها، من نعمة ولهو مع الأوانس الأتراب، ثم ينتقل إلى وصف الجموع التى خرجت من مكة قاصدة يثرب، فيقول:

واذكر بلاءَ معاشرٍ وأشكرْهمُ ... ساروُا بأجمعهم من الأنصاب[4]
أنصابِ مكةَ عامدين ليثربٍ ... فى ذي غياطلَ جَحْفلٍ جَبْجاب[5]
يدَعُ الحزونَ مناهِجاً معلومةً ... فى كل نَشْزٍ ظاهرٍ وشِعاب[6]
فيها الجيادُ شَوازِبٌ مجنوبةٌ ... قُبُّ البطونِ لَوَاحقُ الأقْراب[7]

(١) الفل: القوم المنهزمون.
(٢) متكمهون: عمى لا يبصرون.
(٣) السيرة ق ٢ ص ٢٥٧ ــ ٢٥٨.
(٤) الأنصاب: حجارة كانوا يذبحون لها و يعظمونها. أو هى الحجارة التى يعلم بها الحرم.
(٥) ذو غياطل: جيش كثير الأصوات. والغياطل: جمع غيطلة وهى الصوت. جحفل جبجاب: ضخم كثير العدد.
(٦) الحزون: جمع حزن وهو ما ارتفع من الأرض، وكذلك معنى نشر ونشز.
(٧) شوازب: ضامرة. مجنوبة: مقودة. قب: ضامرة. الأقراب: الخاصرة وما يليها.

من كلِّ سَلْهَبةٍ وأجردَ سلهبٍ   كالسِّيدِ بادرَ غفلةَ الرُّقَّاب[1]

فهو بذكره أنصاب مكة يعلن تمسكهم بدين الشرك الذي يناضلون من أجله، ويبدي تفاخره بجيشهم الضخم الجرار، وخيله العتاق الأصيلة. ثم يتبع ذلك مشيداً بقائديه عيينة بن حصن الفزاري، وصخر بن حرب القرشي، فيقول:

جيشٌ عُيَيْنةُ قاصدٌ بلوائه   فيه وصخرٌ قائدُ الأحزاب

قِرْمان كالبدرَيْن أصبحَ فيهما   غيثُ الفقيرِ ومَعْقِلُ الهُرَّاب

وينتهي ابن الزبعري إلى حصار المدينة، ومنع الخندق لهم، فيقول:

حتى إذا وَرَدُوا المدينةَ وارتَدَوْا   للموتِ كلَّ مُجَرَّبٍ قَضَّاب

شهراً وعشراً قاهرينَ محمداً   وصِحابُه في الحرب خيرُ صِحاب

نادُوا برحلتِهِمْ صبيحةَ قُلْتُمُ   كدنا نكونُ بها مع الخُيَّاب

لولا الخنادقُ غادَرُوا من جَمعِهِمْ   قَتْلَى لطيرٍ سُغَّبٍ وذئاب

فهو لم يزد عن ذكر استعدادهم للقاء الموت حين وردوا المدينة، وأنهم حاصروها أربعين يوما قاهرين محمداً صلى الله عليه وسلم وصحبه، مع ما عرفوا به من بطولة في الحرب. حتى نودي بارتحالهم دون أن يحققوا هدفهم، فكادوا يكونون مع الخائبين، كما يقول المسلمون، ولكن لولا تلك الخنادق لفتكوا بهم وأهلكوهم. وكأن ابن الزبعري قد أرتج عليه فلم يجد شيئاً يقوله عن هذه المعركة أكثر مما قال، وهو بذلك يبدو أقل توفيقاً من ضرار بن الخطاب في نقيضته التي عرضنا لها، والتي كان فيها أكثر تفصيلاً وأدق تناولاً لهذا الجانب من القصيدة.

وقد أجاب حسان ابن الزبعرى بنقيضته التى يقول فى مطلعها: [2]

هل رسمُ دارسةِ المقام يَبابِ   مُتَكلِّمٌ لمُحاورٍ بجوابِ

---

(١) السلهبة: الطويلة. السيد: الذئب.

(٢) السيرة ق ٢ ص ٢٥٨. وديوان حسان ص ١١٩ مع اختلاف فى بعض الألفاظ.

فهو يبدؤها بمقدمة تقليدية مماثلة لمقدمة قصيدة ابن الزبعري، من أربعة أبيات، يصف فيها الأطلال الدارسة، ويذكر أهلها الذين كانوا يعمرونها. ثم يخرج من هذه المقدمة إلى الحديث عن جيش المشركين فيقول:

واشكُ الهُمومَ إلى الإلهِ وما ترى … من معشرٍ ظَلمُوا الرسولَ غِضاب

ساروا بأجمعهم إليه وألَّبُوا … أهلَ القُرى وبوادِيَ الأعراب

جيشٌ عُيَيْنةُ وابنُ حربٍ فيهمُ … مُتَخمِّطون بحَلبة الأحزاب[1]

فنراه يقابل تفاخر ابن الزبعري بقوة هذا الجيش، بالشكوى إلى الله من هؤلاء القوم الباغين، الذين جمعوا تلك الجموع، وألبوا أهل القرى والبوادي للعدوان على رسوله الكريم. ثم ينتقل إلى الحديث عما صار إليه أمرهم بعد ورودهم المدينة، فيقول:

حتى إذا وردُوا المدينةَ وارتجَوْا … قتلَى الرسولِ ومَغْنمَ الأسلاب

وغدَوْا علينا قادرين بأيدِهم … رُدُّوا بغيظِهم على الأعقاب

بهُبوب مُعْصفةٍ تُفَرِّقُ جمعَهم … وجنودِ ربِّك سيِّدِ الأرْباب

فكفَى الإلهُ المؤمنين قتالَهم … وأثابَهم فى الأجر خيرَ ثَواب

من بعد ما قَنَطُوا ففرّق جمعَهم … تنزيلُ نصرِ مليكِنا الوهاب

وأقرَّ عينَ محمدٍ وصِحابَه … وأذلَّ كلَّ مكذِّبٍ مُرتاب

عاتى الفؤادِ مُوقَّع ذى ريبةٍ … فى الكفرِ ليس بطاهِر الأثواب[2]

علقَ الشقاءُ بقلبه فأرانَه … فى الكفرِ آخرَ هذه الأحقاب

---

(١) متخمطون: مختلطون. ويقال: المتخمط: الشديد الغضب المتكبر. الحلبة: جماعة الخيل التى تعد للسباق.

(٢) موقع: ذو هيب، وأصله من التوقيع فى ظهر الدابة، وهو انسلاخ يكون فيه.

ومن الواضح أن حسان فى هذا الجزء من نقيضته، يقتبس معانيه من آيات سورة الأحزاب، لا يكاد يخرج عنها. بل نراه أشد تأثراً بها من كعب بن مالك فى نقيضته التى عرضنا لها، رداً على نقيضة ضرار بن الخطاب. ولعل تفسير ذلك يرجع إلى ما عاناه المسلمون فى تلك الفترة العصيبة حتى جاءهم نصر الله، فكانت معجزة عايشوها وأشربت قلوبهم بها، فلم يستطع حسان منها فكاكاً، خاصة وأنه لم يكن محارباً مثل كعب. ولم يقف مع المجاهدين على الخندق لصد الأعداء، لأن كبر سنه كان يحول دون ذلك ومن ثم كان تأثره بآيات المعجزة أكثر من تأثره بالموقف الجهادي، بينما جمع كعب بين الاثنين.

ونجد لكعب نقيضة مماثلة يرد بها أيضا على ابن الزبعري، ومطلعها[(١)] :

أبقى لنا حدثُ الحروب بقيةً من خير نِحلةِ ربنا الوهاب

ونراه ينتهج فيها نهجاً مغايراً لنهج ابن الزبعري أو حسان، فلا يبدأ بمقدمة تقليدية مثلهما. كما يدخل بعد هذا المطلع مباشرة فى تفاصيل ما أبقاه حدث الحروب لهم من نحلة الله وعطائه، فيذكر الإبل وضخامتها وما تدره من خير يعمهم فى بيتين، ثم يذكر الخيل فى وصف مسهب من ستة أبيات، يتناول فيها أوصاف أصالتها وقوتها، وسرعتها وحسن تدريبها على خوض المعارك. ويتبع ذلك بوصف أسلحة الحرب من دروع وسيوف ورماح، ووصف كتيبتهم وأبطالها فى ثمانية أبيات، نذكر منها قوله:

وصوارمٍ نَزع الصَّيَاقلُ غُلبَها وبكلِّ أروعَ ما جدِ الأنساب[(٢)]
يصلُ اليمينَ بمارنٍ مُتقاربٍ وُكِلتْ وقيعتُه إلى خبَّاب[(٣)]
وكتيبةٍ ينفى القِرانَ قَتيرُها وتَردُّ حدَّ قَواحذِ النُّشَّاب[(٤)]

---

(١) السيرة ق ٢ ص ٢٥٩ وديوان كعب ص ١٧٨.

(٢) صوارم: سيوف قاطعة. الصياقل: جمع صيقل وهو شحاذ السيوف وجلاؤها. غلبها: خشونتها وما يعلوها من الصدأ.

(٣) مارن: رمح لين. وقيعته: صنعته. خباب: اسم قين.

(٤) القران: تقارن النبل واجتماعه. القتير: مسامير حلق الدرع. قواحذ النشاب: النبال التى تصيب الأفخاذ.

جَـاْوَى مُـلَـمْـلَـمـة كـأن رمـاحَـهـا فـى كـلّ مَـجْـمـعـة ضَرِيمةُ غاب[1]
أعـيـت أبـا كـرب ٍوأعـيـتْ تُـبَّـعـاً وأبـت بـسـالـتُـهـا عـلـى الأعـراب

وقد قصد كعب بهذه الإفاضة فى وصف الإبل والخيل والسلاح والجيش، أن يقابل فخر ابن الزبعرى بجموع الأحزاب فى نقيضته، وأن يتفوق عليه تفوقاً ظاهراً لا يحتاج إلى مقارنة. ثم انتهى من ذلك إلى ذكر آيات الله المحكمة فى غزوة الخندق، والتي يهتدي بها المؤمنون، ولايفهمها المشركون، فيقول:

ومَـواعِـظٌ مِـنْ رَبِّـنـا نُـهْـدَى بها بِـلـسـانِ أزهـرَ طـاهـرِ الأثـواب
عُـرِضـتْ عـلـيـنـا فـاشتهيْنا ذِكْرَها مـن بعد ما عُرِضتْ على الأحزاب
حِكمـاً يـراهـا المجـرمـون بـزَعْـمـهـم حَـرجـاً ويـفـهـمُـهـا ذوُو الألـبـاب
جـاءت سَـخـيـنـةُ كىْ تُغالبَ ربَّها فـلَـيُـغْـلَـبـنَّ مُـغـالِـبُ الـغَـلاَّب[2]

لقد تجاوز كعب تفاصيل أحداث الخندق وما نزل فيها من آيات، إلى ما وراءها من حكمة بالغة، ولخص الأمر كله فى حقيقة واضحة وهي أن قريشاً إنما جاءت لتغالب ربها. ولابد أن يغلب الله كل من يغالبه. فكان قوله هذا هو فصل الخطاب، الذى جعل الرسول صلى الله عليه وسلم يقول فيه: «لقد شكرك الله يا كعب على قولك هذا»[3].

أما ما حدث لبني قريظة، فقد تناوله الشعراء المسلمون فى عدد من قصائدهم، ولكن النقائض فيها قليلة محصورة، لا تتجاوز أبياتاً قالها حسان، فرد عليه فيها أبو سفيان بن الحارث من قريش، وجبل بن جوال الثعلبي من يهود. قال حسان :[4]

(١) جاوى: (أصلها جأواء وقصرت للضرورة) وهى التى يخالط سوادها حمرة. ململمة: مجتمعة. ضريمة: لهب متوقد.
(٢) سخينة: لقب قريش فى الجاهلية. وذكروا أن قصياً كان إذا ذبح ذبيحة أو نحر نحيرة بمكة، أتى بعجزها فصنع منه خزيرة — وهو لحم يطبخ ببر — فيطعمه الناس، فسميت قريش بذلك سخينة. وقيل إن العرب كانوا إذا أسنتوا أكلوا العلهز — وهو الوبر والدم — وتأكل قريش الخزيرة. فنفست عليهم ذلك، فلقبوهم سخينة. (الروض الأنف).
(٣) السيرة ق ٢ ص ٢٦١.
(٤) نفسه ص ٢٧٢. وديوان حسان ص ٢٥٣، بنقص البيت الأخير.

تفاقد معشرٌ نصروا قريشاً ... وليس لهم ببلدتهم نصيرُ

همُ أُوتُوا الكتابَ فضيَّعوه ... وهم عُمْيٌ من التَّوراة بُور

كَفرتم بالقُران وقد أُتِيتُمْ ... بتصديق الذى قال النّذير

فهان على سراةِ بنى لُؤيّ ... حريقٌ بالبُوَيْرةِ مُسْتَطِير[1]

فهو يربط بين خزيهم وهلاكهم وبين نصرتهم لقريش، التى خذلتهم وهان عليها أمرهم، ليحملها بذلك عاراً يصمها، ويحط من قدرها. هذا إلى توجيه ما حل بهم توجيهاً إسلامياً، إذ جعله نتيجة تضييعهم ما جاء فى توراتهم من نبأ عن بعث محمد صلى الله عليه وسلم، وأمر الله لهم باتباعه، ولكفرهم به وبما أنزل إليه من قرآن يذكرهم و ينذرهم.

وقد أجابه أبو سفيان بن الحارث، ردا على ما في أبياته من تعريض بقريش فقال :

أدام اللهُ ذلك من صَنيعٍ ... وحرَّق فى طرائقِها السّعيرُ

ستعلمُ أيُّنا منها بُنُزهٍ ... وتعلمُ أيُّ أرضينا تَضِير

فلو كان النخيلُ بها رِكاباً ... لقالوا لا مُقَامَ لكم فسِيرُوا

فقد عمد إلى قلب الموقف، مبرئاً قريشاً من سوء هذا العمل، وملحقاً إياه بالأنصار، أو بالأوس منهم خاصة، لتفريطهم فى حق حلفائهم، ومدعياً أن الضرر الناتج عنه، لن يصيب قريشاً منه شيء، وإنما يقع كله على الأنصار، لأنهم أحرقوا النخيل وخربوا الديار التى كانت مجاورة لهم ثم آلت إليهم، وهو بجدله هذا يتغافل متعمداً ما أثاره حسان، ويحول القضية إلى اتجاه آخر.

أما مناقضة ابن جوال اليهودي[2] لحسان فيما قاله، فقد قامت على لوم الأوس ومعايرتها لخذلانها حلفاءها ومواليها، على عكس ما فعلت الخزرج. و بكاء قومه

(١) البويرة: موضع بني قريظة.
(٢) كان جبل بن جوال هذا من بنى ثعلبة الذبيانيين. وكان يهودياً ثم أسلم، وكانت له صحبة (راجع الروض والاستيعاب).

والإشادة بأمجادهم ومكارمهم التي عرفوا بها وخلد ذكرها، حيث يقول :[1]

ألا يا سعدُ سعدَ بنى مُعاذٍ	لما لقيت قُريظةُ والنضيرُ
لعمرك إن سعدَ بنى مُعاذٍ	غداة تحمَّلوا لهو الصَّبور
فأمّا الخزرجيُّ أبو حُباب	فقال لقينقاع لا تسيروا
وبُدِّلت الموالي من حُضير	أسيداً والدوائر قد تدُور
وأقفرتِ البويرةُ من سلامٍ	وسعيةَ وابنِ أخطبَ فهى بُور
وقد كانوا ببَلْدتهم ثِقالاً	كما ثقُلت بمَيْطان الصخور[2]
فإن يَهْلك أبو حكمٍ سلامٌ	فلا رثُّ السلاح ولا دَثُور
وكلُّ الكاهنين وكان فيهم	مع اللِّين الخضارمةُ الصُّقور
وجدنا المجدَ قد ثبتُوا عليه	بمجد لا تُغيِّبه البُدور
أقيموا يا سراةَ الأوس فيها	كأنكم من المَخْزاةِ عُور
تركتم قِدْرَكم لاشيء فيها	وقِدْرُ القوم حاميةٌ تفور

ولعل ابن جوال يظن أنه بهذه المعايرة للأوس، ومقارنة فعلها بفعل الخزرج التي حمت حلفاءها من قينقاع والنضير من قبل، حيث تصدى لهم ابن سلول رأس النفاق، لعله يظن بذلك أنه يمكن أن يثير فتنة بين الأنصار، دون وعي منه لمتغيرات الأحوال والأسباب، ودون إدراك للأثر الكبير، الذى أحدثه الإسلام فى نفوسهم، فلم تعد تثيرها تلك القيم الجاهلية.

من هذا العرض للنقائض الشعرية فى هذه المرحلة يتبين لنا أنها طبعت بطابع أحداثها، وصورت مواقف العداء الجماعي للإسلام، وما جابهها من قوة الإيمان وازدياد العمق الروحي مع شدة البلاء والابتلاء. هذا إلى ما رأيناه من دخول شعراء جدد فى تلك الحرب اللسانية.

(١) السيرة ق ٢ ص ٢٧٣ — ٢٧٤.

(٢) ميطان: جبل من جبال المدينة مقابل الشوران، به بئر ماء (راجع معجم البلدان).



الفصل الخامس

النقائض في مرحلة الفتح والانتشار

(قبل فتح مكة وبعده)

كانت غزوة الخندق وما تبعها من القضاء على بني قريظة، من الأحداث الفاصلة، التى ثبتت دعائم الإسلام، وأمنت وجوده فى المدينة تأميناً كاملاً، إذ طهرت جيوبها وما جاورها من كل أثر لليهود. وتطايرت أنباء هذا النصر الإلهي — على جموع الشرك التى تكالبت على الإسلام — فى أرجاء الجزيرة، فكانت دعاية قوية له، وتأييداً لدعوة الحق التى جاء بها رسوله الأمين وأخذت القلوب تتفتح لقبول هذا الدين، والأذهان تتهيأ للاقتناع به، والمسلمون يتزايد عددهم يوماً بعد يوم.

واستمرت الغزوات والسرايا، لتأمين دار الإسلام والذود عن حماها، وللانتقام من أعداء الله، الذين كان لهم دور بارز فى العدوان على الإسلام، أو الذين يحاولون الإعداد لمحاربته، ولم يكن فى هذه الأحداث مجال لمناقضات شعرية، ولذا نكتفي بهذه الإشارة العابرة إليها، دون تفصيل الحديث عنها.

ونصل إلى الحديبية فى السنة السادسة للهجرة، حيث خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم معتمراً لا يريد حرباً في شهر ذي القعدة، ولكن قريشاً رفضت دخوله مكة، وانتهى الأمر إلى صلح وعقد هدنة بين الطرفين لمدة عشر سنين، يأمن فيهن الناس ويكف بعضهم عن بعض، على أنه من أتى محمداً من قريش بغير إذن وليه رده عليهم، ومن جاء قريشاً ممن مع محمد لم يردوه عليه، وأن يرجع عنهم هذا العام، فلا يدخل عليهم مكة، وفى العام القابل يخرجون عنها ليدخلها بأصحابه فيقيم بها ثلاثاً. ودخلت خزاعة فى عقد محمد وعهده، بينما دخلت بنو بكر فى عقد قريش وعهدهم[1].

(١) انظر تفاصيل الحديبية بالسيرة ق ٢ ص ٣٠٨ وما بعدها.

وأعقب هذا الصلح مجيء أبي بصير عتبة بن أسيد الثقفي إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم بالمدينة مسلماً، وكان من المستضعفين الذين حبسوا بمكة، ولكن قريشاً أرسلت في طلبه رجلاً من بني عامر بن لؤى ومعه مولى لهم، فأشار الرسول صلى الله عليه وسلم على أبي بصير بأن ينطلق معهما إلى قومه، حتى يجعل الله له ولأمثاله فرجاً ومخرجاً. فانطلق معهما، حتى إذا كانوا بذي الحليفة، قتل أبو بصير العامري وأفلت، ثم نزل العيص من ناحية المروة على ساحل البحر[1].

فلما بلغ سهيل بن عمرو قتل أبى بصير صاحبهم العامري، أسند ظهره إلى الكعبة، ثم قال: والله لا أؤخر ظهري عن الكعبة حتى يودى هذا الرجل، فقال أبو سفيان بن حرب: والله إن هذا لهو السفه، والله لا يودى (ثلاثاً) ، فقال فى ذلك موهب بن رياح أبو أنيس الاشعري، حليف بنى زهرة :[2]

أتاني عن سُهَيْلٍ ذَرْءُ قولٍ ... فأيقظني وما بيَ من رُقادِ[3]

فإن تكن العِتابَ تريدُ منّي ... فعاتبْني فما بك من بِعادى

أتُوعدني وعبدُ مَناف حَوْلى ... بمخزومٍ ألَهْفاً مَنْ تُغادى

فإن تَغْمِزْ قَناتى لا تَجِدْنى ... ضعيفَ العُود فى الكُرَب الشِّداد

أُسامى الأكرمين أباً بقومى ... إذا وَطِئَ الضعيفُ بهم أُرادى[4]

همُ مَنعُوا الظواهرَ غيرَ شكٍّ ... إلى حيثُ البَواطِنُ فالعَوَادى[5]

بكل طِمِرَّةٍ وبكلّ نَهْدٍ ... سَوَاهمُ قد طُوِينَ من الطِّراد[6]

---

(١) نفسه ص ٣٢٣ ــ ٣٢٤.
(٢) نفسه ص ٣٢٤.
(٣) ذره: طرف.
(٤) أرادى: أرامي.
(٥) الظواهر: ماعلا من مكة. والبواطن: ما انخفض منها. والعوادى: جوانب الأودية.
(٦) الطمرة: الفرس الوثابة السريعة. نهد: غليظ. سواهم: عوابس متغيرة. طوين: ضمرن.

لهمْ بالخَيْف قد علِمتْ مَعَدٌّ رِواقَ المجد رُفّع بالعِماد

ويفهم من سياق الأحداث أن أبا بصير الثقفي كان حليفاً لبني زهرة، لأن الذى أرسل فى طلبه هو أزهر بن عبد عوف الزهري، والأخنس بن شريق الثقفي حليفهم أيضاً، كما يفهم أيضاً أن سهيل بن عمرو طالب بني زهرة بدية العامري، وهذا ما دعا موهباً للرد عليه بهذه الأبيات، التى توحى بأن الأمر كان قد وصل إلى حد النزاع، وأن بني مخزوم كانوا فى جانب سهيل وبني عامر، بينما وقف بنو عبد مناف فى جانب زهرة، وأن سهيلاً هدد وتوعد، فسخر موهب من تهديده ووعيده، متفاخراً بنفسه وبقومه ومن معهم.

وتصدى ابن الزبعري للرد على أبي أنيس موهب بن رياح بأبيات يقول فيها:[1]

وأمسى مَوْهبٌ كحِمار سَوْء أجاز ببلدةٍ فيها يُنادِى

فإن العبدَ مِثلك لا يُناوِى سُهيلاً ضلَّ سعيُك من تُعادى

فأقصِرْ يابن قين السُّوء عنه وعدِّ عن المقالةِ فى البلاد

ولا تذكُر عتابَ أبى يزيد فهَيْهات البحورُ من الثِّماد[2]

فقد تجاوز ابن الزبعري فى مناقضته ذكر هذا النزاع بين بطون قريش ــ والذى أثاره موهب فى أبياته ــ لأنه وجد فى إثارته تفتيتاً لوحدة قريش، وهو أمر فى غير صالحها. ولذا نراه يركز على هجاء موهب والحط من قدره، فهو حليف تابع كالعبد، ولا ينبغي له أن يناوئ سيداً من أشراف قريش، فشتان بين الاثنين.

ونلاحظ أن المناقضة الشعرية هنا قامت بين شاعرين من جبهة واحدة، هى جبهة الشرك، وأن الجبهة الأخرى ــ أى الإسلامية ــ لم يشر إليها من قريب أو من بعيد، مع أن القاتل مسلم، وهو سبب هذه المشكلة أصلاً، وتعليل ذلك واضح، إذ أن جبهة

(١) السيرة ق ٢ ص ٣٢٥.
(٢) الثماد: الماء القليل.

الإسلام غير مسئولة عن هذا القتل، فهو عمل فردي حدث بعيداً عنها، ثم إن ما تم من صلح معها، قد أخمد جذوة العداء ـــ إلى حد ما ـــ وليس من صالح قريش أن توقدها من جديد.

وبعد صلح الحديبية رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم أن وجود اليهود فى خيبر، سيظل مصدر خطر على الإسلام، فبادر بغزوهم بعد حوالي شهر ونصف من الحديبية. فافتتح حصونهم حتى إذا كان حصاره لآخرها، خرج إليهم مرحب اليهودى، قد جمع سلاحه، يرتجز وهو يقول :[1]

قد عَلِمتْ خيبرُ أنى مَرْحَبُ شاكى السّلاح بطلٌ مُجرَّبُ
أطعنُ أحياناً وحيناً أضرِبُ إذا الليوثُ أقبلَتْ تَحَرَّب[2]
إن حِماىَ لِلحِمَى لا يُقْرَب يحجمُ عن صولتىَ المجرِّب

وهو يقول: من يبارز ؟ فأجابه كعب بن مالك، فقال :[3]

قد علمت خيبرُ أنى كعبُ وأننى متى تُشَبُّ الحرب
ماضٍ على الهولِ جَرىءٌ صُلْب معى حسامٌ كالعَقيق عَضْب[4]
بكفّ ماضٍ ليس فيه عَتْبُ نَدُكُّكمْ حتى يذِلَّ الصَّعْب

وهذه المناقضة بالرجز كانت تهدف إلى إثارة حمية المحارب، وبعث الخوف فى نفس خصمه قبل بدء معركة المبارزة، فهى حرب نفسية يستخدم فيها المحاربون الرجز، وهو البحر الشعري الشعبي عند العرب، حيث يسهل النظم عليه لتوازن تفعيلاته وتماثلها. وكانت هذه المراجزة من عاداتهم المألوفة فى الحروب، وإن لم نجد منها إلا هذا النموذج الوحيد فى حروب السيرة ومناقضاتها الشعرية.

---

(١) السيرة ق ٢ ص ٣٣٣.
(٢) تحرب: أى مغضبة.
(٣) السيرة ق ٢ ص ٣٣٣ وديوان كعب ص ١٨٣. وهناك رواية أخرى للأبيات عن ابن اسحاق، فيها بعض الاختلاف فى الألفاظ وترتيب الأبيات.
(٤) العقيق: شعاع البرق، شبه به السيف. عضب: قاطع.

وتتابعت الأيام والشهور، وأمر الإسلام يزداد مع كل يوم منها تثبيتاً واستتباباً، ويكثر المقبلون عليه من القبائل، حتى من قريش نفسها، وتظهر القوة الإسلامية في الجرأة على مجابهة الروم في غزوة مؤتة[1]، وإذا لم يكن تحقق فيها نصر عسكري، فإنها قد حققت نصراً معنوياً في كسر حاجز الرهبة والخوف، الذي تلبست به نفوس العرب زمناً طويلاً، إزاء هذه القوة الجبارة.

ولم يكد يمضي شهران على بعث مؤتة، حتى تهيأت الظروف والأسباب الموجبة لفتح مكة. ذلك أنه كانت بين خزاعة وبني بكر بن عبد مناة بن كنانة دماء وثارات قديمة قبيل الإسلام، ولكن الإسلام حجز بينهما، لتشاغل الناس به. فلما كان عهد الحديبية، ودخولهما فيه ـــ كما عرفنا ـــ اغتنم بنو الديل من بكر فرصة الهدنة، فأغاروا على خزاعة وبيتوهم، وهم على ماء لهم بالوتير أسفل مكة، ورفدت قريش بني بكر بالسلاح وأعانوهم خفية، حتى أدخلوا خزاعة مكة، فلجأت إلى دار بديل ابن ورقاء الخزاعي ودار مولى لهم يقال له رافع[2]. فقال الأخزر بن لعط الديلي مفتخراً بما أوقعه قومه بخزاعة في هذا اليوم[3]:

ألا هلْ أتى قُصوى الأحابيشِ أنّنا	رَدَدْنا بني كعبٍ بأفْوقَ ناصلِ[4]
حَبَسْناهمُ في دارةِ العبدِ رافعٍ	وعند بُدَيْلٍ مَحبِساً غيرَ طائِلِ
بدارِ الذليلِ الآخذِ الضَّيْمَ بعد ما	شفَيْنا النفوسَ منهمُ بالمناصِلِ
حبسناهمُ حتى إذا طال يومُهم	نفَحْنا لهمْ من كل شِعبٍ بوابِلِ[5]
نُذَبّحهمْ ذَبْحَ التُّيوسِ كأننا	أسودٌ تَبارَى فيهمُ بالقَواصِلِ[6]

---

(١) انظر تفاصيل الغزوة في السيرة ق ٢ ص ٣٧٣ وما بعدها.

(٢) نفسه ص ٣٨٩ ـــ ٣٩٠.

(٣) نفسه ص ٣٩٢.

(٤) الأحابيش: كل من حالف قريشاً ودخل في عهدها من القبائل. أفوق: السهم الذى انكسر فوقه وهو طرفه. ناصل: الذى زال نصله. يريد أنها ردت خائبة.

(٥) نفحنا: وسعنا. الوابل: المطر الشديد، وأراد به هنا دفعة الخيل.

(٦) القواصل: القواطع، يريد أنياب الأسود.

هـمُ ظَـلـمونا واعتَدَوْا فى مَسيرهِم   وكـانـوا لدَى الأنصابِ أولُ قاتل [1]

كـأنهـمُ بـالـجِـزْع إذ يـطـردُونهـم   بـفـائـورَ حُـفّانُ النعامِ الجَوَافِل [2]

ونراه يصف أحداث الوقعة كما ذكرتها مصادر التاريخ. ولكنه يقرن هذا الوصف بفعلهم الانتقامي من خزاعة، مبدياً فخره واعتزازه لأخذهم بثأرهم منها، معلناً هذا الأمر لتعلمه القبائل، وليمحى ما كان لاحقاً بهم من عار، معللاً هذا الانتقام بأنه رد على ظلم سابق من خزاعة بقتلها أشرافهم.

ويجيبه على هذه الأبيات شاعر من خزاعة، هو بُدَيْل بن عبد مناة، المعروف ببديل بن أم أصرم، فيكذبه فيما ادعاه، و يتفاخر عليه، ويهجو قومه، يقول: [3]

تَـفـاقَـد قـومٌ يـفـخـرون ولم نَـدَعْ   هـم سـيِّـداً يَـنْـدُوهُـمُ غـيرَ نافِلِ [4]

أمِـنْ خِـيـفَـةِ الـقـومِ الألَـى تَزدَرِيهمُ   تُـجـيـزُ الـوَتـيـرَ خائفاً غيرَ آئِل [5]

وفـى كـلِّ يـومٍ نحـن نحـبُـو حِـبـاءنـا   لعَقْلٍ ولا يُحْبَى لَنا فى المعَاقِل [6]

ونحـن صـبَـحْـنـا بـالـتَّـلاعـةِ دارَكـمْ   بـأسـيـافـنـا يَسْبِقْن لوْمَ العَوَاذل [7]

ونحـن مَـنـعْـنـا بين بَـيْـض وعـتْـوَدٍ   إلى خَيْف رَضْوَى من مَجَرِّ القَنابل [8]

ويـومَ الـغَـميم قـد تَـكـفَّـتَ سـاعـياً   عُـبَـيْـسٌ فجَعْناه بجَلْدٍ حُلاحل [9]

---

(١) يشير إلى قتل خزاعة لبني الأسود بن رزن الديلي بعرفة عند أنصاب الحرم (انظر السيرة ق ٢ ص ٣٨٩).

(٢) الجزع: ما انعطف من الوادى. فائور: اسم موضع. حفان النعام: صغارها. الجوافل: المولية المسرعة.

(٣) السيرة ق ٢ ص ٣٩٣.

(٤) يندوهم: يجمعهم فى الندى، وهو المجلس.

(٥) الوتير: اسم ماء لخزاعة بأسفل مكة، وعنده قامت الوقعة بين القبيلتين. غير آئل: غير راجع.

(٦) نحبو: نعطى. العقل: الدية.

(٧) التلاعة: ماء لبني كنانة بالحجاز. يسبقن لوم العواذل: يشير إلى المثل المعروف «سبق السيف العذل».

(٨) بيض: من منازل كنانة، وعتود: ماء لهم. الخيف: ما انحدر من الجبل. رضوى: جبل بالمدينة. القنابل: جمع قنبلة، وهى القطعة من الخيل.

(٩) الغميم: موضع بين مكة والمدينة. تكفت: حاد عن طريقه. عبيس: رجل من كنانة. حلاحل: سيد.

أأنْ أجْمرَتْ في بيتها أمُّ بعضكم بجُعْمُوسها تَنْزُون أنْ لم نُقاتل[1]

كذبْتُمْ وبيتِ اللهِ ما إن قَتلْتمُ ولكن تَركْنا أمرَكمْ في بَلابل[2]

فهو يعرض حادث الوتير الذى افتخر به الأخزر بصورة مختلفة تماماً، إذ يذكره دليلاً على خوفهم من خزاعة، ويكذب ادعاءه بقتلهم رجالها. وهو لايقف عند هذا الحادث، وإنما يذكر أحداثاً وأياماً أخرى سابقة كان لقومه النصر فيها على كنانة، إذ قتلوا سادتها وأشرافها، وبذلك ينقض فخره بفخر أقوى، بل يشفع هذا الفخر بالسخرية بهم وهجائهم والنيل من نسائهم.

وهاتان النقيضتان جاهليتان فى كل عناصرهما، وليس فيهما شيء يمس الصراع القائم بين الإسلام والشرك، إذ تدوران حول نزاع بين القبيلتين، له جذوره القديمة. ولكن هذا الحدث الذي قامت عليه النقيضتان، وثيق الصلة بمسيرة السيرة، لأنه كان نقضاً لعهد الحديبية، الذي دخلت فيه هاتان القبيلتان، ومن ثم كان سبباً رئيسياً لقيام الرسول صلى الله عليه وسلم بنصر خزاعة حليفته، وفتح مكة بناء على ذلك.

فبعد وقعة الوتير هذه، أسرع عمرو بن سالم الخزاعي بالذهاب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فى المدينة، فأنشد بيه يديه رجزاً[3]، يستنصره فيه على قريش وبكر، لنقضهما العهد، فما كان منه إلا التلبية، وأمر بالإعداد للفتح، ولم يثنه عن هذا الأمر مجىء أبى سفيان إليه، محاولاً إصلاح مافسد وتأكيد العهد. وخرج الرسول صلى الله عليه وسلم على رأس جيش ضخم من المسلمين، قاصداً مكة فى شهر رمضان من السنة الثامنة للهجرة. وتم الفتح دون قتال إلا بعض مناوشات يسيرة، ودخل أهل مكة فى الإسلام، وعفا رسول الله صلى الله عليه وسلم عنهم عفوه المشهور، إذ قال لهم: «**اذهبوا فأنتم الطلقاء**»[4].

---

(١) أجمرت: رمت بسرعة. الجعموس: العذرة. يصف ما أصابهم وأصاب نساءهم من الفزع والهلع.

(٢) البلابل: اختلاط الهم ووساوسه.

(٣) انظره فى السيرة ق ٢ ص ٣٩٤.

(٤) انظر تفاصيل فتح مكة فى السيرة ق ٢ ص ٣٩٥ وما بعدها.

ورأى بنو الديل من بكر أنهم فى موقف صعب بعد الفتح، فهم الذين نقضوا العهد بعدوانهم على خزاعة، ولابد لهم من تصحيح هذا الخطأ خشية من نقمة الرسول صلى الله عليه وسلم عليهم، وأيسر سبيل إلى ذلك هو الاعتذار، لذا قصده أنس بن زنيم الديلي، فأنشده قصيدته التي يقول فيها :[1]

أأنت الذى تُهدى مَعَدٌّ بأمرِه	بل اللهُ يَهديهم وقالَ لك اشْهدِ
وما حمَلتْ من ناقةٍ فوقَ رَحْلِها	أبرَّ وأوفَى ذِمَّةً من مُحمَّد
أحَثَّ على خيرٍ وأسبغَ نائلا	إذا راح كالسيفِ الصَّقيلِ المُهنَّد
وأكْسَى لبُرْدِ الخالِ قبلَ ابتذالِه	وأعْطى لرأسِ السَّابق المتجرِّد[2]
تَعلَّمْ رسولَ اللهِ أنّك مُدْركى	وأن وعيداً منك كالأخذِ باليَد
تعلَّمْ رسولَ اللهِ أنّك قادِرٌ	على كلِّ صِرمٍ مُتهمين ومُنْجد[3]

فهو يبدؤها بمدح الرسول صلى الله عليه وسلم واستعطافه، والإقرار له بالنفوذ والسطوة، فلا منجى من وعيده، ولا مهرب من عقابه، وصولاً بذلك إلى ما يرجوه من عفوه، ثم يتبع ذلك بتكذيب ما قيل فى حقه، وما اتهم به من نقض للعهد، يقول:

تعلَّمْ بأن الرَّكبَ ركبَ عُوَيْمِر	هُمُ الكاذبون المُخْلِفو كلّ مَوْعد
ونَبَّوْا رسولَ اللهِ أنى هجَوتُه	فلا حَمَلتْ سوطى إلىَّ إذنْ يدى
سوى أننى قد قلتُ ويلُ امِّ فِتْيةٍ	أُصيبوا بنَحْسٍ لا بطَلْقٍ وأسْعُد[4]
أصابَهُمُ من لم يكنْ لدمائِهِمْ	كِفاءً فعزَّت عَبْرتى وتبلُّدى[5]

---

(1) نفسه ص ٤٢٤.

(2) الخال: ضرب من برود اليمن الثمينة. السابق المتجرد: الفرس الذي يتجرد من الخيل فيسبقها.

(3) تعلم: اعلم. صرم: بيوت مجتمعة. متهمين: ساكنين فى التهام أى الأرض المنخفضة. منجد: ساكن المرتفع.

(4) الطلق: الأيام السعيدة المعتدلة الجو.

(5) تبلدى: تحيرى، و يروى تجلدى: أى تصبرى.

فـإنـيَ لا ديـنـاً فَـتَـقْـتُ ولا دمـاً　　هَـرَقْـتُ تـبـيَّـنْ عـالِـمَ الحقِّ واقْـصِد

فنـراه يـدفـع مـا كـان قـال فيهـم عمرو بن سالم الخزاعي، حين جاء إلى الرسول صلى الله عـليـه وسـلـم مـستنصراً برجزه الذي أشرنا إليه، مكذباً إياه فيا ادعاه من هجاء لشخصه الكريم. ثم يحاول تبرير نقضه للعهد، بأنه لم يكن سوى سعيا للحصول على حق ضائع، وعدد أسماء هؤلاء الأشراف فى أبيات اختصرناها، ليصل بذلك إلى الإقناع بأنه طالب حق، وليس معتدياً، أو ناقضاً لعهد، أو مخالفاً لدين.

ويجيبه على قصيدته هذه بديل بن أم أصرم الخزاعي، ناقضاً قوله بأسلوب التشفي والإغاظة، فيقول فى قصيدة له :[1]

بـكَـى أنَـسٌ رَزْنـاً فـأعْـوَلَـه الـبُـكـا　　فـألاَّ عـديـاً إذْ تُـطَـلُّ وتُـبْـعَـدُ[2]

بـكـيْـتَ أبـا عـبـسٍ لـقُـرْب دمـائهـا　　فـتُـعـذِرَ إذ لا يُـوقِـدُ الحربَ مُـوقِـدُ

أصـابَـهـمُ يـومَ الخـنـادمِ فـتـيـةٌ　　كـرامٌ فـسـلْ منهـم نـفـيلٌ ومَـعبَـد[3]

هـنـالـك إن تـسفَـحْ دموعُـكَ لا تُـلَـمْ　　عـليهم وإن لم تدمع العينُ فـاكـمَـدُوا

فيسخر من بكائه مَن قتل من أشراف قومه، و يستزيده البكاء على غيرهم من القتـلى فى يوم فتح مكة، حيث طلَّت دماؤهم فلا ثأر لها، وحيث لا مجال أمامهم لإيقاد الحرب طلباً لهذا الثأر. فليس له إلا أن يسفح الدموع عليهم، أو أن يكبت حزنه كمداً وحسرة.

وهاتان النقيضتان هما امتداد للنقيضتين السابقتين، وإن ظهر ارتباطهما المباشر بفتح مكة، وما نتج عنه من حسم هذا النزاع القبلي. إذ أصبح الحكم للإسلام، الذى أظل القبيلتين برايته، ووضع دماء الجاهلية وثاراتها، ليعم السلام وتمحى الحزازات، و يلتزم الجميع بشريعته الوضاءة الحقة.

---

(١)　السيرة ق ٢ ص ٤٢٥. وقد علق ابن هشام على هذه الأبيات بأنها فى قصيدة له ولم يذكر سواها.

(٢)　رزن: هم بنو الأسود بن رزن من أشراف كنانة. تطل: يبطل دمها ولا يؤخذ بثأرها.

(٣)　يوم الخنادم: أراد يوم الخندمة وهو فى فتح مكة، سمى باسم جبل بها.

وبعد فتح مكة بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما حول مكة السرايا، تدعو إلى الله عز وجل، ولم يأمرهم بقتال، وكان ممن بعث خالد بن الوليد، وأمره أن يسير بأسفل تهامة داعياً، ولم يبعثه مقاتلاً. ولكنه وطئ بنى جذيمة من كنانة، فقتل بعض رجالهم، بعد أن أسلموا ووضعوا السلاح، مما أغضب النبي صلى الله عليه وسلم، وجعله يتبرأ إلى الله من فعله[1].

وقد دارت بعض المناقضات حول هذه الواقعة، منها ما قاله أحد بني جذيمة، أو هى امرأة يقال لها سلمى:[2]

ولولا مقالُ القوم للقوم أسْلِمُوا	للاَقَتْ سُلَيْمٌ يومَ ذلك ناطِحا
لمَاصَعَهُمْ بُسْرٌ وأصحابُ جَحْدمٍ	ومرَّةُ حتى يتركُوا البَرْكَ ضابِحا[3]
فكائنْ ترى يومَ الغُمَيْصاء من فَتىً	أُصيبَ ولم يَجْرح وقد كان جَارِحا[4]
ألظَّتْ بخُطَّاب الأيامى وطَلقت	غداً تَئذٍ منهنَّ من كان ناكِحا

فهي تبدي حسرتها لما حل بقومها من غدر، ولكنها لا تذكر خالداً بشيء، وإنما تصب غضبها على بنى سليم، الذين كانوا من جنوده فى ذلك اليوم على ما يبدو. وأنه لولا ما طلب من قومها أن يسلموا، لكان هناك قتال ومضاربة منهم، فهذا أفضل من أن يقتلوا هكذا مستسلمين.

ولأن هذه الأبيات يوجه الاتهام فيها إلى بني سليم، فقد أجاب عليها شاعر منهم، هو عباس بن مرداس أو الجحاف بن حكيم، فقال :[5]

دعى عنكِ تَقْوالَ الضَّلالِ كفَى بنا	لكبشِ الوغَى فى اليوم والأمسِ ناطِحا

(١) انظر التفاصيل فى السيرة جـ ٢ ص ٤٢٨ وما بعدها.
(٢) نفسه ص ٤٣٢.
(٣) المماصعة: المضاربة بالسيوف. البرك: الإبل الباركة. ضابحاً: صائحاً في إعياء.
(٤) الغميصاء: اسم موضع به سميت هذه الوقعة.
(٥) السيرة ق ٢ ص ٤٣٢.

فـخـالـدُ أولَـى بـالـتـعـذُّر مـنـكـمُ غـداة عـلاَ نـهجاً من الأمرِ واضـحا

مُـعـانـاً بـأمـر اللـهِ يُـزجـى إلـيـكـمُ سـوانـحَ لا تـكـبُـو لـه وبَـوَارحـا [1]

نَـعَـوْا مـالـكـاً بـالسهل لما هَبَطْتَهُ عَـوابـسَ فـى كـابـى الـغُـبارِ كـوَالحـا

فـإن نـكُ أثـكـلْـنـاكِ سلمَـى فـالـكٌ تـركـتـمْ عـلـيـه نـائـحـاتٍ ونـائـحـا

فنراه ينقض قولها مكذباً ما ادعته من الغدر بهم، رامياً إياها بالتضليل، مدافعاً عن موقف خالد، وملتمساً له العذر فيا فعل، وأن ما فعله كان واضحاً وسليماً، إذ أنه أنفذ أمر الله فيهم، فأعانه الله عليهم، و يبدى شماتته بمن قتل منهم.

و يبدو أن دفاع الشاعر هنا عن موقف خالد، يؤيد وجهة نظر قيلت فى تبر ير فعله بهم، إذ أنهم قالوا لما أتاهم: صبأنا صبأنا[2]، ولم يقولوا أسلمنا، وإن كان قولهم هذا يعنى أنهم غيروا دينهم إلى الإسلام. ومن ثم وقع سوء فهم أدى إلى ما حدث.

وحول هذه الواقعة دارت مناقضتان أخر يان، إذ قال رجل من بنى جذيمة [3]:

جزَى اللهُ عنـا مُدْلجا حيث أصبحتْ جـزاءة بُـوسَـى حـيـث سارتْ وحلَّـتِ

أقـامـوا عـلـى أقْـضاضِـنا يقـسمونها وقـد نَـهَـلـت فـيـنـا الرماحُ وعَلَّـت [4]

فـوالله لـولا ديـنُ آل محـمـدٍ لقـد هَـربت منهم خيولٌ فشُـلَّـت [5]

ومـا ضَـرَّهـم أن لا يُـعـيـنـوا كـتيبةً كـرِجْلِ جرادٍ أُرسلت فاشْمَعَلَّت [6]

فـإمـا يـنـيبّـوا أو يـثُـوبُـوا لأمـرِهـم فـلا نحـنُ نجـزهـم بمـا قـد أضـلَّـت

---

(١) السوانح: الخيل الآتية من اليمين، والبوارح: الآتية من اليسار.
(٢) السيرة ق ٢ ص ٤٣١.
(٣) نفسه ص ٤٣٤.
(٤) الأقضاض: جمع قض. أراد به هنا الأموال المجتمعة.
(٥) شلت: أى طردت.
(٦) رجل جراد: جماعة منه. اشمعلت: تفرقت.

فأجابه رجل من بني ليث، اسمه وهب، فقال :[1]

دَعونا إلى الإسلامِ والحقِّ عامراً فما ذَنبُنا في عامرٍ إذ تولَّتِ
وما ذَنبُنا في عامرٍ لا أبا لهم لأنْ سَفِهَت أحلامُهم ثم ضَلَّت

والعناصر التى قامت عليها المناقضة هنا شبيهة بما فى النقيضتين السابقتين، وإن كان الجذيمى هنا يلقى التبعة على بنى مدلج بدلاً من سليم، طالباً من الله أن يجزيهم سوءاً على فعلهم، فهو أيضاً يتحسر على ما حل بقومه. مرجعاً سببه إلى الغدر بهم إذ دعوا إلى الإسلام، وهو إذ يلومهم على عدم عونهم لقومه، يفتح لهم باب الإنابة والتصحيح لما وقعوا فيه من ضلال. أما وهب الليثى فيحسم القضية بوضوح، و يرد دعواه مكذباً إياه، بأنهم هم الذين ضلوا وتولوا حين دعوا إلى الإسلام، فلا ذنب لأحد فيما أصابهم.

وكانت غزوة حنين[2] فى أعقاب فتح مكة، حيث تجهزت هوازن للقاء الرسول صلى الله عليه وسلم بعد أن سمعت بالفتح. وقد نصر الله المسلمين فيها، بعد أن اغتروا بكثرة عددهم، وقال قائلهم: لن نهزم اليوم من قلة، ففاجأتهم هوزان على غرة فانهزموا، ولكن الرسول صلى الله عليه وسلم ثبت ومعه بعض أصحابه، حتى عاد إليه الأنصار والمهاجرون، ودارت دائرة القتال على هوازن، فهزمت هزيمة ساحقة بعون الله وحوله، وفى ذلك نزلت آياته الكريمة ﴿وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ ثُمَّ أَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَذَٰلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ﴾[3]

وقد نظمت حول هذه المعركة أشعار كثيرة، خاصة من الشعراء المسلمين، يشيدون فيها بهذا النصر العظيم، الذى أيد الله به دينه، وأعلى كلمته، وكان أكثرهم شعراً فى

(١) السيرة ق ٢ ص ٤٣٥.
(٢) انظر تفاصيلها فى السيرة ق ٢ ص ٤٣٧ وما بعدها.
(٣) سورة التوبة آيـــــة ٢٥، ٢٦.

هذا اليوم عباس بن مرداس السلمي، وإن لم يدخل من قصائده في باب النقائض إلا قصيدته التي يقول فيها :[١]

إني والسَّوابحُ يومَ جَمعٍ	وما يَتلُو الرسولُ من الكتابِ
لقد أحببتُ ما لَقِيتْ ثَقيفٌ	بجَنْبِ الشِّعبِ أمس من العذابِ
همُ رأسُ العدوِّ من اهلِ نجدٍ	فقتلهُمُ ألذُّ من الشَّرابِ
هَزمنا الجمعَ جمعَ بنى قَسِيٍّ	وحَكَّتْ بركَها ببنى رِئابِ[٢]
وصِرماً من هلالٍ غادرَتْهم	بأوطاسٍ تُعفِّر بالتّرابِ[٣]
ولو لاقَيْن جمعَ بنى كِلابٍ	لقامَ نساؤهم والنقعُ كابى
ركضْنا الخيلَ فيهم بين بُسٍّ	إلى الأوْرال تَنحِطُ بالنِّهابِ[٤]
بذى لَجَبٍ رسولُ الله فيهم	كتيبتُه تُعرَّض للضِّرابِ

وابن مرداس هنا مع ذكره للرسول صلى الله عليه وسلم وما يتلوه من القرآن، لا يبدو متأثراً بالإسلام تأثراً عميقاً، أو حتى بالآيات التى نزلت فى هذه بالمعركة، إذ أنه كان حديث عهد به، ويعد من المؤلفة قلوبهم، ولذا غلبت على أبياته روح التشفي من الأعداء، وما حل بهم من قتل وتنكيل، وبدا متفاخراً بهزيمتهم القاسية، معدداً أسماء القبائل والعشائر التى ذاقت مرارتها. وهى روح أقرب إلى قساوة الجاهلية منها إلى سماحة الإسلام.

ولكثرة ما شدد ابن مرداس فى شعره على هوازن، أجابه عطية بن عُفَيِّف النصري ببيتين، قال فيهما :[٥]

(١) السيرة ق ٢ ص ٤٦٠.

(٢) البرك: الصدر، يريد بحك الحرب بركها: شدة وطأتها. وبنو قسي هم ثقيف، ورئاب من بطون هوازن.

(٣) صرم: جماعة بيوت انقطعت عن الحي الكبير. أوطاس: موضع.

(٤) بس: موضع فى أرض بنى جشم. الأورال: ثلاثة أجبل سود قريبة من أرض المعركة. تنحط: تخرج أنفاسها عالية.

(٥) السيرة ق ٢ ص ٤٦٠ ـ ٤٦١.

أفاخِرةٌ رِفاعةُ فى حُنَينٍ وعباسُ بن راضِعةِ اللّجاب[1]
فإنك والفِجارَ كذاتِ مِرْطٍ لربَّتِها وتَرْفُلُ فى الإهاب[2]

فهو لم يعرض لنقض ما ذكره فى أبياته، وإنما صب غضبه على عباس نفسه فهجاه، وسلبه هذا الفخر الذى يدعيه وليس له منه شيء، فشبهه بالجارية التي تتباهى وتتبختر فى ثياب فاخرة لسيدتها، وهو تصور نابع من العصبية الجاهلية التي لم تستوعب بعد مفهوم الجماعية الإسلامية.

والنقيضتان الأخريان اللتان قيلتا فى حنين، بين شاعرين آخرين، أولهما من هوازن، وثانيهما من تميم، فالأول هو أبو ثواب زيد بن صحار، أحد بني سعد بن بكر، يقول متحسراً لهزيمة قومه، وخضوعهم لقريش :[3]

ألا هل اتاكَ أنْ غَلبت قُريشٌ هوازِنَ والخطوبُ لها شُرُوطُ
وكنَّا ياقريشُ إذا غَضِبْنا يجِىءُ من الغِضابِ دمٌ عَبِيطُ[4]
وكنا ياقريشُ إذا غَضِبْنا كأن أنوفَنا فيها سَعوطُ[5]
فأصبحنا تُسوِّقُنا قريشٌ سِياقَ العِيرِ يحدُوها النَّبيطُ[6]
فلا أنا إن سُئِلتُ الخَسْفَ آبٍ ولا أنا إن ألينَ لهمْ نشيطُ[7]
سيُنْقلُ لحمُها فى كلِّ فَجٍّ وتُكتبُ فى مسامِعِها القُطوطُ[8]

---

(١) اللجاب: جمع لجبة، وهى الشاة القليلة اللبن، وقيل هى العنز خاصة.
(٢) الفجار: المفاخرة. المرط: كساء غير مخيط من خز أو صوف أو كتان. الإهاب: الجلد، ويريد به الثوب.
(٣) السيرة ق ٢ ص ٤٧٦.
(٤) الدم العبيط: الطرى.
(٥) السعوط: دواء يوضع فى الأنف فيهيجه، يريد: تحمى أنوفنا، كناية عن شدة الغضب.
(٦) النبيط: جيل من الناس كانوا ينزلون سواد العراق، ثم استعمل فى أخلاط الناس وعوامهم.
(٧) الخسف: الذل. آب: اسم فاعل من أبى أى امتنع.
(٨) القطوط: جمع قط، وهو الصك أو الكتاب الذى تحصى فيه الأعمال.

فزيد هنا يحصر نظرته إلى معركة حنين فى نطاق ضيق، وعلى أنها معركة بينهم وبين قريش، على غرار المعارك الجاهلية التى كانت بينها فى أيام الفجار، ولا يشير من قريب أو من بعيد إلى الجموع المسلمة التى شاركت فيها، والتى تمثل قريش جزءاً منها فحسب، وهو لذلك يذكر قريشاً بما كان لهم من قوة قتالية شديدة فى معاركم القديمة معها، ويترجم عن أساه البالغ لانقلاب الحال، وخضوعهم لقريش بهذه الصورة المهينة، إذ أجبر على قبول هذا الخسف، الذى لن يغير ما فى قلبه من حقد على قريش. فهو لم يفهم، أو لا يريد أن يفهم الغاية الإسلامية من هذه المعركة، ويصر على حصرها فى رؤياه الجاهلية التي غشت بصيرته.

أما الشاعر التميمي الذي ناقضه فى هذه الأبيات، فهو عبد الله بن وهب، من بني أسيد، وهو مسلم ممن شاركوا فى المعركة، يقول :[1]

بشرطِ اللهِ نَضربُ من لَقِينا ... كأفضلِ ما رأيتَ من الشُّروط

وكنّا يا هَوازِنُ حين نَلقَى ... نَبُلُّ الهامَ من عَلقٍ عَبيط

بجمعكُمُ وجمع بنى قسيٍّ ... نَحُكُّ البَرْكَ كالورَقِ الخَبيط[2]

أصبْنا من سراتِكمُ ومِلْنا ... بقتلٍ فى المُبايِنِ والخَليط[3]

به المُلْتاثُ مُفتَرِشٌ يديه ... يَمُجُّ الموتَ كالبَكْرِ النَّحِيط[4]

فلا تكُ قيسُ عَيْلانٍ غِضاباً ... فلا ينفكُّ يُرغِمُهم سَعوطى

فرد شاعر من تميم عليه، هو فى حد ذاته نقض للعصبية القبلية، التى كانت تقتضى أن يجيبه شاعر من قريش. إنه هنا يرد بصفته مسلماً يدافع عن الموقف الإسلامي، ولذا نراه يتحدث باسم جماعة المسلمين، التى تحارب بشرط الله ــ على

---

(١) السيرة ق ٢ ص ٤٧٧.

(٢) بنو قسي: يعني ثقيفاً. البرك: كلكل البعير وصدره. الورق الخبيط: الذي يضرب بالعصا ليسقط، فتأكله الماشية.

(٣) المباين: المفارق، وهو المنهزم. والخليط: الذى لا يزال فى المعركة يخالط الأقران.

(٤) الملتاث: اسم رجل، أو هو الذى أصابته لوثة القتال وحميته. النحيط: الذى يردد نفسه فى صدره فيسمع دويه.

حد قوله ــ وتفاخره بعد ذلك بالشجاعة في القتال والفتك برجال هوازن وثقيف، ومن معهم من قيس عيلان، هو تفاخر بالقوة الإسلامية عامة، لا يظهر فيه اسم تميم قبيلته، ولا اسم قريش الذي عول عليه خصمه. وهو وإن كان يبدي الشماتة بقيس وبطونها، ويتوعدها بالإذلال الدائم، فإنما يريد إفحام خصمه، وإعلامه بسطوة الإسلام القاهرة، التي لم يعد أمامهم سبيل لمقاومتها.

وبعد الفراغ من حنين، أجمع رسول الله صلى الله عليه وسلم أمره على السير إلى الطائف، لتعقب فلول ثقيف، التي فرت إليها وتحصنت بها بعد هزيمة حنين، ولأنها ثالثة مدن الحجاز، وبها تكتمل السيطرة الإسلامية عليه. وفي ذلك يقول كعب بن مالك معلناً هذه المسيرة، وممهداً ثقيفاً ودوساً بما ينتظرهم من بلاء شديد، إذا لم يذعنوا لكلمة الحق، ويستجيبوا لدعوة الإسلام :[1]

قَضَيْنا من تِهامَةَ كلَّ رَيْبٍ ... وخيْبَرَ ثم أجْمَمْنا السيوفا[2]

نُخيِّرُها ولو نَطَقَتْ لقالَتْ ... قواطِعُهُنَّ دَوْساً أو ثَقِيفا

فلستُ لحاصِنٍ إن لم تَرَوْها ... بساحةِ دارِكم منا أُلوفا

ونَنْتَزِعُ العُروشَ ببطنِ وَجٍّ ... وتُصبحُ دورُكم منكم خُلوفا[3]

ويأتيكم لنا سَرَعانُ خيلٍ ... يُغادِرُ خلفَه جمعاً كثيفا

إذا نَزَلُوا بساحَتِكمْ سمعتمْ ... لها مِمّا أناخَ بها رَجيفا[4]

بأيدِيهمْ قواضِبُ مُرهَفاتٌ ... يُزِرْنَ المُصْطَلِين بها الحُتوفا[5]

---

(١) السيرة ق ٢ ص ٤٧٨ ــ ٤٧٩. وديوان كعب ص ٢٣٤.

(٢) تهامة: ما انخفض من أرض الحجاز. الريب: الشك. أجممنا: أرحنا.

(٣) العروش: يريد سقوف البيوت. وج: موضع بالطائف، أو هو من أسمائها. خلوف: دور غاب عنها أهلها أو رجالها.

(٤) رجيف: يعني به الصوت الشديد مع اضطراب.

(٥) قواضب مرهفات: سيوف قاطعة. المصطلون: المباشرون لها من أعدائهم. الحتوف: جمع حتف وهو الموت.

فهو يعلنهم باجتياح جيش الإسلام لوديان الحجاز، وقرى اليهود فى خيبر، ليبعث الرعب فى قلوبهم، و ينذرهم بأن الدور آت عليهم، لتقتحم جوعه الكثيفة ديارهم، وتخرب بيوتهم وتقتل رجالهم، ثم يواصل الوعيد والتهديد، ممتزجاً بالترغيب في الإسلام، فيقول:

أجدهُمُ أليس لهم نَصِيحٌ	من الأقوامِ كان بنا عَرِيفا [1]
يُخبِّرُهمْ بأنّا قد جَمَعْنا	عِتاقَ الخيل والنُّجُبَ الطُّروفا [2]
وأنّا قد أتيْناهمْ بزَحْفٍ	يُحيط بسورِ حِصنِهمُ صُفوفا
رئيسُهمُ النبيُّ وكان صُلباً	نقِيَّ القلبِ مُصطَبِراً عَزُوفا
رشيدُ الأمرِ ذو حُكْمٍ وعلمٍ	وحلمٍ لم يكن نَزِقاً خفيفا
نطيعُ نبيَّنا ونطيعُ ربّاً	هو الرحمنُ كان بنا رَؤوفا
فإن تُلقُوا إلينا السَّلمَ نَقبلْ	ونجعلُكم لنا عَضُداً وريفا [3]
وإن تأبَوا نجاهدْكم ونصبرْ	ولا يكُ أمرُنا رَعِشاً ضعيفا
نجالدُ ما بقينا أو تُنيبُوا	إلى الإسلامِ إذْعاناً مُضِيفا [4]

إنه لا يريد لهم أن يورطوا أنفسهم فى مقاومة هذا الزحف الإسلامى الجبار، الذى يقوده نبيه العظيم صلى الله عليه وسلم، و يشيد بصفاته الحميدة، من صلابة فى الحق، وصبر فى الشدائد، ومن نقاء القلب، والعزوف عن المغريات، ومن الرشاد والحكمة، والعلم والحلم، لعلهم يأمنون جانبه، ويهتدون بهديه، الذى هداه به ربه وهدى المؤمنين به. ومن هذا الترغيب الذى يبسطه لهم، يخيرهم بين الإسلام، حيث

---

(١) أجدهم: أى أجد منهم، وهو منصوب على المصدر. وعريفا (هنا): عارفا.

(٢) عتاق: جمع عتيق. ونجب: جمع نجيب. وطروف: جمع طِرف. وكلها بمعنى الكريمة الأصل من الخيل.

(٣) الريف: الموضع الخصب على الماء. يريد نتخذكم أعوانا على الحرب، ونستمد من ريفكم العيش.

(٤) إذعان: خضوع وانقياد. ومضيفا: ملجئا.

السلام، وحيث يكونون لهم عضداً وعوناً، وبين الجهاد والجلاد حتى ينيبوا و يذعنوا لأمره. وهو إذ يصل بهم إلى الاختيار الثاني، يشدد نكير تهديده، مقروناً بالحجج المقنعة، التي ترشدهم إلى الإسلام، يقول:

نُجاهدُ لا نُبالي من لَقِينا . أأهلكْنا التِّلادَ أم الطَّرِيفا

وكمْ من مَعشرٍ ألَبُوا علينا صميمَ الجِذْمِ منهم والحَليفا[1]

أتَوْنا لا يَروْن لهم كِفاءً فجَدَّعنا المسامعَ والأُنوفا

بكلِّ مُهنَّدٍ لَيْنٍ صَقيلٍ نَسوقُهمُ بها سوْقاً عَنيفا

لأمرِ اللهِ والإسلامِ حتى يقومَ الدينُ مُعتدِلاً حَنيفا

وتُنْسَى اللاتُ والعُزَّى وَوَدٌّ ونَسلُبُها القلائدَ والشُّنوفا

فأمسَوْا قد أقَرُّوا واطمأنُّوا ومن لا يمتنعْ يَقبلْ خُسوفا

لقد أراد كعب أن يجلى لهم الموقف الإسلامى فى الجهاد والتضحية لنصرة هذا الدين، وأن يذكرهم بما حل بغيرهم ــ ممن تصدوا للإسلام وألبوا عليه الأعداء ــ من هلاك وتنكيل. حتى انصاعوا لأمر الإسلام، وأقروا بكلمة الحق، فصاروا إلى أمان واطمئنان، وتركوا آلهة الشرك والضلال. وأن هذا الجهاد سيظل قائماً ضد كل مشرك مناوئ، حتى يستقيم دين الله، وتعم عقيدته الحقة، فلا مفر لهم إذن من الإسلام أو الهلاك، وخير لهم أن يعوا حقيقة الأحداث والنتائج، وأن يستفيدوا منها، ليتبينوا الصالح لهم، و يتجنبوا ما يرديهم فى الشر والتهلكة.

وكان من النتائج الطيبة التى أثمرتها قصيدة كعب هذه أنها جعلت قبيلة دوس تسلم دون قتال، قال ابن سير ين: «فبلغنى أن دوساً إنما أسلمت فرقاً من قول كعب «قضينا من تهامة...» فقالت دوس: انطلقوا فخذوا لأنفسكم، لا ينزل بكم ما نزل

---

(١) ألبوا علينا: جمعوا وحرضوا علينا. الجذم: الأصل.

بثقيف»[1]. وذلك لأن كعباً قرن اسمها باسم ثقيف فى قصيدته.

أما ثقيف فقد ظلت على موقفها المناوئ فترة، معتدة بكبريائها، معتصمة بحصونها، وقد عبر عن هذا الموقف شاعر منهم هو كنانة بن عبد ياليل، الذى أجاب كعباً على قصيدته بأبيات، قال فيها :[2]

مَنْ كان يَبْغِينا يريدُ قِتالَنا ... فإنّا بدارٍ مَعْلَمٍ لا نَريمُها[3]

وجَدْنا بها الآباءَ من قبلِ ما ترَى ... وكانت لنا أطواؤُها وكُرُومها[4]

وقد جرَّبتْنا قبلُ عمرو بنُ عامرٍ ... فأخبرَها ذو رَأْيِها وحَليمها[5]

وقد عَلِمتْ إن قالت الحقَّ أنّنا ... إذا ما أبَتْ صُعْرُ الخُدودِ نُقيمُها[6]

نُقوِّمُها حتى يَلينَ شَريسُها ... ويُعْرَفَ للحقّ المُبينِ ظَلُومها[7]

علينا دِلاصٌ من تُراث مُحَرِّقٍ ... كلَوْن السماءِ زَيَّنتْها نجومُها[8]

نُرفّهُها عنا بِبيضٍ صَوارِمٍ ... إذا جُرِّدتْ فى غَمْرةٍ لا نَشيمُها[9]

إنه يقابل تهديد كعب بكبرياء واعتداد بقوة قومه، وحصانة بلدهم، و يعزز ذلك بما لهم من تجربة سابقة كان لهم النصر فيها على من حاربهم أو هاجم بلدهم. و يبدى تفاخره العارم بما لقومه من جبروت وسطوة، إذ يخضعون كل من تكبر عليهم،

---

(١) الاستيعاب جـ ١ ص ٢٢٣.

(٢) السيرة ق ٢ ص ٤٨١.

(٣) معلم: مشهورة. لا نريمها: لا نبرح منها ولا نزول. وفى البيت خرم فى أول تفعيلة.

(٤) الأطواء: جمع طوى، وهى البئر، جمعت على غير قياس. و يروى (أطوادها) أى جبالها.

(٥) أراد بعمرو بن عامر خزاعة، إذ كانوا حاربوهم عند نزولهم مكة، وهم أبناء عمومة للأنصار، ينتسبون معهم إلى هذا الجد. وهو يقصد بذلك جواباً للأنصار. وذكر البكرى أنه إنما أراد بنى عمرو بن عامر بن صعصعة، وكانوا مجاورين لثقيف، حيث أنزلتهم فى أرضهم ليعملوا فيها و يكون لهم النصف فى الزرع والثمر. ثم إن ثقيفاً منعتهم ذلك، وتحصنوا بالحائط الذي بنوه حول حاضرهم، فحاربتهم بنو عمرو بن عامر، فلم يظفروا منهم بشيء، وجلوا عن تلك البلاد (راجع السهيلى).

(٦) صعر الخدود: المائلة إلى جهة تكبراً وعجباً.

(٧) شريسها: شديدها.

(٨) دلاص: دروع لينة. ومحرق (هنا) هو عمرو بن عامر، وهو أول من حرق العرب بالنار.

(٩) لا نشيمها: أى لا نغمدها، وهو من الأضداد يقال فى إغماد السيف وسله.

و يقومون شراسته حتى يلين تحت وطأتهم، وأن لديهم من العدة والسلاح وشجاعة الرجال ما يمكنهم من ذلك. وكأنما يريد أن يقول لكعب: هذا ما سوف يصيبكم منا إذا نفذتم تهديدكم. أما ما وجهه إليهم كعب من دعوة إلى السلام والإسلام، فهو لا يعيره اهتماماً، مكتفياً بهذا الموقف الرافض المتمنع المستكبر.

و يبدو أن هذا الموقف كان نتيجة طبيعية لهزيمة ثقيف مع هوازن فى حنين، فكانت موتورة ناقة على الإسلام، وأظهرت تحديها ورفضها للاستسلام ممتنعة بحصونها المنيعة، ولكن ما لبثت هذه الحال أن تغيرت، فاستجابت ثقيف لكلمة الحق، وذهب وفدها إلى المدينة للقاء الرسول صلى الله عليه وسلم، مبدياً رغبتهم فى اعتناق دينه القويم عن رضا وطواعية[1].

وتتابعت وفود القبائل من أنحاء شبه الجزيرة إلى المدينة، لتعلن إسلامها بين يدى الرسول صلى الله عليه وسلم فى السنة التاسعة للهجرة. إذ علت كلمة الله، وانقشعت ظلمات الجاهلية أمام نور هداه. ومن هذه الوفود وفد تميم، الذي جاء متفاخراً بالخطابة والشعر، فأنشد الزبرقان بن بدر قصيدته مفتخراً بقومه، فقال[2]:

نحنُ الكِرامُ فلا حيٌّ يُعادِلُنا ... منّا الملوكُ وفينا تُنصَبُ البيَعُ[3]

وكم قَسرْنا من الأحياء كلِّهمُ ... عند النِّهاب وفضل العزِّ يُتَّبع

ونحن يُطعِمُ عند القَحْط مُطعِمُنا ... من الشِّواء إذا لم يُؤنَس القَزَع[4]

بما تَرى الناسَ تأتينا سراتُهم ... من كلّ أرضٍ هُوِيًّا ثم تَصْطَنِع[5]

فننحَرُ الكُوم عُبْطاً فى أَرُومَتنا ... للنازلين إذا ما أُنزِلوا شَبِعوا[6]

---

(١) انظر السيرة ق ٢ ص ٥٣٧.

(٢) نفسه ص ٥٦٢ ــ ٥٦٣ وعلق عليها ابن هشام بأن «أكثر أهل العلم بالشعر ينكرها للزبرقان» والإنكار هنا ينصب على نسبتها فحسب، فربما كانت لغيره من بني تميم.

(٣) البيع: مواضع الصلوات والعبادات. واحدها بيعة (بكسر الباء). و يروى «وفينا تُقسم الربَع».

(٤) القزع: السحاب الرقيق. يريد إذا لم تمطرهم السماء، فأجدبت أرضهم.

(٥) هو يا: سراعا. و يروى «من كل أرض هَوَانا ثم نُتبع».

(٦) الكوم: جمع كوماء، وهى الناقة العظيمة السنام. عبط: سليمة. فى أرومتنا: أى هذا الكرم متأصل فينا.

فــلا تــرانــا إلــى حــيٍّ نُـفــاخِـرُهــمْ إلا اسـتـقـادُوا فكـانـوا الـرأسَ يُقـتَـطـع

فَــن يــفــاخِــرُنــا فــي ذاكَ نــعــرفُــه فــيــرجــعُ الــقــومُ والأخــبــارُ تُــشْــتــمــع

إنّــا أبَــيْــنــا ولا يــأبَــى لــنــا أحــدٌ إنــا كــذلــك عــنــد الــفــخــرِ نَــرتــفِــع

فقد عمد في فخره إلى إعلاء شأن قومه على كل القبائل، فجعل لهم الرياسة والسلطان والغلبة على كل من يعاديهم في حرب، أو ينافسهم في جاه ومجد. وأرسى فيهم شيمة الكرم بصورة لايجاريهم فيها أحد. وجعل فضلهم معترفاً به لدى الجميع، وكلمتهم مسموعة لا ترد. وهو فخر يستمد من معين القيم الجاهلية، ويرتكز على أساس العصبية القبلية الصارخة.

واستدعى النبي صلى الله عليه وسلم شاعره حسان ليجيب شاعر تميم، فلما حضر، وأعيد على سمعه ما قال. أجابه على وزنه ورويه ــ بعد أن كان قد أعد قصيدة أخرى ــ فقال [(١)]:

إن الــذَّوائــبَ مــن فِــهْــرٍ وإخــوتَــهــمْ قــد بــيَّــنُــوا سُــنَّــةً لــلــنــاس تُــتَّــبَــعُ [(٢)]

يَــرضَــى بها كلُّ من كانت سريرتُه تــقــوَى الإلــهِ وبــالأمــرِ الــذى شَرَعوا

قــومٌ إذا حــاربــوا ضــرُّوا عــدوَّهــم أو حاولُوا النفْعَ فى أشياعِهم نَفَعوا

سجيَّةٌ تلك منهم غيرُ مُحْدَثةٍ إن الخلائقَ فاعلمْ شرُّها البِدَع

إن كان فى الناسِ سبَّاقون بعدَهُمُ فكل سَبْقٍ لأدْنَى سبقِهم تَبَع

لا يَرقعُ الناسُ ما أوْهَتْ أكفُّهمُ عند الدفاع ولا يُوهُون ما رَقَعُوا

إن سابَقُوا الناسَ يوماً فازَ سبقُهمُ أو وازَنُوا أهلَ مجدٍ فى الندَى مَتَعوا [(٣)]

أعــفَّــةٌ ذُكِــرَتْ فــى الــوحْيِ عفَّتُهم لا يَــطْــبَــعُــون ولا يُــرْدِيــهِــمُ طَــمَــع [(٤)]

---

(١) السيرة ق ٢ ص ٥٦٤، وديوان حسان ص ٢٣٨ مع زيادة خمسة أبيات واختلاف فى الترتيب والرواية.

(٢) الذوائب: السادة، وأصله من ذوائب المرأة، وهى غدائرها التي تعلو الرأس.

(٣) متعوا: زادوا، يقال: متع النهار إذا ارتفعت شمسه.

(٤) لا يطبعون: لا يتدنسون، من الطبَع بمعنى الدنس.

لا يَبْخَلون على جارٍ بفضلِهِمُ ولا يمسُّهمُ من مَطْمَعٍ طَبَع

لا يجهَلُون وإن حاولتَ جَهْلَهمُ فى فضلِ أحلامِهم عن ذاك مُتَّسَع

إنه لا يقيم مناقضته على تكذيب لشاعر تميم فيما ادعاه لقومه، أو نفى للمحامد والمكارم التى وصفهم بها، فهو لا يناقض عدواً، وإنما ياقض راغباً فى الإسلام مقبلاً عليه هو وقومه، فالموقف حساس للغاية، وكل كلمة لها وزنها وحسابها. وحسان يعي هذه الحقيقة تماماً. ولذا ينتهج نهج الموازنة فى مفاخرته، وإن كان يقيم هذه المفاخرة على أساس إسلامي مقابل للأساس القبلي عند الزبرقان. إذ يجعل من قريش وإخوتهم من الأنصار والمسلمين عامة وحدة إسلامية مقابلة للوحدة القبلية، ويجعل محامدهم الخلقية نابعة من معين الإسلام، هذا إلى مالها من أصول كريمة قبله. وهى بذلك تبدو أعمق فضلاً وأشمل مثالية وسمواً.

وبعد هذا الفخر الشامل يركز حسان على الفخر بقوتهم وشجاعتهم فى الحروب، فيقول:

إذا نَصَبْنا لحَيٍّ لم نَدِبَّ لهم كما يدُبُّ إلى الوَحشِيَّة الذَّرَعُ[(١)]

نسمُو إذا الحربُ نالَتْنا مَخالِبُها إذا الزَّعانِفُ من أظفارِها خَشَعوا[(٢)]

لا يَفْخرون إذا نالُوا عدوَّهم وإن أُصيبُوا فلا خُورٌ ولا هُلُع[(٣)]

كأنهمْ فى الوَغَى والموتُ مُكْتَنِعٌ أُسْدٌ بحَلْيَةَ فى أرْساغِها فَدَع[(٤)]

خذْ منهمُ ما أتَى عفواً إذا غَضِبُوا ولا يكنْ همُّك الأمرَ الذى مَنَعوا

فإنّ فى حربِهم ــ فاتركْ عداوَتَهم ــ شرًّا يُخاضُ عليه السَّمُّ والسَّلَع[(٥)]

---

(١) نصبنا: أظهرنا العداوة ولم نسرها. الذرع: ولد البقرة الوحشية.

(٢) نسمو: ننهض. الزعانف: أطراف الناس وأتباعهم. خشعوا: تذللوا.

(٣) خور: ضعفاء. هلع: جازعون، واحدها هلوع.

(٤) مكتنع: دان. حلية: مأسدة باليمن. الأرساغ: جمع رسغ، وهو موضع القيد من الرجل. فدع: اعوجاج من ناحية.

(٥) السلع: نبات مسموم.

كـم مـن مُـوالٍ لهـمْ نـالُـوا كـرامَـتَه ... ومـن عـدُوٍّ عـليهـم جـاهـدٍ جَـدَعـوا

أعـطَـوْا نـبيَّ الهُـدى والـبرِّ طاعـتَهـم ... فـمـا ونَـى نـصـرُهـم عـنـه ومـا نَزَعـوا

وهو فى هذا الجانب يستجمع المعاني والقيم التي تعارف العرب على تفضيلها فى الحروب ومواقف الشدة والبأس، مراعياً أن ينتقى منها ما يوافق تعاليم الإسلام ومثله، وأن يتجنب ما يعارضها، وهو فى الوقت نفسه يحذر من معاداتهم، و يرغب فى مؤالفتهم، وإذا كانت غابت عنه بعض معاني الجهاد الإسلامية، فإنه قد توج فخره بطاعتهم لنبي الهدى، ومناصرتهم له بكل تفان وإخلاص. ثم نراه يؤكد فى ختام نقيضته على وحدتهم تحت راية رسول الله صلى الله عليه وسلم وقيادته، والتي يفضلون بها الناس جميعاً، فيقول :

أكْـرِمْ بـقـومٍ رسـولُ اللـهِ قـائـدُهـم ... إذا تَـفـاوتَـتْ الأهـواءُ والـشِّـيَـع

أهـدَى لهـم مِـدحَـتـى قـلـبٌ يُـؤازرُه ... فيما أحـبَّ لـسـانٌ حـائـكٌ صَـنَـع

فـإنّـهـم أفـضـلُ الأحـيـاءِ كـلِّـهـمُ ... إن جَدّ بالـنـاسِ جِدُّ القولِ أو شَمَعوا[1]

وفى رواية أخرى ذكرها ابن هشام عن بعض أهل العلم بالشعر من تميم: أن الزبرقان بن بدر لما قدم على رسول الله صلى الله عليه وسلم فى وفد بني تميم، قام فقال :[2]

أتـيـناك كـيْـمَا يـعلـمَ الـناسُ فـضلَـنـا ... إذا احـتَـفَـلُـوا عـنـد احْـتـضـارِ المواسِمِ

بـأنَّـا فـروعُ الـنـاسِ فـى كـلِّ مـوطنٍ ... وأنْ لـيـس فـى أرض الحـجـازِ كـدارمِ

وأنَّـا نـذودُ الـمُـعْـلِـمين إذا انـتـخَـوْا ... ونَـضـربُ رأسَ الأصْـيـدِ الـمُـتَـفـاقـمِ[3]

وأن لـنـا الـمِـرْبـاعَ فـى كـلِّ غـارةٍ ... نُـغِـيـرُ بـنـجـدٍ أو بـأرضِ الأعـاجـم

---

(1) شمعوا: هزلوا. وأصل الشمَع: الطرب واللهو.

(2) السيرة ق ٢ ص ٥٦٥.

(3) المعلمين: الذين يضعون علامة يعرفون بها فى الحرب. انتخوا: تكبروا. الأصيد: المتكبر. المتفاقم: المتعاظم.

فقام حسان بن ثابت فأجابه بقصيدة قال فيها :[1]

هل المجدُ إلا السُّودَدُ العَوْدُ والنَّدى	وجاهُ الملوك واحتمالُ العَظائمِ
نصرْنا وآوينا النبيَّ محمداً	على أنفِ راضٍ من مَعَدّ وراغمِ
بحيٍّ حَريدٍ أصلُه وثَراؤه	بجابيةِ الجولانِ وسط الأعاجمِ
ونحن ضَربنا الناسَ حتى تَتابَعُوا	على دينه بالمُرهَفاتِ الصّوارمِ
بَني دارمٍ لا تَفخروا إن فَخرَكمْ	يعودُ وبالاً عند ذكر المكارمِ
هبَلتمُ علينا تفخرون وأنتمُ	لنا خَولٌ ما بين ظِئْرٍ وخادمِ[2]
فإن كنتمُ جئتمْ لحقنِ دمائِكم	وأموالِكم أن تُقسموا في المَقاسمِ
فلا تجعَلوا للهِ نِدًّا وأسْلِموا	ولا تَلبَسوا زيًّا كزيّ الأعاجمِ

والروح العامة فى هاتين النقيضتين تختلف كثيراً عما فى السابقتين، إذ يمتزج الفخر فيها بالتحدي والاستعلاء والعصبية القبلية الشديدة، بل إن رد حسان يبدو أشد عنفاً وقسوةً وتعصباً وهو بعيد عن روح الإسلام وسماحته. و يصل إلى حد تحقير بني تميم والحط من شأنهم. وهذا عكس ما اتسمت به نقيضته السابقة، التي فخر فيها فخراً إسلامياً لا عصبية فيه، وكان أكثر سماحةً وحلماً ورزانةً وحكمةً فى رده على شاعر تميم، مما جعلهم يعترفون له بالتفوق عليه، و يقبلون على الإسلام بنفوس متفتحة راضية. وهذا ما يجعلنا نرجح أن النقيضتين السابقتين هما اللتان تمثلان الموقف تمثيلاً صحيحاً، بينما الأخر يان لا تمثلانه ولا تتلاءمان معه، ولو افترضنا أن حسان كان قال الميمية، لكان أغضب بني تميم ونفرها من الإسلام، بل لكان أغضب النبي صلى الله عليه وسلم نفسه، لتنافره مع الروح الإسلامية فى مثل هذا الموقف.

و يؤيد ترجيحنا هذا ما ذكر من أن حسان كان غائباً وقت مثول وفد تميم بين

---

(١) السيرة ق ٢ ص ٥٦٦ (١١ بيتاً) وديوان حسان ص ٢٣٦ (١٣ بيتاً) مع اختلاف فى رواية الأبيات وترتيبها.

(٢) هبلتم: فقدتم وثكلتم. الظئر: التى ترضع ولد غيرها.

يدى رسول الله صلى الله عليه وسلم. وأنه بعث إليه، قال حسان: جاءنى رسوله، فأخبرنى أنه إنما دعانى لأجيب شاعر بنى تميم، فخرجت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وأنا أقول: (وذكر أربعة أبيات من القصيدة الثانية). ولكنه لما سمع ما قاله شاعرهم، رد عليه بالقصيدة الأولى مناقضاً إياه على وزنه وقافيته[1]. فحسان وإن كان أعد القصيدة الثانية أو بعضها، فهو لم ينشدها فى هذا الموقف. وربما صنع الرواة أبيات الزبرقان على غرارها، ليقيموا طرفي المناقضة بينهما.

بهذا نختتم نقائض هذه المرحلة التى صورت لنا أحداثها ومواقفها تصويراً دقيقاً إلى حد كبير، والتي برزت فيها أسماء لشعراء جدد لم يعرفوا فى المراحل السابقة، ولا يكاد يظهر فيها دور لشعراء قريش، بينما يتقلص دور شعراء المدينة كثيراً عن ذي قبل. وإن كنا نظن أنه كان هناك بعض نقائض بينهما أسقطت روايتها، والدليل على ذلك واضح فى قصيدة حسان الهمزية المشهورة، والتى مطلعها :[2]

عَفَتْ ذاتُ الأصابعِ فالجِواءُ ... إلى عذْراءَ منزلُها خلاء

والتى قيل إنها قيلت فى فتح مكة، أو على الأرجح فى صراع الحديبية وقبل عمرة القضاء[3]. فهذه القصيدة فيها رد واضح على شعر لأبي سفيان بن الحارث حيث يقول حسان:

ألا أبلغْ أبا سفيانَ عنى ... فأنت مُجَوَّفٌ نَخِبٌ هَوَاء

هجوتَ محمداً فأجبتُ عنه ... وعند اللهِ فى ذاكَ الجَزاء

ولكن شعر أبى سفيان هذا أسقط ولم يصل إلينا، ولو أنه وصل لاكتمل طرفا المناقضة. ويمكن أن تكون هناك أشعار أخرى أسقطت أيضاً لأسباب كثيرة.

وعلى كل فما وصل إلينا من النقائض فى شعر هذه المرحلة، قد عرضنا له مقترناً بأحداثها، ووجدنا فيه صورة موضحة لها، مبينة لكثير من حقائقها فى ثوبها الشعري

(١) السيرة ق ٢ ص ٥٦٣ ــ ٥٦٤. وديوان حسان ص ٢٣٦ ــ ٢٣٨.
(٢) السيرة ق ٢ ص ٤٢١. وديوان حسان ص ٧١.
(٣) دور الشعر فى معركة الدعوة الإسلامية ص ٤١٩.

إلى حد كبير. فهي مواكبة لمسيرة الأحداث، التى تجاوزت الصراع بين مكة والمدينة إلى قبائل أخرى، ولذا انحسرت المناقضات بين شعراء المدينتين، بل إنها انعدمت تماماً، إلا إذا افترضنا وجود مناقضات أسقطت روايتها، كتلك التى تشير إليها قصيدة حسان الهمزية ــ كما أوضحنا ــ وكان من الطبيعي أن يشارك فيها شعراء جدد لم يرد ذكرهم فى المراحل السابقة.

وبهذه المرحلة تنتهي ظاهرة النقائض الشعرية في السيرة النبوية، إذ أتم الله لدينه الظهور والنصر، وعلت كلمة الحق وانتشرت فى أرجاء الجزيرة العربية، ولم تعد تواجهها حرب لسانية شعرية.

الفصل السادس

الخصائص الفنية للنقائض

كان لأشعار النقائض فى السيرة النبوية خصائصها الفنية المميزة، التي ارتبطت بالتقاليد والخصائص الفنية للشعر الجاهلي من ناحية، كما ارتبطت بالظروف والأحداث والتغيرات التى طرأت على الحياة العربية بمجىء الإسلام من ناحية أخرى. وهى تمثل مرحلة مهمة من مراحل فن النقائض فى شعرنا العربي، حتى وصوله إلى طور النضج فى العصر الأموي. وتختلف عن النقائض الجاهلية، التي نشأت فى ظلال الأيام والنزاعات والعصبيات القبلية(١)، كما تختلف عن النقائض الأموية، التى قالها قائلوها للتسلية وملء الفراغ، وكانوا يحتفلون عند إنشادها بثيابهم وزينتهم(٢)، والتى كان مسرحها سوق المربد فى البصرة، حيث يتحلق الناس من حول الشاعر، ليستمعوا إلى شعره بين الصياح والتهليل(٣). إذ نشأت نقائض السيرة وازدهرت فى ظل ذلك الصراع المرير بين الإسلام والشرك، وكان مسرحها تلك المعارك والغزوات، التى احتدمت نيرانها بين الفريقين فى أرض الحجاز، كما رأينا فى الفصول السابقة. ثم إنها لم تكن ــ كالنقائض الأموية ــ تعبيراً عن وجهة النظر الفردية، وتحقيقاً لمصالح شخصية، فسميت بأسماء منشئيها، حيث قيل نقائض الفرزدق والأخطل وجرير(٤). وإنما كانت تعبيراً عن وجهة النظر الجماعية، وتحقيقاً لغايات دينية، أو مصالح قبلية، في جانبيها الإسلامي والإشراكي.

---

(١) تاريخ النقائض ــ الفصلان الثالث والرابع من الباب الأول.

(٢) العصر الإسلامى ص ٢٤١.

(٣) نفســـه ص ٢٤٤.

(٤) نقائض جرير والفرزدق ــ رسالة دكتوراة لمحمود غناوى الزهيرى بجامعة القاهرة ص ١٦٨.

١ ــ خصائص الشكل :

وإذا نظرنا فى الخصائص الفنية لنقائض السيرة من حيث الشكل، وجدنا أن المجموعة الغالبة منها هى من المقطعات والقصائد القصيرة التى لا تزيد عن عشرة أبيات، تليها مجموعة أخرى من قصائد قصيرة أيضاً (بعد العشرة إلى العشرين بيتاً) تكاد تبلغ نصف المجموعة الأولى. أما القصائد التى تزيد عن ذلك (بعد العشرين إلى الثلاثين بيتاً) فهي قليلة لا تتجاوز ثماني قصائد. بينا تنفرد قصيدة واحدة بطولها، إذ يبلغ عدد أبياتها تسعة وأربعين بيتاً، وهي قصيدة كعب بن مالك العينية التى عرضنا لها فى الفصل الرابع من هذا البحث. ولا يغيب عنا أن المجموعة الكلية لهذه النقائض تبلغ نيفاً وسبعين قصيدة ومقطوعة. و يفسر غلبة القصائد القصيرة والمقطوعات عليها، طبيعة الظروف والأحداث التى قيلت فيها، والتى كانت سر يعة التوالي والجر يان، بحيث لا تتيح للشاعر أن يطيل و يزيد و يتفنن فى القول على النحو الذى يبتغيه و ير يده.

وكان من الطبيعي إزاء هذه الظاهرة أن يعمد الشاعر إلى الدخول المباشر فى موضوع نقيضته، الذي يقتضيه الموقف أو يفرضه عليه من فخر أو هجاء أو رثاء، وما يتخلل ذلك من رد على الخصم، بالمجادلة وتفنيد المقولة، وكشف المزاعم والادعاءات، ورفض التهديد والوعيد أو مقابلته بمثله، وما إلى ذلك من عناصر عديدة رأيناها فى عرض هذه النقائض.

و يعني ذلك من ناحية أخرى أن يتخلى الشاعر فى بناء نقيضته عن بعض التقاليد الفنية الموروثة، التى رسخها الشعر الجاهلي، وخاصة ما يتعلق بمقدمة القصيدة، من الوقوف على الأطلال، و بكاء الديار، والنسيب بالمحبو بة، واستعادة ذكر يات الهوى والشباب؛ إذ لم تكن تتيح له ظروف الأحداث ــ فى الغالب ــ أن يعني بهذا التقليد. إلا أن هذا التخلي لم يكن عاماً شاملاً، ففي أحيان قليلة، نجد بعض شعراء هذه النقائض، يبدءونها بمقدمات تقليدية. والدليل على قلة عنايتهم بها أننا لا نجدها إلا فى نقائض قليلة لا تزيد على العشر[1]. وحتى هذه المقدمات

(١) انظر السيرة ق ٢ ص ١٦، ١٢٩، ١٣٢، ١٣٦، ١٤١، ١٤٢، ١٤٩، ١٥٨، ٢٥٧، ٢٥٨.

القليلة لم تنل منهم عناية أو اهتماماً على النحو الذي نجده عند الشاعر الجاهلي، فهي مقدمات سريعة متعجلة في حدود الأربعة أبيات، وربما تقل أو تزيد عن ذلك قليلاً[1]، نذكر مثلا منها مقدمة قصيدة ابن الزبعري في يوم أحد، يقول :[2]

ألا ذَرفَتْ من مُقلتيْكَ دموعُ وقد بانَ من حَبْلِ الشبابِ قُطوعِ

وشطَّ بمن تَهْوَى المزارُ وفَرَّقت نوَى الحيِّ دارٌ بالحبيب فَجُوعِ[3]

وليس لما وَلَّى على ذي حرارةٍ وإن طال تَذْراف ُالدموع رُجوعِ

فذَرْ ذا ولكن هل أتى أمَّ مالكٍ أحاديثُ قومي والحديثُ يشيع

و يرد حسان عليه مناقضاً بقصيدة يبدؤها بمقدمة مماثلة، فيقول :[4]

أشاقَكَ من أمّ الوليدِ رُبُوع بلاقعُ ما مِنْ أهلِهِنَّ جميع

عفاهُنَّ صيْفيُّ الرياح ِوواكِفٌ من الدَّلْوِ رَجَّافُ السحابِ هَمُوعِ[5]

فلم يبقَ إلا موقدُ النار حولَه رَوَاكدُ أمثالُ الحَمامِ كُنُوعِ

فدعْ ذكرَ دارٍ بدَّدتْ بين أهلِها نوىً لمَتيناتِ الحبالِ قَطُوعِ

فالشاعران فى مقدمتيهما لم يطيلا، لأن الموقف لا يحتاج إلى الإطالة، ولأن نقيضتيهما ليستا طويلتين، فالأولى سبعة عشر بيتاً، والثانية ثمانية عشر بيتاً، فالمقدمة ملائمة لطول القصيدة. وموضوع المناقضة بينهما هو الأهم، ولا يستحسن أن يعنى أى منهما بالمقدمة أكثر من ذلك، حتى لا يجور على الموضوع، أو يقصر فى تناوله.

وأحياناً يذكر الشاعر البادئ بالمناقضة مقدمة تقليدية لقصيدته، ولكن الشاعر

(١) لا يشذ عن ذلك سوى قصيدة واحدة لحسان، مقدمتها عشرة أبيات (انظرها فى السيرة ق ٢ ص ١٦).

(٢) السيرة ق ٢ ص ١٤١.

(٣) شط: بعد. النوى: البعد والفرقة.

(٤) السيرة ق ٢ ص ١٤٢، وديوان حسان ص ٩٧.

(٥) عفاهن: غيرهن ودرسهن. الواكف: المطر السائل. والدلو: من الأبراج الفلكية. رجاف: متحرك مصوت. هموع: سائل.

الذى يرد عليه لا يلتزم بها، و يركز اهتمامه على موضوع المناقضة، فيدخل فيه مباشرة دون مقدمة؛ ربما لأن موقفه النفسي لا يسعفه، أو لأنه ينشغل بالرد انشغالاً كاملاً فيوليه كل عنايته، ويهمل تلك المقدمة؛ حيث لا يرى لها أهمية، أو أنها لا تفيده فى موقفه وفي رده بكثير أو قليل.

ومن الظواهر الشكلية المعروفة فى شعر النقائض بوجه عام، التزام الشاعر بالوزن والقافية فى مناقضته لخصمه، حيث يكون البادئ بالمناقضة منهما هو صاحب الاختيار لوزن قصيدته وقافيتها، وهو بذلك يحدد لخصمه طريقة النظم التى ينبغي أن يلتزم بها. وقد رأينا فى نقائض السيرة أن الشعراء قد التزموا بهذه الظاهرة الشكلية فى أغلب مناقضاتهم، وأنهم لم يتخلوا عن هذا الالتزام إلا فى حالات قليلة، لا تتجاوز ست نقائض[١]. وهى قلة لا تؤثر فى مدى تمسكهم بذلك الشكل الفني، وخاصة إذا أخذنا فى الاعتبار الظروف التى نظمت فيها هذه النقائض، والتى اتسمت بالعجالة وسرعة التوالي. وقد تكون أسباب هذا الخلاف راجعة إلى الرواة، فمثلاً قصيدة كعب ابن مالك التي مطلعها :[٢]

ألا هل أتى غسّان عنّا ودونَهم   من الأرض خرْقٌ سيرُه مُتَنَعْنَعُ

فقد أوردها ابن هشام على رواية ابن إسحاق، بأنها إجابة لقصيدة هبيرة بن أبي وهب، التي مطلعها :[٣]

ما بال همٍّ عميدٍ باتَ يطرُقُني   بالوُدِّ من هندَ إذ تعدُو عَوَادِيها

فاختلاف القافية بينهما واضح، وكذلك اختلاف الوزن، فقصيدة كعب من بحر الطويل، بينما قصيدة هبيرة من البسيط. هذا إلى ما أشرنا إليه ــ فى عرضنا لقصيدة كعب[٤] ــ من أنه ذكر فيها صراحة أنه يرد على ابن الزبعري، ولم يذكر اسم هبيرة

(١) انظرها فى السيرة ق ٢ ص ١٨ (رد الحارث بن هشام)، ص ١٣٢، ١٤٧ (نقيضتان لكعب)، ص ٤٨١ (رد كنانة بن عبد ياليل)، ونقيضتان تختلفان فى حركة حرف الروى عن مقابلتيهما، الأولى لبديل بن أم أصرم ص ٤٢٥. والثانية لعبد الله بن وهب ص ٤٧٧.

(٢) السيرة ق ٢ ص ١٣٢. وديوان كعب ص ٢٢٢.

(٣) السيرة ق ٢ ص ١٢٩.

(٤) انظر الفصل الثالث من هذا البحث ص ٦٢.

فيها إطلاقاً، ومع ذلك، فقد رواها الرواة الذين أخذ عنهم ابن إسحاق ثم ابن هشام على أنها رد على هبيرة.

وكذلك قصيدة كعب التى مطلعها :[1]

أبلغْ قريشاً وخيرُ القول أصدقُه   والصدقُ عند ذَوِى الألباب مقبول

فقد أوردها ابن هشام عند ابن إسحاق على أنها رد على ثلاث قصائد، منها اثنتان لضرار بن الخطاب[2]، وهما على وزن البسيط مثل قصيدة كعب، ولكن أولاهما عينية وثانيتها على القاف، أما الثالثة فهى لعمرو بن العاص[3] من مجزوء الكامل، ورويها الواو بعدها ألف مطلقة. وقصيدة كعب وإن اتفقت مع قصيدتي ضرار فى الوزن، إلا أنها اختلفت قافيتها عن القصائد الثلاث، ولعل اعتبارها رداً على تلك القصائد، قام على أساس أنها تناولت معاني الفخر التى تضمنتها قصائد ضرار وعمرو بعد أحد، وفندتها ووهنتها، ثم قابلتها بفخر مماثل، وعلى كل فهذا يعطينا دليلاً على ما قلناه من العجالة وسرعة توالي النقائض، وخاصة فى هذا الظرف إثر أحد.

أما من حيث الأوزان التي نظم فيها شعراء السيرة نقائضهم، فهي تدور فى ثمانية بحور من أوزان الشعر العربي المعروفة، وهي الطويل والكامل والوافر والبسيط والمتقارب والخفيف والسريع والرمل، وهى نفس البحور التى شاعت عند الجاهليين[4]. والتى تتسم بطول النفس، هذا إلى جانب بحور أخرى نظموا فيها على قلة كالرجز والمنسرح والهزج. وليس غريباً أن يتشابه شعراء السيرة مع الجاهليين في نظمهم، فهم امتداد طبيعي لهم. ثم إن مجال المناقضات، وما فيه من منافرة ومناظرة، يتطلب طول النفس فى الإنشاد[5].

وإذا كانت هناك بعض العيوب الموسيقية من الزحافات والعلل في أشعار هذه

---

(١) السيرة ق ٢ ص ١٤٧ وديوان كعب ص ٢٥٥.
(٢) السيرة ق ٢ ص ١٤٥.
(٣) نفســـه ص ١٤٦.
(٤) تاريخ الأدب العربى لبروكلمان ص ٥٣.
(٥) موسيقى الشعر لابراهيم أنيس ص ١٩١.

النقائض، فهذا أمر طبيعي أيضاً يتشابهون فيه مع الجاهليين، وإن كان لشعراء السيرة عذرهم في ظروف الصراع الذي عاشوا فيه، وما صاحبه من تعجل وسرعة وعفوية وارتجال. فهي عيوب لا تقدح في قيمة شعرهم وفنيته، بل إنه مع ذلك، يعد أسلم من سابقه الجاهلي فى أوزانه وأقوم منه[1].

ومن حيث القافية التي تمثل جزءاً مهماً من الموسيقى الشعرية، وتعد أهم البقايا التي احتفظ بها الشعر من ظاهرة الغناء والموسيقى، كما يقول الدكتور شوقي ضيف [2]. فقد أحسن شعراء نقائض السيرة استخدامها، إلا أنه ظهرت عندهم بعض عيوبها مثل «السناد» وهو اختلاف الحروف في قوافي القصيدة قبل حرف الروى، من ذلك مثلا قول حسان :[3]

تفاقدَ مَعشرٌ نصروا قريشاً ... وليس لهم ببلدتهِم نصيرُ

إذ يقول بعده :

هم أُوتوا الكتابَ فضيَّعوه ... وهمْ عمْيٌ من التوراة بور

فاختلف الحرف الذي قبل الروى، فهو في البيت الأول (ياء) وفي الثاني (واو) ومثل ذلك من السناد كثير في النقائض التي يكون رويها مسبوقاً بحروف اللين من الواو والياء خاصة. حتى إننا نعده ظاهرة طبيعية عند هؤلاء الشعراء ويبدو أنهم لم يكونوا يرونه عيباً يقدح في نظمهم.

ومن عيوب القافية عندهم أيضاً «الإيطاء» وهو تكرار كلمة بعينها في أواخر أبيات القصيدة، فهذا التكرار يوحي بافتقار الشاعر إلى الثروة اللفظية، وعجزه عن الإتيان بلفظة جديدة تناسب قافية القصيدة، فيضطر إلى تكرار لفظة استخدمها في بيت سابق من قصيدته، من ذلك مثلا قول ابن الزبعري في قصيدة له:[4]

---

(١) الشعر الإسلامي في صدر الإسلام ص ١٢٩.
(٢) العصر الجاهلي ص ١٩٤.
(٣) السيرة ق ٢ ص ٢٧٢، وديوان حسان ص ٢٥٣.
(٤) السيرة ق ٢ ص ١٣٦ — ١٣٧.

صادقِ النَّجدةِ قَرْمٍ بارعٍ غيرِ مِلْتاثٍ لدى وَقْعِ الأسَلْ

وبعد بيت واحد يقول :

ليت أشياخي ببدرٍ شهِدُوا جزعَ الخزرج من وقْع الأسَلْ

فهو يكرر الكلمة ذاتها في آخر البيتين، ولما يفصل بينهما سوى بيت واحد، بل إنه يكرر كلمتين، ولو أن الفارق بين البيتين متباعد، يزيد على سبعة أبيات كما يرى بعض العلماء، لكان ذلك مخففاً لسوء هذا العيب.

وعلى العموم. فالإيطاء قليل في نقائض السيرة، يخلو معظمها منه، ولا يشكل عيباً ظاهراً إلا في بعض حالات، نجدها خاصة عند شعراء قريش[1].

وتمثل الألفاظ والأساليب جانباً مهماً من الشكل الفني للشعر، وهى فى نقائض السيرة لها سماتها المميزة، التى طبعتها طوابع تلك الحقبة الزمنية القصيرة من أحداث متوالية سريعة، ومتغيرات طارئة محدثة، ومشاركات كثيرة لعديد من الشعراء، الذين تتفاوت مواهبهم وقدراتهم الإبداعية تفاوتاً ملحوظاً، فهم بين شعراء متمكنين ذوي موهبة وتمرس ودراية، كحسان وكعب وابن الزبعري، ومن يقاربهم، وبين أشخاص عاديين ليس لهم ذكر فى عداد الشعراء، وإنما دفعتهم الظروف إلى اقتحام ميدان المناقضات، دفاعاً عن مواقف خاصة أو جماعية، وقد تعددت أسماؤهم فيما عرضناه من نقائض خلال مراحلها المتتابعة. وإزاء هذا التفاوت يبدو من الصعوبة بمكان أن نستخلص سمات جامعة تتمثل لدى كل هؤلاء وهؤلاء، ومن ثم نحاول جهدنا أن نستجلي السمات العامة المتقاربة، أو الغالبة الشائعة لدى أكثرهم.

وشعراء هذه النقائض كانوا على صلة وثيقة بالشعر الجاهلي كما عرفنا، إلا أنهم — فى غالبهم — شعراء حاضرة، وليسوا شعراء بادية، ولذلك كانوا — بطبيعة بيئتهم — لا يميلون إلى استخدام الألفاظ الغريبة والحوشية، التي كثيراً ما نلقاها فى أشعار المتبدين، فلا يكاد يصادفنا فى نقائض السيرة من تلك الألفاظ شيء إلا من قبيل

---

(١) انظر أمثله أخرى من الإيطاء في نقيضة لابن الزبعري بالسيرة ق ٢ ص ١٤٢، ونقيضتين لضرار ص ١٤، ١٤٥ — ١٤٦.

الندرة، من ذلك مثلاً قول كعب في وصف الخيل :[1]

عُلِفتْ على دَعةٍ فصارت بُدَّناً دُخْسَ البَضِيعِ خفيفةَ الأقْصاب

فكلمة دخس بمعنى كثيرة اللحم، والبضيع بمعنى اللحم، والأقصاب بمعنى الأمعاء. وهي كلمات قد تبدو غريبة علينا، ولكنها ليست كذلك بالنسبة لعصره، ثم إنها لا تقاس في غرابتها بما نجده عند الجاهليين، أو المتبدين منهم، وعلى أي حال فمثلها نادر فيما لدينا من نقائض السيرة. ولا يصادفنا منها ما يصل إلى درجة الحوشية والثقل.

والظاهرة البارزة في أشعار هذه النقائض هو شيوع الألفاظ الإسلامية بمضامينها الجديدة، وخاصة عند الشعراء المسلمين، منها ألفاظ في أسماء الله الحسنى وصفاته، كالرب والرحمن والواحد والصمد والعزيز والوهاب والغفور والرءوف وذي الجلال وذي العرش وعالم الغيب وما إليها، ومنها أسماء وصفات للنبي صلى الله عليه وسلم كأحمد والمصطفى والمختار والهادي والبشير والنذير ونحوها، ومنه ألفاظ للدلالة على القرآن، كالوحي والتنزيل والفرقان والبرهان والهدى وما إلى ذلك، ومنها ألفاظ لها دلالاتها العقيدية، كالإيمان والكفر والإشراك والنفاق والجنة والنار والجهاد والاستشهاد ويوم القيامة والحساب والملائكة، وما يدور في هذا الإطار، والأمثلة كثيرة نذكر منها قول كعب بن مالك :[2]

عجِبتُ لأمرِ اللهِ واللهُ قادر على ما أرادَ ليس للهِ قاهرُ

شَهِدنا بأن اللهَ لا ربَّ غيره وأن رسولَ اللهِ بالحق ظاهر

وقول حسان يقارن بين مصير حمزة ومصير قتلى قريش :[3]

فإن جنانَ الخُلد منزلةٌ له وأمرُ الذى يقضِى الأمورَ سريعُ

---

(1) السيرة ق ٢ ص ٢٦٠، وديوان كعب ص ١٧٩.

(2) السيرة ق ٢ ص ١٤، وديوان كعب ص ٢٠٠.

(3) السيرة ق ٢ ص ١٤٣، وديوان حسان ص ١٠٠.

وقـتـلاكُـمُ فـى الـنـارِ أفـضـلُ رزقـهـم حـمـيـمٌ مـعـاً فـى جـوْفِـهـا وضَـريـع

وغير ذلك كثير شائع في نقائض الشعراء المسلمين، يمكننا أن نلحظه بسهولة فيما عرضنا له منها فى الفصول السابقة.

أما من حيث الصحة اللغوية للألفاظ فى هذه النقائض، وسلامتها من الشذوذ عن القواعد الصرفية والنحوية، فينبغي ـ ابتداء ـ أن نضع نصب أعيننا حقيقة مهمة، أخذ بها جمهور العلماء، وأشار إليها الفرزدق، وهي أن العرب الأوائل هم واضعو اللغة، فعلينا نحن التأويل والتعليل[1]. وهذا يعني أنهم لا يخطئون فى لغتهم، لأنهم أصحابها. وأن ما قد يخرجون فيه على قواعد النحاة ـ التى وضعت فيما بعد ـ هو صحيح، وإن كان لا يقاس عليه فى رأي بعضهم.والظاهرة التي نراها فى ألفاظ هذا الشعر وفى أساليبه، ويراها معنا بعض الباحثين فى الشعر الإسلامى[2]، أنه يقل فيه الشذوذ واللجوء إلى الضرورات قلة ملحوظة، وأنه فى ذلك أكثر سلامة وأقوى صحة من سابقه الجاهلي.

وعلى أساس من هذه السمات اللفظية التى رأيناها، قامت أساليب نقائض السيرة، واستقامت صياغتها، فكانت أقرب إلى السلاسة والسهولة، لتجنب حوشى الألفاظ وغريبها، والبعد عن الشذوذ والتواء التراكيب، ولا يعني ذلك أنها فقدت قوة إحكامها وجزالة صياغتها، وجودة عبارتها، بل إنها احتفظت بهذه الخصائص فى كثير من أشعارها. وخاصة ما كان منها بعيداً عن شكوك الوضع والنحل، كتلك النقائض التى عرضنا لها فى الفصل الثاني، والتى نسبت إلى أبى بكر الصديق وحمزة والحارث ابن هشام وغيرهم. وهى على أي حال قليلة لا تمثل خطراً يذكر إلى جانب النقائض الصحيحة الكثيرة، التي تمثل الغالبية العظمى، أو النسبة الكبرى، والتي نقيم عليها دراستنا للخصائص الفنية.

وتتمثل هذه الخصائص الأسلوبية الجامعة بين السلاسة وإحكام النسج، وبين السهولة وجزالة الألفاظ وفخامة العبارات، فى كثير من نقائض السيرة، نذكر منها على سبيل المثال قول هبيرة بن أبى وهب ـ من نقيضة له ـ مفتخراً :[3]

(١) تاريخ النقد الأدبى عند العرب ص ٥٢.

(٢) الشعر الإسلامى فى صدر الإسلام ص ١٠٧.

(٣) السيرة ق ٢ ص ١٣١. الشزن: الطعن عن يمين وشمال. المآقي: مجارى الدموع فى العين، وأيضاً بمعنى المقدمات. يصطلي: يستدفئ بالنار. النقري: أن تدعو قوماً دون قوم، يقال: هو يدعو الجفلى، إذا عم، وهو يدعو النقري إذا خص. القريس: البرد مع الصقيع.

قد نَبذُلُ المالَ سَحّاً لا حساب له ... ونَطعنُ الخيلَ شزْراً فى مآقِيها

وليلةٍ يصطلِى بالفَرْثِ جازرُها ... يختصُّ بالنَّقَرَى المُثرين دَاعِيها

لا ينبحُ الكلبُ فيها غيرَ واحدةٍ ... من القَرِيسِ ولا تَسْرِى أفاعِيها

أوْقدتُ فيها لذى الضرَّاءِ جاحِمةً ... كالبرقِ ذاكيةَ الأركانِ أحميها

فهو مع استخدامه لألفاظ جزلة فخمة، وصوغه لعبارات محكمة مشبعة بالفصاحة، لم يفقد الوضوح ونصاعة البيان، وعبر عن صفات الكرم والبذل والشجاعة فى سلاسة منسابة جذابة.

ومثل آخر من نقيضة لكعب بن مالك، تتجلى فيه تلك الخصائص، يقول:(1)

إنّا بنو الحربِ نَمْرِيها ونَنْتُجها ... وعندنا لذوى الأضْغانِ تَنْكيلُ

إن ينجُ منها ابن حربٍ بعد ما بلغتْ ... منه التَّراقِى وأمرُ اللهِ مفعول

فقد أفادتْ له حِلماً وموعظةً ... لمن يكونُ له لُبٌّ ومعقول

ولو هَبَطتُمْ ببطنِ السيلِ كافَحكمْ ... ضربٌ بشاكلةِ البطحاءِ تَرْعِيل

تلقاكُمُ عُصَبٌ حولَ النبيِّ لهمْ ... مما يُعِدُّون للهَيْجا سَرابِيل

ومع وجود بعض الألفاظ التي تحتاج إلى شرح وتوضيح فى كلا النموذجين، إلا أنها ليست من قبيل الغريب الحوشى، وإنما هي ألفاظ كثيرة الورود فى أشعار القدماء، ولا يشكل استخدامها شيئاً من الغموض، وخاصة إذا وضعنا فى الاعتبار فارق المستوى اللغوي بين عصرنا وعصر السيرة.

ولو راجعنا ما عرضنا له من النقائض فى الفصول السابقة، لوجدنا تمثل هذه الخصائص الأسلوبية فى أغلب أشعارها بصورة جلية واضحة. ولكن إلى جانب ذلك كانت هناك أشعار فقدت هذه الخصائص، ومالت بها السهولة إلى ليونة فى الألفاظ

(1) السيرة ق ٢ ص ١٤٨، وديوان كعب ص ٢٥٦. نمريها: نستدرها. ننتجها: نولدها، تشبيهاً لها بالناقة. التراقي: عظام الصدر العليا. شاكلة: طرف. ترعيل: ضرب سريع. الهيجا: الحرب. سرابيل: جمع سربال وهو الدرع.

والتراكيب، وضعف فى إحكام نسجها، وتسطيح يصل بها إلى التهافت والنثرية ويفقدها قوة الجذب الشعرية، من ذلك مثلاً ما نراه فى نقيضة لحسان، يتحدث فيها عن أحداث غزوة الخندق :[1]

حتى إذا وَرَدُوا المدينةَ وارتَجَوْا	قتلَى الرسولِ ومَغْنَمَ الأسلابِ
وغدَوْا علينا قادرينَ بأيدِهِمْ	رُدُّوا بغيظِهِمُ على الأعْقاب
بهُبوبِ مُعصِفةٍ تُفرّقُ جمعَهم	وجنودِ ربّك سيّدِ الأرْباب
فكفى الإلهُ المؤمنينَ قتالَهمْ	وأثابَهمُ فى الأجرِ خيرَ ثواب
من بعد ما قَنَطوا ففرّق جمعَهم	تنزيلُ نصرِ مليكِنا الوهّاب

وأيضاً قول ضرار بن الخطاب، من نقيضة له فى الغزوة نفسها :[2]

فلولا خندقٌ كانوا لديْه	لدمّرْنا عليهم أجمعينا
ولكن حالَ دونَهمُ وكانوا	به من خوْفِنا مُتعَوِّذينا
فإن نَرحلْ فإنّا قد تَركْنا	لدى أبياتِكم سعداً رَهينا
إذا جُنَّ الظَلامُ سمعتُ نَوْحَى	على سعد يرجِّعنَ الحنينا
وسوف نزورُكمْ عمّا قريبٍ	كما زرناكمُ مُتَوازرينا

فنثرية الأسلوب واضحة فى أبيات الشاعرين، وليس فيها من عناصر الشعر إلا الوزن والقافية، أما فنية الشعر وجاذبيته فلا نستشعر منها شيئاً، ومن ثم كان الضعف بادياً عليها، والعلة الجامعة بين الشاعرين فى ذلك، هو أنهما قد شغلا بحكاية الأحداث وسردها، دون أن يتأنيا فى تأملها وصهرها فى قالب شعري فني، يجمع بين إحكام النسج وبراعة التصوير، فذكرها حسان من وجهة نظر إسلامية متأثرة بآيات القرآن الكريم، التي عرضت لهذه الواقعة وصورتها[3]، دون أن يبذل جهداً فى طبعها

(١) السيرة ق ٢ ص ٢٥٨، وديوان حسان ص ١٢٠.
(٢) السيرة ق ٢ ص ٢٥٥.
(٣) انظر سورة الأحزاب آيات ٩، ٢٢ ــ ٢٥.

بطابعه الشعري المعروف، وكذلك ذكرها ضرار من وجهة نظر معادية للإسلام، دون جهد منه فى إضفاء الشاعرية عليها.

إذن فالانشغال بحكاية الأحداث من ناحية، والتعجل والارتجال فى صياغتها شعراً من ناحية أخرى، هما السببان الرئيسيان فى ذلك الضعف الأسلوبي وتلك النثرية المتهافتة، وهما اللذان نجدهما غالباً وراء هذه الظاهرة التى اعترت بعض النقائض، أو بعض أجزاء منها. ولكننا لا ينبغي أن نتصورها ظاهرة شائعة الوجود فى نقائض السيرة، فهى على أي حال قليلة محدودة، لا تقاس بما ذكرناه من غلبة جودة الأساليب، وجزالة الألفاظ، وسلاسة البيان، وإحكام التراكيب، على الأكثرية من هذه النقائض.

أما ما أثاره العلماء والباحثون قديماً وحديثاً عن تأثير الإسلام في الشعر، واعتباره عاملاً فيما اعتراه من ليونة وضعف، فإنه يمس هذه النقائض أو جانباً منها بطبيعة الحال، والأصمعي هو أول من أثار هذه القضية حسب ما أوردت المصادر، فقد روى ابن قتيبة قوله «الشعر نكد بابه الشر، فإذا دخل فى الخير ضعف، هذا حسان فحل من فحول الجاهلية، فلما جاء الإسلام سقط شعره»[١]. وقريب من ذلك أيضاً ما رواه له صاحب الموشح[٢]. وما أورده صاحب الاستيعاب، الذى أضاف خبراً يحمل إقرار حسان بما أصاب شعره من لين وضعف فى الإسلام، إذ قيل له: «لان شعرك — أو هرم — فى الإسلام يا أبا الحسام. فأجابه: يا بن أخي، إن الإسلام يحجز عن الكذب، وإن الشعر يزينه الكذب»[٣] وقد علق ابن الأثير على ذلك بقوله: «يعني أن الإجادة فى الشعر هو الإفراط فى الذي يقوله، وهو كذب يمنع الإسلام منه، فلا يجيء الشعر جيداً»[٤].

وهذه الأقوال التي دارت حول شعر حسان الإسلامى، تنطبق أيضاً على شعر

---

(١) الشعر والشعراء جـ ١ ص ٢٦٥.
(٢) الموشح ص ٦٢.
(٣) الاستيعاب جـ ١ ص ٣٤٦.
(٤) أسد الغابة جـ ٢ ص ٥.

غيره من الشعراء المسلمين. إلا أن إطلاق الأحكام على عواهنها بهذه الصورة لا يقودنا إلى الرأى السليم، والباحث المدقق لا يقر بحكم إلا من خلال تفحص واستقراء لكل النصوص التي يقوم عليها بحثه. وعلى أساس من ذلك رأينا أن الجانب الإسلامى فى نقائض السيرة لم يصبه اللين والضعف بهذه الصورة المطلقة. وإنما كان فى حدود ضيقة ونصوص قليلة، كما أوضحنا. ولعل ما تستدعيه المناقضات من موقف نفسي متحمس فى الرد والمنافحة عن الإسلام، كان عاملاً فى قوتها أكثر من غيرها من الأشعار الإسلامية. ويذهب الدكتور النص إلى أن مناقضات حسان مع شعراء المشركين أرقى فنياً من مناقضاته مع شعراء الأوس فى الجاهلية، وأن أسلوبه فيها جاء أرصن وأشد إحكاماً منه فى نقائضه الجاهلية[1]. كما يرد الدكتور شوقي ضيف السبب فيما يشيع فى بعض الأشعار المنسوبة إليه من ركاكة وهلهلة إلى كثرة الوضع فيه، لا لأن شعره لان وضعف فى الإسلام كما زعم الأصمعي[2]. بل إن الأصمعي نفسه يقر ذلك فى قول آخر له، حين شهد بفحولة شعر حسان، فقال له أبو حاتم السجستاني: تأتي له أشعار لينة، فأجابه الأصمعي: تنسب إليه أشياء لا تصح عنه[3].

وفيصل القول الذي يؤكد ما نراه فى هذه القضية، هو ما أمامنا من نصوص هذه النقائض الإسلامية، والتى تتمثل فيها قوة الأساليب وإحكامها، على نحو ما نجد في مناقضة حسان لابن الزبعري في غزوة أحد، مسترجعاً ذكر نصر بدر، يقول :[4]

ضاق عنا الشِّعب إذ نجزَعُه ... وملأنا الفَرْطَ منه والرَّجَلْ

برجالٍ لستمُ أمثالَهم ... أيَّدوا جبريلَ نصراً فنزل

وعَلَوْنا يومَ بدرٍ بالتُّقى ... طاعةِ اللهِ وتصديقِ الرُّسُل

وقتلنا كل رأسٍ منهم ... وطعَنَّا كل جَحْجاحٍ رِفَل

---

(١) حسان بن ثابت — حياته وشعره — ص ٢٨٢ — ٢٨٣.

(٢) العصر الإسلامى ص ٨١.

(٣) الاستيعاب جـ ١ ص ٣٤٦.

(٤) السيرة ق ٢ ص ١٣٨ وديوان حسان ص ٩٤. نجزعه: نقطعه عرضاً. الفرط: ما علا من الأرض. الرجل: جمع رجلة وهو المطمئن من الأرض. الجحجاح: السيد. الرفل: الذى يرفل فى ثيابه خيلاء. التنابيل: القصار اللئام. الهبل: كثيرو اللحم.

ورســـولُ اللـــهِ حـــقـــاً شـــاهـــدٌ   يـــومَ بـــدرٍ والـــتـــنـــابـــيـــلُ الـهُـبُـل

فـهـذه أبـيـات من النقيضة يظهر فيها التأثير الإسلامي بصورة واضحة، ومع ذلك لا تـفـقـد قـوتهـا ورصانتها، بل تسير على منوال النقيضة كلها في تدفق حماسي، وإحكام أسلوبي، وبيان متألق.

ومن ذلك أيضاً أبيات لكعب بن مالك من نقيضة له في يوم أحد :[1]

وفـيـنـا رسـولُ اللـهِ نـتـبـعُ أمـرَه   إذا قـال فـيـنـا الـقـولَ لا نـتـطـلَّـع

تَـدلّـى عـلـيـه الـروحُ من عـنـد ربِّه   يُـنــزَّلُ مــن جــوِّ الـسـماءِ ويُـرفـع

نُـشـاوِرُه فيما نـريـدُ وقـصْـرُنـا   إذا مـا اشتهى أنـا نُـطيعُ ونَسمع[2]

وقـال رسـولُ الله لمـا بـدَوْا لـنـا   ذرُوا عـنـكـمُ هولَ المنيّاتِ واطمعوا

وكـونـوا كـمـن يَشْرِي الحياةَ تقرُّباً   إلـى مـلـكٍ يُـحـيـا لـديْـه ويُـرجـع

ولـكـن خـذُوا أسـيـافَـكـم وتـوكّـلوا   عـلـى الله إن الأمـرَ لـلـهِ أجـمـع

فـهـذه الأبيات مع تشبعها بالروح الإسلامية، تبدو قوية التماسك، محكمة النسج، مع سهولة التناول وسلاسة البيان. وقد بعث فيها الموقف نبضات روحية وحماسية متدفقة، أكسبت الأسلوب قوة تأثير وشدة جذب.

فـالـتـأثير الإسـلامـي إذن لم يكن عاملاً فيما اعترى بعض أشعار هذه النقائض من ضـعـف الأسـلـوب ولـيـونته، وإنما مرد ذلك إلى العاملين اللذين أشرنا إليهما من قبل، وهمـا الـتـعـجـل والارتجـال من ناحية، والانشغال بحكاية الأحداث وسردها من ناحية أخرى.

---

(١) السيرة ق ٢ ص ١٧٢، وديوان كعب ص ٢٢٤.

(٢) يرى الدكتور الحامد في كتابه «الشعر الإسلامي» ص ٤ «أن لفظ اشتهى» هنا مبتذل. ولست معه في ذلك لأن هذا اللفظ ورد في القرآن الكريم.

٢ ـ خصائص المضمون :

رأينا فى عرضنا لنقائض السيرة خلال مراحلها المتتابعة، أنها دارت حول موضوعات معينة، تركزت أساساً فى الفخر والهجاء والرثاء، ووصف معارك الحرب وعدتها وأسلحتها، وأن الشعراء كانوا يستمدون معانيهم وأفكارهم من وقائع الأحداث الجارية، ومن معرفتهم بتراثهم الأدبي الجاهلي، ثم من المفاهيم الجديدة التي جاء بها الإسلام.

والشاعر لا يسوق مضامين شعره فى صورة مجردة، وإنما يصبها فى قوالب فنية ليبلغ بها درجة التأثير والجذب والإعجاب فى نفوس مستمعيه. وهو لهذا يهيم محلقاً بين الخيال والواقع، ليتصيد لمعانيه صورها الفنية الملائمة، بقدر ما تسعفه موهبته ومقدرته الإبداعية. وفى سبيل بلوغه لهذه الغاية يتخذ من المجاز وسيلة لتعبيره عن مشاعره وتصوراته، فالمجاز تكييف لغوي هام للشعور الحقيقي، بحيث تبعد المسافة بين الشعور وما انتهى إليه[١]. ولابد للإنسان ـ شاء أم لم يشأ ـ أن يتكلم به، لا من أجل أنه لم يستطع أن يكبح جماح خياله، بل لأنه بذل غاية الجهد ليظفر بالتعبير الملائم لحاجاته الروحية المتزايدة.

والأساس النفسي فى المجاز هو وضع صورة أو معنى أو حالة مكان أخرى. وتندمج فى المجاز فكرتان ـ تدل الكلمة عليهما ـ بدلاً من فكرة واحدة، فأساسه المعنى المزدوج، ولذا يسميه بعضهم الشعور المزدوج. ومرجع هذا الاندماج أو المزج إلى الخيال والوجدان، ثم إلى إبراز عملهما بصورة لغوية، والشعور المجازي راجع إلى أصلين: عمل العقل الباطن، وما يصوره الخيال[٢].

والخيال قوة لا تسير الحياة العقلية بدونها، وله فى الفن عامة، وفى الأدب خاصة قيمة كبيرة، وذلك أن الفن كالمرآة التى نرى فيها صور الحقائق وظلالها، لا الحقائق نفسها. والشاعر يحاول إظهار ما يشعر به، لا ما يراه أو يسمعه، فهو إنما يعبر عما ارتسم على صفحات نفسه من رؤى، و يعمد إلى تصوير الأثر الذي أحس به خلالها.

---

(١) دراسة الأدب العربى ـ د. مصطفى ناصف ـ ص ٣١٨.

(٢) الأصول الفنية للأدب ـ د. عبد الحميد حسن ـ ص ١١٩ ـ ١٢٠.

والميل إلى التصوير فطري في الإنسان، فهو بطبيعته شغوف بأن ينقل إلى غيره ما رآه من مشاهد، أو تعرض له من تجارب. وكانت وسيلة الشعب العربى إلى ذلك بالتعبير الشعري، يقول ابن طباطا: «والعرب قد أودعت أشعارها من الأوصاف والتشبيهات والحكم، ما أحاطت به معرفتها، وأدركه عيانها، ومرت به تجاربها، وهم أهل وبر، صحونهم البوادى، وسقوفهم السماء، فليست تعدو أوصافهم ما رأوه منها وفيها... فتضمنت أشعارها من التشبيهات ما أدركه من ذلك عيانها وحسها، فشبهت الشىء بمثله تشبيهاً صادقاً على ما ذهبت إليه فى معانيها التى أرادتها»(١).

وقد شاع التصوير فى شعر النقائض، للتعبير عن المعاني والأفكار، والوصول بها إلى التأثير المرجو. إلا أن الشعراء لم يخرجوا فى تصوراتهم وخيالاتهم عن حدود بيئتهم، وما يرونه من حولهم. فلم يستطع الشاعر منهم أن يبعد فى خياله، أو يتعمق فى تصوره، ليصل إلى مركبات من الصور المعقدة. بل كانت صوره وأخيلته حسية قريبة، ولذا اتسمت بالوضوح والبساطة، فلا غموض فيها، ولا أشراك ذهنية نضل في تعقيداتها ودروبها. ولعل ظروف الصراع والحياة القلقة التي كان يعيشها، ساعدت على دفعه إلى العالم المحسوس المحيط به، لينتزع منه الصور التى تعينه على نقل انفعالاته، وترجمة أحاسيسه، والإعراب عن آرائه وحججه. كما أن طبيعة هذه الحياة قد حصرت معانيه وأفكاره فى دائرة محدودة، لم يستطع أن يخرج عليها أو يتعدى حدودها.

ومثل هذا الخيال المحدود ــ الذي عده بعض النقاد عيباً ــ كانت له جوانب إيجابية طيبة، إذ حمل الشعراء على التفنن فى عرض الصورة الواحدة، ومحاولة جلائها بطرق متعددة، فكل منهم يجهد فى صبغها بلون من ألوان الطبيعة المحيطة به، أو وضعها فى إطار من أطرها، ويحرص على أن يضفي عليها لمسات من ذاته، لتبدو معبرة عن شخصيته بقدر ما يستطيع.

ونتناول بعض هذه الصور عند شعراء النقائض لنتبين طريقة عرضهم لها؛ فصورة الخيل مثلاً عند هبيرة بن أبي وهب :(٢)

(١) عيار الشعر ص ١٠ ــ ١١.
(٢) السيرة ق ٢ ص ١٣٠.

كـأنـه إذ جـرَى عَـيْـرٌ بـفَـدْفَـدةٍ مُـكَـدَّمٌ لاحـقٌ بـالـعُـون يَـحـمِـيـا

فهو يشبه فرسه فى جر يه بالحمار الوحشي المعضض، الذي يجري فى الفلاة على أشد سرعة، ليلحق بإناثه من الحمر، و يقوم على حمايتها من أى خطر يتهددها.

وصورتها عند ابن الزبعري :[1]

مـن كـلّ سَـلْـهـبـةٍ وأجـردَ سـلْـهـبٍ كـالـسِّـيـد بـادرَ غـفْـلـةَ الـرقّـاب

فهو يصفها بالأصالة فى طول أجسامها وشدة سرعتها، و يشبهها فى ذلك بالذئاب التي تنقض على فرائسها منتهزة غفلة الرقاب عنها.

وصورتها عند كعب بن مالك قر يبة من ذلك، وإن اختلفت جزئياتها:[2]

ونـزائـعـاً مـثـل الـسِّـراح نمـىَ بهـا عـلـفُ الـشـعير وجِـزّةُ الـمِـقْـضـاب

فـهـو يـشبهـهـا كذلك بالذئاب، ولكن التشبيه عنده مطلق دون تحديد كما هو عند ابن الز بـعـري، وهـو يعني به سرعتها وإن لم يصرح بذلك. أما وصفه لجودتها وأصالتها فقد نحـا فـيـه منحى آخر، إذ جعلها منتقاة من ديار أخرى، ومعتنى بعلفها وتغذيتها لتكون تامة النمو قو ية الأجسام.

وصورتها عند ضرار بن الخطاب :[3]

بـكـلّ مُـجـلّـحـةٍ كـالـعُـقـاب وأجـردَ ذى مَـيْـعـةٍ مُـسـرِج

يعنى كل فرس ماضية متقدمة كأنها طائر العقاب، ثم أضاف إليها صفات أخرى من الأصالة والقوة والنشاط.

وصورتها عند عمرو بن العاص :[4]

---

(١) نفســـه ص ٢٥٨.

(٢) نفســـه ص ٢٥٩، وديوان كعب ص ١٧٨.

(٣) السيرة ق ٢ ص ١٤٠.

(٤) نفســـه ص ١٤٧.

رَبِـذٍ كـيَـعْـفـورِ الـصَّـريـ ـمـةِ راعَـه الـرامـون دَحّـوا

يصف الفرس بأنه سريع كولد الظبية المرتاع الفزع من رمي الرماة له في رملة منقطعة، فهو يبذل أقصى جهده في الإسراع للنجاة.

وفي صورة أخرى عند كعب بن مالك :(١)

وخيلٌ تراها في الفضاء كأنها جرادُ صباً في قَرَّةٍ يتَريَّعُ

وهو هنا يصف كثرتها وانتشارها في الفضاء، فيشبهها بجراد كثيف ساقته ريح الصبا. وتكثر حركته ذهاباً وجيئة في طقس بارد. فلم يكن شاغله في هذا الوصف سرعة الخيل أو أصالتها كما في الصور السابقة.

إلا أن ضيق الدائرة على الشعراء، ودورانهم في إطار محدود من المحسوسات المادية حولهم جعلهم يكررون الصور ويعيدون صوغها، فمثلاً تشبيه الدرع بغدير الماء نجده عند ابن الزبعري في قوله :(٢)

نشدُّ علينا كلَّ زَغْفٍ كأنها غديرٌ بضَوْجِ الواديَيْن نَقيع

ونجده عند كعب بن مالك في قوله :(٣)

وكلّ صموتٍ في الصوانِ كأنها إذا لُبست نِهْيٌ من الماء مُترع

ونجده عند هبيرة بن أبي وهب في قوله :(٤)

هذا وبيضاءُ مثل النِّهْيِ محكمةٌ نِيطت علَيَّ فما تبدُو مساويها

وهذا التكرار لا يكون بين شعراء متعددين فحسب، بل يحدث عند الشاعر نفسه

(١) نفسه ص ١٣٤، وديوان كعب ص ٢٢٦.
(٢) السيرة ق ٢ ص ١٤١.
(٣) نفسه ص ١٣٣، وديوانه ص ٢٢٣. والصموت: الدرع المحكمة. والنهي: الغدير.
(٤) السيرة ق ٢ ص ١٣٠.

في مواضع متعددة من نقائضه. فهذه الصورة للدرع يكررها كعب بن مالك في نقيضة أخرى فيقول :[1]

فى كلّ سابغةٍ كالنِّهي مُحكمةٍ قيامُها فَلَجٌ كالسيفِ بُهلول

وفى نقيضة أخرى أيضاً يقول :[2]

ترانا فى فضافضَ سابغاتٍ كغُدرانِ المَلا مُتَسَربلينا

ومثل هذا التكرار نجده كذلك فى صور أخرى للسيف أو للرمح أو لوصف الجيش وشجاعة المقاتلين، وصرعى القتال، وما إلى ذلك من صور تستدعيها موضوعات النقائض، والتي يمثل وصف معارك الحرب موضوعاً رئيسياً فيها.

وكان التصوير وسيلة أساسية من وسائل التعبير عند شعراء النقائض، ولذا أكثروا من التشبيهات والاستعارات والكنايات، إلا أن التشبيه كان أكثرها، لأنه أبسط أشكال الصنعة الفنية، ولا يتطلب جهداً ومعاناة، أو بعداً فى الخيال، وعمقاً فى التصوير، فهو لون مفرد، بل هو صبغ من أصابغ لون مفرد، وهو لون التصوير[3]. ومع ذلك، فهو كما يقول قدامة: «من أشرف كلام العرب، وفيه تكون الفطنة والبراعة عندهم، وكلما كان المشبه منهم فى تشبيهه ألطف، كلما كان بالشعر أعرف، وكلما كان بالمعنى أسبق كان بالحذق أليق»[4]. والشعر ـــ كما يقول سيدني ـــ يقوم على صناعة التشبيه، وإعطاء الأمثلة المحسوسة، أكثر مما يقوم على التفكير المجرد والقياس، وعلى هذا تكون وظيفة الشاعر هى إعطاء ضرب من الصدق، قريب من صدق الفلاسفة[5]. وفيما قدمنا من أقوال الشعراء نماذج كثيرة من الصور التي قامت على التشبيه، والتي يتبين فيها مصداق ما ذكرناه من أقوال النقاد.

أما الاستعارة، فهي وسيلة للتعبير عن موقف المتكلم من الموضوع الذي يتحدث

(١) نفســـــه ص ١٤٨. وديوانه ص ٢٥٧.
(٢) المصدران نفسها ص ٢٥٦، ص ٢٧٩.
(٣) الفن ومذاهبه فى الشعر العربى ص ١٤٥.
(٤) نقد النثر ص ٥٨.
(٥) دراسة الأدب العربى ص ٣٢٨.

عنه، أو من الجمهور الذى يتحدث إليه، وهى الوسيلة العظمى التى يجمع الذهن بوساطتها فى الشعر أشياء مختلفة لم توجد بينها علاقة من قبل، وذلك لأجل التأثير فى المواقف والدوافع، و ينجم هذا التأثير عن جمع هذه الأشياء، وعن العلاقات التى ينشئها الذهن بينها، فهى وسيلة شبه خفية، يدخل بواسطتها فى نسيج التجربة عدد كبير من العناصر المتنوعة[1].

ولأن الاستعارة ــ بطبيعتها الفنية ــ أكثر تعقيداً من التشبيه، فقد كان ورودها فى أشعار هذه النقائض أقل كثيراً منه، إذ لم يكن لدى الشعراء فرصة للتأني وإعمال الفكر، لإقامة هذه العلاقات بين الأشياء، وصياغتها فى تركيب يجمع العناصر الفنية التى تتطلبها الاستعارة، ولذا نجد الاستعارات عندهم ــ على قلتها ــ ليس فيها جديد مبتكر، فهي سابقة الإعداد والاستخدام فى أشعار الجاهليين، وقد أصبحت صورها ومعانيها التى اكتسبتها متداولة معروفة، لا تحتاج إلى جهد منهم سوى إعادة صياغتها، فمثلاً صورة طحن الرحى للحبوب، هى من الصور المألوفة لديهم فى حياتهم. وكثيراً ما استعارها الجاهليون للتعبير بها عن فتك الحرب بالمقاتلين. وكذلك استعارها شعراء النقائض لهذا المعنى، يقول حسان : [2]

طحنتهمُ، واللهُ يُنفِذُ أمرَه ... حربٌ يُشَبُّ سعيرُها بضرام

و يقول كعب بن الأشرف : [3]

طحنتْ رحَى بدر لمَهْلك أهلِه ... ولمثلِ بدرٍ تَسْتَهِلُّ وتَدْمع

و يقول كعب بن مالك : [4]

فلمَّا تلاقَينا ودارتْ بنا الرحَى ... وليس لأمرٍ حمَّهُ اللهُ مَدفع

و يقول ضرار بن الخطاب : [5]

(١) مبادئ النقد الأدبى لريتشاردز ــ ترجمة د. مصطفى بدوى ــ ص ٣١٠.
(٢) السيرة ق ٢ ص ١٨ وديوانه ص ١٠٩.
(٣) السيرة ق ٢ ص ٥٢.
(٤) نفســه ص ١٣٤ وديوانه ص ٢٢٦.
(٥) السيرة ق ٢ ص ٢٥٤.

ومُشـفـقـةٍ تـظُنُّ بـنـا الـظُّنُـونـا   وقـد قُـدْنـا عَـرَنْـدَسـةً طَـحـونـا

فكل هؤلاء الشعراء استخدموا هذه الاستعارة المألوفة لهم دون جهد أو عناء. ونلاحظ في بيت حسان استعارة أخرى في شطره الثاني، ماثلة في صورة شبوب سعير النار وضرامها، التي أخذها ليعبر بها عن شدة الحرب وإهلاكها للناس. وهى صورة تتكرر استعارتها عند الشعراء، وإن تنوعت أساليبها، فتراها عند كعب بن مالك بشكل آخر، حيث يستعير صورة الاصطلاء بالنار، ليعبر بها عن فتك السيوف بالرجال، يقول :[1]

بـأيـديـهـم قَـواضِـبُ مُـرهَـفـاتٌ   يُـزِرْنَ الـمُـصْـطَـلـينَ بها الـحُـتـوفـا

ومن هذه الصور التى استعاروها للحرب أيضاً، صورة الوحش المفترس، الذي يغرس مخالبه فى فريسته ليفتك بها، فنجدها فى قول حسان :[2]

نـسـمُـو إذا الحـربُ نـالـتـنـا مخالبُها   إذا الـزَّعـانـفُ من أظفارها خَشَعوا

ونجدها فى قول كعب بن مالك :[3]

بنو الحربِ إن نَظفرْ فلسنا بفُحَّشٍ   ولا نحـن مِـن أظـفـارِهـا نـتَـوجَّـع

وعلى هذا النحو تكررت صور الاستعارات عندهم، وهي صور مستمدة من البيئة المحيطة بهم، وإذا كان ثمة استعارات جديدة في أشعارهم، فهي التي اقتضتها المفاهيم الإسلامية، ولا نجدها إلا نادراً فى نقائض الشعراء المسلمين، كما فى قول كعب بن مالك :[4]

وأشـيـاعُ أحـمـدَ إذ شـايَـعُـوا   عـلـى الحـقِّ ذى الـنـورِ والمنهـج

فاستعارته لصورة النور هنا ــ معبراً بها عن هداية الحق التي جاء بها الإسلام ــ

(١) نفســه ص ٤٧٩، وديوانه ص ٢٣٥.
(٢) السيرة ق ٢ ص ٥٦٥، وديوانه ص ٢٣٩.
(٣) السيرة ق ٢ ص ١٣٥، وديوانه ص ٢٢٨.
(٤) السيرة ق ٢ ص ١٣٩، وديوانه ص ١٨٧.

مأخوذة من آيات القرآن الكريم، إذ تعدد ورودها فيها بهذا المعنى.

وكما استخدم شعراء النقائض التشبيه والاستعارة فى تصويرهم الفني، استخدموا أيضاً الكناية، إلا أن ذلك كان على قلة مثل الاستعارة، بل أقل منها. والكناية ـــ كما عرفها البلاغيون ـــ لفظ أطلق وأريد به لازم معناه، مع قرينة لا تمنع من إرادة المعنى الأصلي، وأكثر علماء البيان يعدونها من أنواع المجاز، خلافاً لابن الخطيب الرازي، الذي أنكر ذلك، وزعم أنها عبارة عن أن تذكر لفظة وتفيد بمعناها معنى ثانياً هو المقصود[١].

والكناية تعبير لا يراد منه الدلالة الحرفية للألفاظ فى وضعها اللغوي، وإنما هى دلالات يفهم المقصود منها بطريق غير مباشر، إما بطريقة التلازم، أو بطريق المفهوم، أو بطريق السياق. والكناية شأنها شأن الرمزية من حيث الوضوح والغموض، ومرجع ذلك إلى ما تنطوى عليه الرموز اللغوية من المعاني، ومدى ما هناك من صلة بين الرمز ومدلوله، وهي على كل حال لون من ألوان التعبير، يجمل فى موضعه، و يبعث على التفكير وإعمال الذهن[٢]. وهذا ما يفسر لنا سبب قلتها الملحوظة في نقائض السيرة، وهي كالاستعارة في كونها من الصور السابقة الإعداد والاستخدام عند الجاهليين، والتي صارت مألوفة بدلالاتها المعنوية فى المجتمع العربي. فلم يعد يكتنفها غموض، أو تحتاج إلى كد الذهن فى فهمها.

ومن هذه الكنايات التي استخدمها شعراء النقائض، تكنيتهم عن العزة والإباء بارتفاع الأنوف وعلوها، كما فى قول ضرار بن الخطاب :[٣]

بل ضاربين حَبيكَ البيْضِ إذ لحِقُوا   شُمُّ العرانين عند الموت لُذّاع

إذ يعنى بشم العرانين، ارتفاع أطراف أنوفهم، كناية عن عزتهم.

ومنها التكنية عن الصلف والكبرياء بميل الخدود، كما في قول

(١) الأصول الفنية للأدب ـــ د. عبد الحميد حسن ـــ ص ٩٩.
(٢) نفسه ص ٢٠٣.
(٣) السيرة ق ٢ ص ١٤٥.

كنـــانـــة بن عبد ياليل :[1]

وقـد عـلـمـتْ إن قـالـت الحـقَّ أننـا إذا مـا أَبـتْ صُـغـرُ الخـدودِ نُقيـمهـا

فصعر الخدود أي المائلة إلى جهة، هى صورة نراها فى المستكبرين المعجبين بأنفسهم.

ومنهـا الـتـكـنية عن الذلة والخضوع بضراعة الخدود وانكفائها، كما فى قول كعب ابن مالك :[2]

ومَـنْ هـو لم تـتـرك له الحربُ مَفْخراً ومـن خـدُّه يـومَ الـكـريـهـةِ أضـرعُ

ومنهـا الـتكنية عن شدة الغيظ والكمد بشواء اللحم ونضجه على النار، كما فى قول ضرار بن الخطاب :[3]

فـقـولا لـكـعـبٍ يُـثَـنِّـى الـبُـكـا وللـنِّـيْءِ مـن لحـمِـه يَـنْـضَـجِ

ومنهـا الـتـكـنية عن شدة الحرب وكثرة قتلاها، ببرك الناقة بصدرها على الأرض، وحكها بكلكلها حكاً يدوك به كل ما تحته، كما نجد فى قول عبد الله بن وهب :[4]

بجـمـعـكـمُ وجمـعِ بـنـى قـيـسٍّ نحـكُّ الـبـركَ كـالـورقِ الـخَـبـيـط

فـمثل هـذه الـكنايات جاءت متناثرة فى نقائض السيرة على قلة، مما يدل على أن الـشـعـراء كانوا يسوقونها عفوياً دون جهد أو معاناة، وأنهم كانوا يستمدونها من تراثهم الجاهلي، و يصوغونها حسب ما يقتضي الموقف.

واسـتـخـدم الـشـعـراء كذلك بعض ألوان البديع، وخاصة الطباق والجناس، ولكن ظـروفـهـم الـتـي عـرفناها، لم تكن تتيح لهم تثقيف أشعارهم وتزيينها، ولذلك كانت هـذه المحـسـنـات الـبديعية قليلة فى أشعارهم، وتأتي بصورة عفوية، لا تكلف فيها ولا

(١) نفســـه ص ٤٨١.
(٢) نفســـه ص ١٣٥، وديوانه ص ٢٢٨.
(٣) السيرة ق ٢ ص ١٤٠.
(٤) نفســـه ص ٤٧٧.

تصنع، على نحو ما نجد من طباق فى قول ابن الزبعري :[1]

وَدُّوا لو ان الأرضَ ينشَقُّ ظهرُها ... بهم وصبورُ القومِ ثَمَّ جَزُوعُ

فقد طابق بين لفظتي صبور وجزوع.

ومثل ذلك في قول عباس بن مرداس :[2]

مُعاناً بأمرِ اللهِ يُزجى إليكمُ ... سوانحَ لا تكبُو له وبَوارِحا

فقد طابق بين لفظتي سوانح و بوارح. هذا إلى ما فيها من جناس ناقص.

ومن الجناس ما نجده فى قول كعب بن مالك :[3]

حوشُ الوحوشِ مُطارةٌ عند الوغَي ... عُبْسُ اللقاءِ مُبينةُ الإنجاب

إذ جانس بين لفظتي حوش والوحوش.

ومثل هذه المحسنات البديعية لا تكاد تظهر فى نقائض السيرة إلا بين الحين والحين، بل تخلو منها كثير من هذه النقائض خلواً تاماً، مما يؤكد لنا قلتها وعفويتها.

وتبقى أمامنا قضية هامة تدور حول الأفكار والمعاني، التي تضمنتها هذه النقائض، وتأثرها بالإسلام، وهل كان هذا التأثر عامل ضعف، أم عامل قوة وإثراء؟. وقضية أثر الإسلام فى الشعر عامة، أثيرت من قديم، منذ طرحها ابن سلام فى طبقاته[4]، وتناولها كثير من الباحثين حديثاً بالتفصيل أو الإيجاز، ولا يتيح لنا المجال مناقشة آرائهم، ولكننا نحاول التركيز على مايخص موضوعنا، لنصل إلى خلاصة القول.

---

(١) نفســـه ص ١٤١.

(٢) نفـــــــه ص ٤٣١. والسوانح: جمع سانح، وهو ما جاء عن يمينك إلى يسارك، وولاك جانبه الأيسر، وهو إنسيُّه. والبوارح: جمع بارح، وهو ما جاء عن يسارك إلى يمينك، وولاك جانبه الأيمن وهو وحشيّه. والمقصود بها هنا الخيل.

(٣) نفســـه ص ٢٦٠، وديوانه ص ٧٩. والحوش: النافرة، يقصد أنها تنفر الوحوش وتطردها.

(٤) انظر قوله فى كتابه طبقات الشعراء ص ٢٢.

وقد لاحظنا في عرضنا لنقائض السيرة خلال مراحلها المتتابعة، أن التأثير الإسلامى واضح فيها كل الوضوح، فهو تأثير مباشر فى نقائض الشعراء المسلمين، وهو من ناحية أخرى تأثير غير مباشر فى نقائض خصومهم، بمعنى أن هذه الأحداث والمواقف التى شدوا شدا إلى القول فيها، هي أساساً مردودة إلى دعوة الإسلام والجهاد فى سبيلها. وما رافقها من تغيرات عقائدية وروحية وفكرية، اضطرتهم إلى مجابهتها بإعمال الذهن والفكر إلى جانب القوة والحرب. فكان هذا هو المجال الذي دارت فيه نقائضهم.

أما التأثير الإسلامي المباشر في أشعار المسلمين، فقد ذهبت الآراء حوله في اتجاهين: اتجاه يراه عامل إضعاف للمعاني والأفكار، كما كان عامل إضعاف للأساليب والألفاظ فيما عرضنا له من خصائص الشكل. واتجاه يراه عامل قوة وإثراء، وتطوير لمضامين الشعر العربي. وقد تبين لنا من خلال بحث أشعار النقائض، أن هذا التأثير الإسلامي هو فى حقيقته إضافات جديدة أثرت الشعر العربي، ووسعت أمام الشعراء مجالات المعاني والأفكار، بعد أن كانت محصورة فى نطاق محدود عند الجاهليين، وصحيح أن الإسلام حظر على شعرائه الخوض فيما حرمه الله من فاحش القول. ولكن هذا الحظر كان فى الوقت نفسه توجيهاً إلى السبيل الأفضل، ليحلق الشعراء فيه، ويأتوا بالجديد المبتكر، وهم بذلك قد خسروا قليلاً في مقابل كثير كسبوه.

وما قيل عن ضعف شعر حسان الإسلامي، ليس حكماً يمثل الاتجاه العام لدى العلماء والنقاد القدماء، أو أنه لم يعد موضع خلاف بين النقاد المحدثين، كما صور بعضهم[١]. ولكنه فى رأي آخرين يعد فى مناقضاته مع شعراء المشركين أرقى فنياً من مناقضاته مع شعراء الأوس فى الجاهلية، إذ تجلى فيها تنسيق الأفكار، الذي افتقدناه في مناقضاته الجاهلية، كما تجلت فيها براعة التصرف في المعاني الهجائية لاتساع مجال القول أمامه، وافتتانه في التصوير[٢].

---

(١) الشعراء المخضرمون ــ د. عبد الحليم حفنى ــ ص ٢٤٠.

(٢) حسان بن ثابت ــ حياته وشعره ــ د. إحسان النص ص ٢٨٢ ــ ٢٨٣.

وفي شهادة وفد تميم له بالتفوق على شاعرهم[1]، حين رد عليه مناقضاً له، دليل من عصره نفسه، على أن الإسلام لم يضعف شعره، وإنما أثراه وأضفى عليه ثياباً جديدة من المعاني والمثل التي افتقدها الجاهليون، وهذه المعاني الإسلامية تشكل أساساً تقوم عليه مناقضته، وعماداً بنى عليه مفاخرته، حيث يبدؤها بقوله:[2]

إن الذوائبَ من فِهرٍ وإخوتَهم ... قد بيَّنوا سنَّةً للناس تُتَّبَعُ
يرضَى بها كلُّ من كانت سريرتُه ... تقوَى الإلهِ وبالأمرِ الذى شَرَعوا

وفيها يقــول:

أعِفَّةٌ ذُكرتْ فى الوحيِ عفَّتُهمْ ... لا يطبَعون ولا يُرْديهم طَمَع
لا يبخَلُون على جارٍ بفضلِهمُ ... ولا يمسُّهم من مَطْمعٍ طَبَع
أكرمْ بقومٍ رسولُ الله قائدهمْ ... إذا تفاوَتَت الأهواءُ والشِّيَع

فهو لم يقم فخره على العصبية القبلية كما فعل شاعر تميم، وكما كان يفعل الجاهليون، وإنما أقامها على أسس إسلامية، جمعت الإيمان والتقوى والفضائل الخلقية، وفي الوقت نفسه لم تغفل المحامد الجاهلية، التي تعارفوا عليها، وأقرها الإسلام، مثل كرم المحتد والسبق إلى المكرمات، والشجاعة فى القتال، والصبر عند الشدائد، وما إلى ذلك من شيم طيبة زادها الإسلام طيباً، إذ ألبسها ثياب العمل الصالح تقرباً به إلى الله.

وقد أضفى التأثير الإسلامي على نقائض شعرائه سمات تتمثل فى ترتيب المعاني وتسلسل الأفكار وترابطها، وأنهم حققوا بذلك تطوراً أكثر من ذي قبل، إذ كان الشاعر الجاهلي قليل الترتيب وقليل الربط لأفكاره ومعانيه[3]. وفي نقيضة كعب بن مالك العينية الطويلة مثل يؤكد هذه الظاهرة، وهي التي مطلعها :[4]

(١) السيرة ق ٢ ص ٥٦٧.
(٢) نفســه ص ٥٦٤، وديوان حسان ص ٢٣٨ — ٢٣٩.
(٣) الشعر الإسلامى — د. عبد الله الحامد — ص ١٣٨.
(٤) السيرة ق ٢ ص ١٣٢، وديوانه ص ٢٢٢. وانظر عرضنا لهذه النقيضة فى الفصل الثالث ص ٥٩.

ألا هل أتى غسّانَ عنا ودونَهم   من الأرض خرقٌ سيرُه مُتَنَعْنَعُ

وكذلك في نقيضته التي يعرض فيها لإجلاء بني النضير، والتي مطلعها :[1]

لقد خَزِيَتْ بغَدْرَتِها الحُبُور   كذاك الدهرُ ذو صرفٍ يَدُور

أو في نقيضة حسان التي يرد بها على ابن الزبعري في يوم أحد، ومطلعها:[2]

ذهبت يابن الزِّبَعْرَيَ وقعةٌ   كان منا الفضلُ فيها لو عَدَل

وفي غير ذلك من النقائض تتضح هذه الظاهرة، حتى إننا نجدها كذلك في نقائض غير المسلمين من الشعراء، إذ أنهم كانوا يبذلون جهدهم ليكونوا على مستوى خصومهم.

و يرى الدكتور الجبوري أن الشعراء المسلمين لم يوفقوا فى تمثيل الدعوة الإسلامية وتعاليم الدين الحنيف على الوجه الأكمل، وأن توفيقهم فى ذلك كان بقدر، وإذا جاء المعنى الديني فى القصيدة، يكون محصوراً فى بيت أو أبيات. ولذا نجد استمرار النفس الجاهلي في شعرهم، و يبرر ذلك بقرب عهدهم بالجاهلية، وارتباطهم بما ورثوه عنها[3]. وقوله هذا صحيح ــ إلى حد ما ــ إلا أنه تنقصه الدقة فى التحليل، إذ أن ما يراه من عدم توفيقهم فى تمثيل الدعوة الإسلامية إلا بقدر، قائم على اعتبارهم مكلفين بتمثيل دعوة الإسلام فى أشعارهم كاملة. وهو مطلب ليس مجاله الشعر، ولا يمكننا تصور الشاعر داعية إلى الدين في شعره على الوجه الأمثل، وإلا فقد شعره كثيراً من عناصره الفنية، وتحول إلى ما يشبه النظم التعليمى. أما ورود المعنى الديني في القصيدة محصوراً في بيت أو أبيات، فهذا لا يعني تقصيراً منهم في تمثل الإسلام، لأن الروح الدينية يمكن أن تكون شائعة في القصيدة كلها، نستشفها من خلال عبارات الشاعر وإن لم يصرح بها، ولا تكون قاصرة على البيت أو الأبيات، التي يعبر فيها عن معنى ديني بصورة مباشرة. ولو كان الأمر كما يراه الدكتور

(١) السيرة ق ٢ ص ١٩٩، وديوانه ص ٢٠٣. وانظر عرضنا لهذه النقيضة فى الفصل الرابع ص ٨١.
(٢) السيرة ق ٢ ص ١٣٧، وديوانه ص ٩٣. وانظر عرضنا لهذه النقيضة فى الفصل الثالث ص ٦٤.
(٣) شعر المخضرمين وأثر الإسلام فيه ص ١١٧.

الجبوري، لما حكم رسول الله صلى الله عليه وسلم لشعرائه بإحسان القول، ولحسان خاصة بأنه شفى واشتفى[1].

ولا يغيب عنا أن شعراء الإسلام فى نقائضهم كانت تحكمهم ظروف الأحداث، وما يتداخل فيها من مواقف فردية وقبلية إلى جانب الموقف الديني، هذا بالنسبة لهم أو لخصومهم. وهم فى ذلك كانوا معبرين عن تجربة حية تتسم بالواقعية والصدق. و يستوى معهم فى تلك الظروف والمواقف والسمات خصومهم من شعراء الشرك. ومهما يكن من العسير فى هذه الظروف سرعة الابتكار المعنوي، والتحول من الجاهلية إلى الإسلام في هذا الجانب، فقد غلبت المعاني الدينية على غيرها، ووجد في كلام المتناقضين من المدرستين، معان جاهلية قديمة تدور على الأحساب والأنساب والأيام وما إليها، ومعان إسلامية جديدة، تقوم على الكفر والإسلام والهدى والضلال[2]. وفى ذلك يقول أبو الفرج: «كان يهجو رسول الله صلى الله عليه وسلم ثلاثة رهط من قريش، عبد الله بن الزبعري، وأبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب، عمرو بن العاص، فكان يهجوهم ثلاثة من الأنصار: حسان بن ثابت، وكعب بن مالك، وعبد الله بن رواحة، فكان حسان وكعب يعارضانهم بمثل قولهم، بالوقائع والأيام والمآثر، و يعيرانهم بالمثالب، وكان عبد الله بن رواحة يعيرهم بالكفر، فكان فى ذلك الزمان أشد القول عليهم قول حسان وكعب، وأهون القول عليهم قول ابن رواحة، فلما أسلموا وفقهوا الإسلام، كان أشد القول عليهم قول ابن رواحة»[3].

و يعلق الأستاذ الشايب على هذا الوصف بأنه تغليبي، وليس عاماً ولا دقيقاً، إذ لم يخل شعر حسان وكعب من وصف قريش بالكفر. هذا إلى أن شعراً كثيراً قد ضاع مما هجيت به قريش. كما أن المعاني الدينية عند حسان وكعب كانت فى الغالب مدحاً فى الإسلام ورسوله وشهدائه وجيوشه. وكانت عند ابن رواحة كذلك، وذماً فى اليهودية والنصرانية والوثنية القرشية بوجه خاص[4]. إلا أن ما ينبغي أن

---

(١) الأغانى جـ ٤ ص ٦، وصحيح مسلم جـ ٤ ص ١٤٦، ودلائل الإعجاز ص ١٧.

(٢) تاريخ النقائض، ص ١١٧.

(٣) الأغاني جـ ٤ ص ١٣٧ ط الدار.

(٤) الشعر السياسى ص ٨٠.

نعقب به على ذلك أن نقائض ابن رواحة قد أسقطت كلها تقريباً، فلم يبق منها إلا نقيضة واحدة من ثمانية أبيات، في إجلاء بني النضير. وهي غير خالصة النسبة إلى ابن رواحة، إذ يشاركه في نسبتها كعب بن مالك[1]. ونجدها ــ حسب وصف أبي الفرج ــ أقرب إلى طريقة كعب، ولعل هذا الحذف أو الإسقاط الذي حدث لنقائض ابن رواحة، فيه دليل على صحة وصف أبي الفرج، إذ أن شدة إيذائها لقريش لهجائهم بالكفر، ربما كان هو العامل الرئيسي لحذفها، خاصة وأن جانب المهجوّين من قريش قد آلت إليه الخلافة والسلطان في عهد بني أمية. فكنهم ذلك من إسقاط روايتها.

ولو أن نقائض ابن رواحة هذه وصلت إلينا، وكانت كما وصفها أبو الفرج، لعدلت من نظرة الباحثين في شعر السيرة عامة، وفي نقائضه خاصة، ولقدمت دليلاً قوياً على عمق تمثل المعاني الدينية الإسلامية في الشعر بصورة أوسع مما رأيناه.

وعلى أية حال، فإن ما وصل إلينا من نقائض السيرة النبوية، يمثل مرحلة فنية متطورة في مضامين الشعر العربي، وهي ــ مع قصر المدة التي استغرقتها ــ قد حققت نقلة إيجابية ملموسة على طريق التطوير والتجديد في هذا الفن الأدبي.

---

(١) السيرة ق ٢ ص ٢٠٢. وديوان كعب ص ١٧٦، وديوان ابن رواحة ص ١٣٦.

خـاتمـة

تناولت في هذا البحث، شعر النقائض في السيرة النبوية، تلك الظاهرة الأدبية، التي واكبت حقبة مهمة في تاريخ الدعوة الإسلامية، فيها رفع لواء الجهاد ضد طاغوت الشرك، واكتملت للإسلام أركانه ومقومات مجتمعه الفاضل ودولته المثلى.

وكان شعر النقائض نتاجاً لتفاعلات وصراعات دينية واجتماعية وحربية، لها جذورها الممتدة في الجاهلية، حيث كانت البيئة البدوية بفقرها المادي والعلمي عاملاً مؤثراً في تكوين الفرد والجماعة، وإرساء التقاليد والقيم، التي كان قوامها الاعتزاز بالحرية والكرامة، والانتماء المتعصب للقبيلة، والحفاظ على الأنساب ووحدة القرابة واللحمة. وكان طبيعياً أن تنشب النزاعات والحروب بين هذه التجمعات القبلية، وأن يبرز الشعراء للذود عن قبائلهم، ورد أقاويل خصومها، والإشادة بأمجادها؛ ومن ثم نشأت النقائض بين الشعراء، ومثلت جانباً مهماً في أشعارهم. وكان للمدينة من ذلك نصيب موفور، نتيجة للحروب والأيام التي استعرت بين الأوس والخزرج، ومن شارك فيها من يهود. بينما كانت مكة المكرمة بمنأى عن هذه الحروب إلا فى أيام قليلة، لم ينتج عنها نقائض شعرية تذكر.

وظهرت دعوة الإسلام فى مكة المكرمة، ولقى النبي صلى الله عليه وسلم من قريش كثيراً من العنت والإيذاء، وكثيرا من المعارضة والمجادلة، وكانت آيات القرآن الكريم تنزل عليه بكلمة الحق الفاصلة فيما يثيرونه من مزاعم وتخرصات. واحتدم الجدال سنوات يقدحون فيها أذهانهم لمقاومة دعوته، ويستعينون بأهل الكتاب من يهود فى إثارة التساؤلات التي يظنونها تعجزه، واستمرت المجادلات بعد الهجرة مع يهود المدينة، فكشفت كثيراً من سوءات تاريخهم الزاخر بالعصيان والكفر والمكر الخبيث، كما شملت المنافقين والنصارى، فأظهرت أباطيل ضلالهم. وأدى ذلك إلى صحوة عقلية وفكرية كانت لها آثارها الواضحة فى شعر النقائض.

ونمضي مع النقائض في مراحلها التاريخية المتتابعة، بدءاً بالمرحلة الأولى، وهي

مرحلة إثبات الوجود الإسلامي ــ من العقبة إلى بدر ــ حيث بدأت المناقضة الشعرية بين ضرار بن الخطاب وحسان بن ثابت، بعد بيعة العقبة الثانية، التي أحنقت قريشاً، فخرجت فى طلب المبايعين وأدركت منهم رجلين، تمكن أحدهما من الفرار وقبضت على الثاني، وقال فى ذلك ضرار بيتين من الشعر مهدداً منذراً، فرد عليه حسان ساخراً محقراً. ثم تخرج سرايا المسلمين، وتدور حولها نقائض هى موضع شك قوى، وبعرضها يتكشف لنا انتحالها. ولكن النقائض الصحيحة تظهر إثر بدر حين يبكي ابن الزبعري قتلى قريش، فيجيبه حسان متشفياً مستنكراً، وتدور مناقضات أخرى بين حسان والحارث بن هشام، وبين ضرار بن الخطاب وكعب بن مالك يتكشف فيها موقف الفريقين، وترجح كفة شعراء الإسلام. ويدخل فى الميدان كعب بن الأشرف اليهودي محرضاً قريشاً، فيرد عليه حسان مستهزئاً به وبهم، وتنبري له امرأة من المسلمين، هى ميمونة بنت عبد الله محقرة لشأنه متفاخرة بنصر بدر، ويرد عليها ابن الأشرف هاجياً مصراً على موقفه العدائي. وفى خلال هذه المناقضات تندس نقيضتان منسوبتان لحمزة بن عبد المطلب والحارث بن هشام، وفيهما شك غالب، يزداد رجحانه بما نراه فيهما من ضعف ظاهر.

وننتقل إلى المرحلة التالية وهى مرحلة الحفاظ والثأر ــ بعد بدر إلى أحد ــ حيث تعد قريش عدتها للثأر فى أحد، ويلتقي الجمعان، فتعلو كفة المسلمين فى أول المعركة، ثم ينقلب النصر إلى هزيمة، للتهاون فى تنفيذ أمر النبي صلى الله عليه وسلم. وتقوى دواعي الفخار بالنصر لدى شعراء قريش، فتكثر قصائدهم الزاخرة به، لهبيرة بن أبي وهب وعبد الله بن الزبعري، وضرار بن الخطاب، وعمرو بن العاص، وأبي سفيان بن حرب وهند بنت عتبة. وتحتدم معارك الشعر احتداماً قوياً، بين تفاخر القرشيين، ومباهاتهم بالنصر والأخذ بالثأر، وبين حفاظ المسلمين واعتزازهم بدينهم ونبيه الكريم، ونصرهم السابق فى بدر بعون الله وقوته، وتفهمهم لما وقع فى أحد من حكمة ربانية أوضحتها لهم آيات الذكر الحكيم. وفى هذه المرحلة تتجلى قوة نقائض الجانبين، وتدفقها الحماسي، وكثرتها الظاهرة، حتى إننا نجد بعض القصائد المنفردة التي تحمل ردوداً واضحة على الخصوم، مما يدل على أنها نقائض كان لها ما يقابلها ويناقضها. ولكنها أسقطت أو ضاعت لأسباب تتصل بما تضمنته من تعريض

بالنبي صلى الله عليه وسلم وصحابته الأخيار، أو لتغير مواقف شعراء قريش نتيجة إسلامهم فيما بعد.

وتتلو ذلك مرحلة العداء الجماعي للإسلام ــ بعد أحد إلى الخندق ــ حيث ينجم عداء اليهود للإسلام، فيقتل شاعرهم ابن الأشرف، ويحاصر بنو النضير، ويجبرون على الجلاء، كما أجلى منهم بنو قينقاع من قبل، وتدور حول ذلك بعض المناقضات بين شاعرهم سماك وشاعر الإسلام كعب، كما يقف إلى جانبهم العباس بن مرداس من سليم، ويرد عليه خوات بن جبير الخزرجي وكعب أو ابن رواحة. ويأتي موعد بدر الآخرة، وتتقاعس قريش عن اللقاء، فيسخر منهم حسان ويندد بجبنهم، ويشيد بقوة الإسلام وجيشه، فيجيبه أبو سفيان بن الحارث موازناً بهجاء وفخر، وادعاء بقلب الحقيقة. ويتبع ذلك سعي اليهود لتجميع القوى ضد الإسلام، منهم ومن قريش وبعض القبائل. ثم يخرجون إلى المدينة، حيث استعد لهم المسلمون بحفر الخندق، فيحاصرونها شهراً أو يزيد، وفى أثناء ذلك يغرون يهود بني قريظة بنقض عهدهم مع المسلمين والانضمام إليهم. وينتهي الأمر بنصر من الله عزيز، فيسلط عليهم ريحاً عاتية تفرق جموعهم. ويفتك المسلمون بقريظة لغدرها الخطير. وتدور حول هذه الأحداث مناقضات بين شعراء قريش: ابن الزبعري وضرار وأبي سفيان بن الحارث، ومعهم من يهود جبل بن جوال الثعلبي من جانب، وبين شاعري الإسلام حسان وكعب من جانب مقابل، وفيها تأخذ الأحداث مكانها، كل فريق يراها برؤياه، وتتجلى الرؤية الإسلامية متأثرة بآيات الله وحكمته ونصرته لدينه.

ثم تأتي المرحلة الأخيرة، وهى مرحلة الفتح والانتشار ــ قبل فتح مكة المكرمة وبعده ــ إذ تنخذل قوى الشرك، وتزداد قوة الإسلام عزة ومنعة، ويكثر معتنقوه من القبائل. ونصل إلى الحديبية وعهدها، الذى ترتبت عليه أضرار بقريش، على عكس ما كانوا يظنون، وتتجمع قوة من المسلمين خارج المدينة، فتهدد أمنها. وتحين الفرصة للقضاء على بقية قوى اليهود فى خيبر. ثم تقع قريش فى شراك عهد الحديبية، إذ تناصر بنى بكر الكنانيين على خزاعة، التى كانت فى عهد النبي صلى الله عليه وسلم، فتستنصره خزاعة فيلبي نداءها. ويتم فتح مكة المكرمة دون قتال، إلا مناوشات يسيرة.

وفي هذه الأحداث تدور بعض المناقضات، فلا يصادفنا في فتح خيبر سوى أبيات من الرجز بين مرحب اليهودي وكعب بن مالك، وفي الأحداث التي تلت الحديبية، وفتح مكة المكرمة تدور مناقضات بين شعراء من قريش ومن كنانة وخزاعة، هم موهب بن رياح وابن الزبعري، ثم الأخزر بن لعط الديلي، وأنس بن زنيم الديلي من بكر، وبديل بن أم أصرم من خزاعة، وهي مناقضات ترتبط بالأحداث التي وقعت.

ويتبع فتح مكة المكرمة إيقاع خالد بن الوليد ببني جذيمة، حيث تدور بعض المناقضات بين امرأة من جذيمة يقال لها سلمى، والعباس بن مرداس والجحاف بن حكيم، وكانا قد أسلما قبل فتح مكة المكرمة، وكذلك بين رجل من جذيمة، ورجل من المسلمين، من بني ليث اسمه وهب، وفيها يعرب كل من الجانبين عن وجهة نظره فيما حدث.

وتعقب ذلك غزوة حنين، حيث ينتصر المسلمون بعون من الله، بعد هزيمة مفاجئة في بدء المعركة. وتنشد في ذلك أشعار كثيرة، منها نقائض قليلة بين شاعرين من المسلمين هما العباس بن مرداس السلمي، وعبد الله بن وهب التميمي، وبين شاعرين مقابلين لهما من هوازن؛ هما عطية بن عفيف وزيد بن صحار، وفيها يظهر التفاخر بقوة جموع الإسلام التي انضوت فيها العصبية القبلية، في مقابل الإصرار على هذه العصبية من جانب هوازن. وبعد حنين يتجه جيش المسلمين إلى الطائف وينشد كعب بن مالك قصيدته الفائية مهدداً ثقيفاً ودوساً، ويجيبه من ثقيف كنانة بن عبد ياليل، مبدياً اعتزازه بقوة قومه ومنعة دارهم.

وتتوالى وفود القبائل بعد ذلك على النبي صلى الله عليه وسلم بالمدينة معلنة إسلامها، وتقوم مناقضة بين شاعر تميم الزبرقان بن بدر، وشاعر الإسلام حسان بن ثابت، حيث يبدو صوت العصبية القبلية خافتاً ضعيفاً، أمام صوت الوحدة الإسلامية، التي تعتز بقوة الإسلام وقيمه وعظمة رجاله، وعلى رأسهم رسوله الكريم صلى الله عليه وسلم. وبذا تنتهي ظاهرة النقائض في شعر السيرة النبوية، بانتهاء دواعيها التي أظهرتها.

وكان لابد من وقفة على الخصائص الفنية، التى تميز بها شعر هذه النقائض، عن غيرها من نقائض الجاهليين، أو نقائض العصر الأموي. فنها خصائص في الشكل، تمثلت في غلبة المقطوعات والقصائد القصيرة، وقلة القصائد المتوسطة والطويلة، وفي بناء النقيضة ونزوع الشعراء إلى الدخول المباشر فى موضوع المناقضة، وتخليهم عن المقدمة التقليدية، إلا فى نقائض قليلة، مع إيجازها فى أبيات معدودة. ومن خصائص الشكل أيضاً، التزام الشعراء بالوزن والقافية فى ردهم على خصومهم، إلا فى حالات قليلة، وميلهم غالباً إلى الأوزان الطويلة كأسلافهم الجاهليين، وظهور بعض العيوب فى موسيقاهم الشعرية، كالزحافات والعلل فى الأوزان، والسناد والإيطاء فى الروى والقافية. ومنها كذلك ما تتسم به ألفاظهم وأساليبهم من سهولة مع الاحتفاظ بجزالتها وإحكام نسجها فى الوقت نفسه. أما ما أثير حول ضعفها وليونتها نتيجة للتأثير الإسلامي، فلم تثبت صحته إلا في مواضع قليلة، لها أسباب أخرى، ولا تشكل سمة عامة.

ومنها خصائص في المضمون تمثلت فى عناصر التصوير من تشبيه واستعارة وكناية، مع كثرة التشبيهات وغلبتها دون غيرها، وارتباط هذه العناصر بالمحسوسات المادية المحيطة بهم، ووجود التكرار فيها نتيجة لضيق دائرة التخيل، والارتباط بتراثهم الجاهلى. كذلك كان استخدامهم للمحسنات البديعية قليلاً وعفوياً، لا تكلف فيه، أما أثر الإسلام فى معانيهم وأفكارهم، فقد رأيناه عامل قوة وإثراء، لا عامل ضعف كما يرى بعض الباحثين. وبهذا كله تتضح القيمة الفنية لهذه النقائض، وتصحح النظرة إليها، وتبرز أهميتها بين أفانين تراثنا العربي والإسلامي العظيم.



المصادر والمراجع

١ ـ الآمدي ـ أبو القاسم الحسن بن بشر:

المؤتلف والمختلف ـ تصحيح كرنكو ـ ط القدسي ١٣٥٤هـ.

٢ ـ إبراهيم أنيس(دكتور):

موسيقى الشعر ـ ط ٥ مكتبة الأنجلو ١٩٧٨م.

٣ ـ ابن الأثير ـ عز الدين أبو الحسن علي بن محمد بن عبد الكريم الجزري:

١ ـ أسد الغابة في معرفة الصحابة ـ ط دار الشعب ١٩٧٠م.

٢ ـ الكامل في التاريخ ـ ط المنيرية ١٣٥٦هـ.

٤ ـ إحسان عباس (دكتور):

فن الشعر ـ دار الثقافة ـ بيروت ط ٣ ـ ١٩٥٩م.

٥ ـ إحسان النص (دكتور):

حسان بن ثابت ـ حياته وشعره، ط ٣ دار الفكر بدمشق ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م.

٦ ـ الأزرقي ـ أبو الوليد محمد بن عبد الله بن أحمد:

أخبار مكة وما جاء فيها من الآثار ـ ط الماجدية بمكة ١٣٥٢هـ.

٧ ـ الأصفهاني ـ أبو الفرج علي بن الحسين بن محمد الأموي:

الأغاني ـ ط دار الكتب، والساسي، وبولاق.

٨ ـ الأصمعي ـ أبو سعيد عبد الملك بن قريب:

الأصمعيات ـ تحقيق هارون وشاكر ـ ط دار المعارف.

٩ ـ البخاري ـ محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة الجعفي:

الجامع الصحيح ـ ط الحلبي ١٣٤٥هـ.

١٠ ـ بروكلمان ـ كارل (مستشرق):

تاريخ الأدب العربي ـ ترجمة د. عبد الحليم النجار ـ ط دار المعارف ١٩٦٨م.

١١ ـ البغدادي ـ عبد القادر بن عمر:

خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب ـ ط بولاق والسلفية.

١٢ ـ البكري ـ أبو المكارم شمس الدين:

الدرة المكللة في فتح مكة المشرفة المبجلة ـ ط مصر ١٢٧٨هـ.

١٣ ــ البلاذري ــ أحمد بن يحيى بن جابر:
أنساب الأشراف ــ تحقيق محمد حميد الله ــ ط دار المعارف ١٩٥٩م.
١٤ ــ بلاشير ــ ريجيس (مستشرق):
تاريخ الأدب العربي ــ ترجمة د. إبراهيم كيلاني ــ ط دار الفكر ــ ببيروت ١٩٥٦م.
١٥ ــ البهبيتي ــ نجيب محمد (دكتور):
تاريخ الشعر العربي حتى آخر القرن الثالث الهجري ــ ط دار الكتب ١٩٥٠م.
١٦ ــ أبو تمام ــ حبيب بن أوس الطائي:
ديوان الحماسة ــ تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد.
١٧ ــ جابي زاده ــ علي فهمي:
حسن الصحابة في شرح أشعار الصحابة ــ ط استانبول ١٣٢٤هـ.
١٨ ــ جاد المولى ــ محمد أحمد جاد المولى وصاحباه:
أيام العرب في الجاهلية ــ ط الحلبي.
١٩ ــ الجاحظ ــ أبو عثمان عمرو بن بحر:
البيان والتبيين ــ تحقيق عبد السلام هارون ــ ط ١٩٤٨م.
٢٠ ــ الجرجاني ــ عبد القاهر بن عبد الرحمن بن محمد:
دلائل الإعجاز ــ ط المنار ١٣٣٠هـ.
٢١ ــ جميل سلطان (دكتور):
عبد الله بن رواحة ــ دار القلم ط ٤.
٢٢ ــ جواد علي:
تاريخ العرب قبل الإسلام ــ ط بغداد ١٩٥١م.
٢٣ ــ الجوهري ــ أبو نصر إسماعيل بن حماد:
تاج اللغة وصحاح العربية ــ تحقيق أحمد عبد الغفور العطار ١٩٥٦م.
٢٤ ــ الحامد ــ عبد الله بن حامد (دكتور):
الشعر الإسلامي في صدر الإسلام ــ ط الإشعاع بالرياض ١٤٠٢هـ/ ١٩٨١م.
٢٥ ــ ابن حجر ــ شهاب الدين أبو الفضل أحمد بن علي العسقلاني:
الإصابة في تمييز الصحابة ــ ط السعادة ١٣٢٣هـ.

٢٦ ـ ابن حزم الأندلسي ـ أبو أحمد علي بن سعيد:
جمهرة أنساب العرب ـ تحقيق عبد السلام هارون ـ ط دار المعارف ١٩٧١م.

٢٧ ـ حسان بن ثابت الأنصاري:
ديوانه ـ تحقيق د. سيد حنفي ـ ط الهيئة المصرية للكتاب ١٩٧٤م.

٢٨ ـ ابن حنبل ـ الإمام أحمد بن محمد بن حنبل:
المسند ـ شرح أحمد محمد شاكر ـ ط دار المعارف ١٩٤٦م.

٢٩ ـ الخازن ـ علي بن محمد بن إبراهيم البغدادي:
تفسير الخازن (لباب التأويل في معاني التنزيل) ط المويلحي ١٢٧٨هـ.

٣٠ ـ الخشني ـ أبو ذر مصعب بن محمد بن مسعود:
شرح السيرة ـ ط هندية ـ مصر ١٣٢٣هـ.

٣١ ـ ابن خلدون ـ عبد الرحمن بن محمد بن خلدون الحضرمي:
المقدمة ـ ط التقدم بمصر، ودار إحياء التراث العربي ببيروت.

٣٢ ـ ابن دريد ـ أبو بكر محمد بن الحسن الأزدي:
الاشتقاق ـ ط السنة المحمدية ١٣٧٨هـ/١٩٥٨م.

٣٣ ـ درمنغم ـ إميل (مستشرق):
حياة محمد ـ ترجمة عادل زعيتر ـ ط الحلبي ١٣٦٨هـ/١٩٤٩م.

٣٤ ـ دروزة ـ محمد عزة:
عصر النبي وبيئته قبل البعثة ـ ط دار اليقظة بدمشق ١٣٦٥هـ/١٩٤٦م.

٣٥ ـ الذهبي ـ أبو عبد الله شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان:
١ ـ تاريخ الإسلام وطبقات المشاهير والأعلام ـ ط القدسي ١٣٦٧هـ.
٢ ـ سير أعلام النبلاء ـ ط معهد المخطوطات مع دار المعارف.

٣٦ ـ الرازي ـ فخر الدين محمد بن ضياء الدين عمر.
تفسير الفخر الرازي ـ ط الشرفية ١٣٠٨هـ.

٣٧ ـ الرافعي ـ مصطفى صادق:
تاريخ آداب العرب ـ ط الاستقامة ١٩٤٠م.

٣٨ ـ ابن رشيق ـ أبو علي الحسن بن رشيق القيرواني:
العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده ـ ط مصر ١٣٢٥هـ/١٩٠٧م.

٣٩ ــ ابن رواحة ــ عبد الله بن رواحة الأنصاري:
ديوانه ــ تحقيق د. حسن باجودة ــ ط دار التراث ١٩٧٢م.
٤٠ ــ روم لاندو:
الإسلام والعرب ــ ط دار العلم للملايين ــ بيروت ١٩٦٢م.
٤١ ــ ريتشاردز:
مبادئ النقد الأدبي ــ ترجمة د. مصطفى بدوي ــ ط المؤسسة المصرية ١٩٦١م.
٤٢ ــ الزبيري ــ أبو عبد الله المصعب بن عبد الله بن المصعب:
كتاب نسب قريش ــ تحقيق ليڤي بروڤنسال ــ ط دار المعارف.
٤٣ ــ الزركلي ــ خير الدين:
الأعلام ــ ط مصر ١٩٥٤ ــ ١٩٥٩م.
٤٤ ــ أبو زيد القرشي ــ محمد بن أبي الخطاب:
جمهرة أشعار العرب ــ تحقيق د. محمد الهاشمي، ط جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية ١٤٠١هـ/١٩٨١م.
٤٥ ــ سامي مكي العاني (دكتور).
١ ــ الإسلام والشعر ــ سلسلة عالم المعرفة ــ الكويت.
٢ ــ دراسات في الأدب الإسلامي ــ ط المكتب الإسلامي ١٩٧٥م.
٤٦ ــ ابن سعد ــ أبو عبد الله محمد بن سعد بن منيع الهاشمي:
الطبقات الكبرى ــ ط دار صادر ــ بيروت ١٣٧٦هـ/١٩٥٧م.
٤٧ ــ ابن سلام ــ أبو عبد الله محمد بن سلام الجمحي:
طبقات فحول الشعراء ــ تحقيق محمود شاكر ط دار المعارف، والسعادة.
٤٨ ــ السمعاني ــ أبو سعد عبد الكريم بن محمد بن منصور:
الأنساب ــ ط ليدن ١٩١٢م.
٤٩ ــ السمهودي ــ نور الدين علي بن عبد الله:
وفاء الوفا بأخبار دار المصطفى ــ ط القاهرة ١٣٢٦هـ.
٥٠ ــ السهيلي ــ أبو القاسم عبد الرحمن بن عبد الله:
الروض الأنف ــ ط الجمالية ١٣٣٢هـ/١٩١٤م.

٥١ ــ سيد حنفي حسانين (دكتور):
حسان بن ثابت شاعر الرسول ــ سلسلة أعلام العرب رقم ٣٠.
٥٢ ــ سيزگين ــ فؤاد:
تاريخ التراث العربي ــ ترجمة د. محمود حجازي وآخرين ــ ط جامعة الإمام محمد ابن سعود الإسلامية ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م.
٥٣ ــ شاكر الجودي:
إلمامة بالرجز في الجاهلية وصدر الإسلام ــ ط بغداد ١٩٦٦م.
٥٤ ــ الشايب ــ أحمد:
١ ــ تاريخ الشعر السياسي ــ ط الاعتماد ١٩٤٥م.
٢ ــ تاريخ النقائض في الشعر العربي ــ نشر مكتبة النهضة المصرية.
٥٥ ــ شوقي ضيف (دكتور):
١ ــ العصر الجاهلي ــ ط ٧ دار المعارف.
٢ ــ العصر الإسلامي ــ ط ٤ دار المعارف.
٣ ــ الفن ومذاهبه في الشعر العربي ــ ط دار المعارف.
٥٦ ــ ابن طباطبا ــ محمد بن أحمد العلوي:
عيار الشعر ــ المكتبة التجارية ١٩٥٦م.
٥٧ ــ الطبري ــ أبو جعفر محمد بن جرير:
١ ــ تاريخ الرسل والملوك ــ تحقيق محمد أبو الفضل ــ ط دار المعارف ١٩٦٨م.
٢ ــ جامع البيان عن تأويل آي القرآن (تفسير الطبرى) تحقيق محمود شاكر ــ ط دار المعارف.
٥٨ ــ طه أحمد إبراهيم:
تاريخ النقد الأدبي عند العرب ــ ط لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٩٣٧م.
٥٩ ــ طــــه حســـين (دكتور):
١ ــ في الأدب الجاهلي ــ ط ٤، دار المعارف.
٢ ــ في الشعر الجاهلي ــ ط دار الكتب ١٩٢٦م.
٣ ــ فلسفة ابن خلدون الاجتماعية ــ ترجمة محمد عبد الله عنان ــ ط لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٣٤٣هـ/١٩٢٥م.

٦٠ ــ ابن طيفور ــ أبو الفضل أحمد بن أبي طاهر البغدادي:
بلاغات النساء وأشعارهن في الجاهلية والإسلام ــ ط مدرسة والدة عباس الأول ١٣٢٦هـ/١٩٠٨م.

٦١ ــ العباس بن مرداس السلمي:
ديوانه ــ تحقيق د. يحيى الجبوري ــ ط بغداد ١٩٦٨م.

٦٢ ــ ابن عبد البر ــ جمال الدين يوسف بن عبد الله بن محمد:
الاستيعاب في معرفة الأصحاب ــ تحقيق البجاوي ــ ط نهضة مصر.

٦٣ ــ ابن عبد ربه الأندلسي ــ أبو عمر أحمد بن محمد:
العقد الفريد ــ تحقيق العريان ــ ط الاستقامة ١٩٤٠م.

٦٤ ــ عبد الحليم حفني (دكتور):
الشعراء المخضرمون ــ ط الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٨٣م.

٦٥ ــ عبد الحميد حسن (دكتور):
الأصول الفنية للأدب ــ ط ٢، الأنجلو ١٩٦٤م.

٦٦ ــ عبد الرحمن خليل إبراهيم:
دور الشعر في معركة الدعوة الإسلامية ــ ط الجزائر ١٩٧١م.

٦٧ ــ عبد العزيز الرفاعي:
كعب بن مالك الصحابي الأديب ــ دار الرفاعي ط ٤.

٦٨ ــ عبد القادر القط (دكتور):
في الشعر الإسلامي والأموي ــ ط النهضة العربية ١٩٧٩م.

٦٩ ــ أبو عبيدة ــ معمر بن المثنى التيمي:
١ ــ نقائض جرير والأخطل ــ ط بيروت ١٩٢٢م.
٢ ــ نقائض جرير والفرزدق ــ ط بريل ١٩٠٥م.

٧٠ ــ العسيلان ــ عبد الله عبد الرحيم (دكتور):
العباس بن مرداس ــ الصحابي الشاعر ــ ط دار المريخ بالرياض ١٣٩٨هـ/١٩٧٨م.

٧١ ــ ابن العماد ــ أبو الفلاح عبد الحي بن العماد الحنبلي:
شذرات الذهب في أخبار من ذهب ــ ط القدسي ١٣٥١هـ.

٧٢ ــ الفيروز أبادي ــ مجد الدين محمد بن يعقوب:
القاموس المحيط ــ ط المصرية ١٩٣٣م.
٧٣ ــ فيليب حتي (مستشرق):
تاريخ العرب ــ ترجمة نافع مبروك ــ ط العالم العربي ١٩٤٩م.
٧٤ ــ القالي ــ أبو علي إسماعيل بن القاسم:
الأمالي ــ ط دار الكتب.
٧٥ ــ ابن قتيبة ــ أبو محمد عبد الله بن مسلم:
١ ــ الشعر والشعراء ــ ط دار المعارف ١٩٦٦م.
٢ ــ عيون الأخبار ــ ط دار الكتب ١٣٤٣هـ/١٩٢٥م.
٣ ــ المعارف ــ ط دار المعارف ١٣٨٨هـ/١٩٦٩م.
٧٦ ــ قدامة ــ أبو الفرج قدامة بن جعفر البغدادي:
نقد النثر ــ ط دار الكتب ١٣٥١هـ/١٩٣٣م.
٧٧ ــ القرطبي ــ أبو عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري:
الجامع لأحكام القرآن (تفسير القرطبي) ط دار الكتب ــ تصوير دار الكاتب العربي ١٣٨٧هـ/١٩٦٧م.
٧٨ ــ القلقشندي ــ أحمد بن علي بن أحمد بن عبد الله:
صبح الأعشى في صناعة الإنشا ــ ط الأميرية ــ تصوير وزارة الثقافة.
٧٩ ــ ابن كثير ــ عماد الدين أبو الفداء إسماعيل بن عمر:
البداية والنهاية ــ ط السعادة ١٣٥١هـ/١٩٣٢م.
٨٠ ــ كعب بن مالك الأنصاري:
ديوانه ــ تحقيق د. سامي مكي العاني ــ ط النهضة ــ بغداد ١٩٦٥م.
٨١ ــ المبرد ــ أبو العباس محمد بن يزيد:
١ ــ الكامل في اللغة والأدب ــ ط ليبزج.
٢ ــ نسب عدنان وقحطان ــ تحقيق الميمني ــ ط القاهــرة ١٩٣٦م.
٨٢ ــ محمد أحمد الغمراوي:
النقد التحليلي لكتاب في الأدب الجاهلي ــ ط السلفية ١٩٢٩م.

٨٣ ــ **محمد الخضر حسين:**

نقض كتاب في الشعر الجاهلي ــ ط السلفية ١٣٤٥هـ.

٨٤ ــ **محمد طاهر درويش (دكتور):**

حسان بن ثابت الأنصاري ــ ط دار المعارف.

٨٥ ــ **محمد عادل الهاشمي (دكتور):**

شعر عصر صدر الإسلام من منظور التصور الإسلامي ــ ط مكتبة المنار ١٤٠٦هـ/١٩٨٦م.

٨٦ ــ **محمد عبد العزيز الكفراوي (دكتور):**

١ ــ تاريخ الشعر العربي في صدر الإسلام وعصر بني أمية ــ ط مصر ١٩٦١م.

٢ــ الشعر العربي بين التطور والجمود ــ ط ٤ دار نهضة مصر ١٩٦٩م.

٨٧ ــ **محمد عويس (دكتور):**

التيار الفني الجاهلي في شعر صدر الإسلام ــ ط الطليعة ١٩٨٠م.

٨٨ ــ **محمد فؤاد عبد الباقي:**

المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم ــ ط دار الفكر ١٤٠٦هـ/١٩٨٦م.

٨٩ ــ **محمد محمد حسين (دكتور):**

الهجاء والهجاءون في الإسلام ــ ط مكتبة الآداب ١٩٤٨م.

٩٠ ــ **محمد النويهي (دكتور):**

وظيفة الآدب ــ ط معهد الدراسات العربية ١٩٦٧م.

٩١ ــ **محمود غناوي الزهيري:**

نقائض جرير والفرزدق ــ رسالة دكتوراة بجامعة القاهرة.

٩٢ ــ **مرجليوث (مستشرق):**

أصول الشعر العربي ــ ترجمة د. يحيى الجبوري ــ ط بيروت ١٩٧٨م.

٩٣ ــ **المرزباني ــ أبو عبيد الله محمد بن عمران:**

١ ــ معجم الشعراء ــ تصحيح كرنكو ــ ط القدسي ١٣٥٤هـ.

٢ ــ الموشح في مآخذ العلماء على الشعراء ــ ط السلفية ١٣٤٣هـ.

٩٤ ــ **المسعودي ــ أبو الحسن علي بن الحسين:**

١ ــ التنبيه والإشراف ــ تصحيح الصاوي ــ ط مصر ١٩٣٨م.

٢ ــ مروج الذهب ــ ط البهية ١٣٤٦هـ.

٩٥ ــ مسلم ــ أبو الحسين مسلم بن الحجاج القشيري:
الجامع الصحيح ــ ط دار الطباعة ١٣٢٩هـ.
٩٦ ــ مصطفى ناصف (دكتور):
دراسة الأدب العربي ــ الدار القومية للطباعة والنشر ــ القاهرة.
٩٧ ــ المقدسي ــ أبو نصر المطهر بن المطهر:
البدء والتاريخ ــ تحقيق هوار ــ تصوير بغداد ١٩٦٢م.
٩٨ ــ المقريزي ــ تقي الدين أحمد بن علي:
إمتاع الأسماع بما للرسول من الأنباء والأموال والحضرة والمتاع ــ ط لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٩٤١م.
٩٩ ــ ابن منظور ــ جمال الدين محمد بن مكرم الأنصاري:
لسان العرب ــ ط بولاق ــ تصوير المؤسسة المصرية العامة للتأليف والأنباء والنشر.
١٠٠ ــ ناصر الدين الأسد (دكتور):
مصادر الشعر الجاهلي ــ ط ٦ دار المعارف ١٩٨٢م.
١٠١ ــ نالينو ــ كارلو (مستشرق):
تاريخ الآداب العربية ــ ط ٢ دار المعارف ١٩٧٠م.
١٠٢ ــ ابن النديم ــ أبو الفرج محمد بن إسحاق:
الفهرست ــ ط المكتبة التجارية ١٣٤٨هـ.
١٠٣ ــ النشار ــ علي سامي (دكتور):
شهداء الإسلام في عصر النبوة ــ ط دار الكتاب العربي ١٣٧٥هـ/١٩٥٦م.
١٠٤ ــ النعمان عبد المتعال القاضي (دكتور):
شعر الفتوح الإسلامية في صدر الإسلام ــ ط الدار القومية ١٣٨٥هـ/١٩٦٥م.
١٠٥ ــ نوري حمودي القيسي (دكتور):
شعر الحرب حتى القرن الأول الهجري ــ ط عالم الكتب ١٤٠٦هـ/١٩٨٦م.
١٠٦ ــ النويري ــ شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب:
نهاية الأرب في فنون الأدب ــ ط دار الكتب ١٩٢٩م.
١٠٧ ــ النيسابوري ــ أبو الحسن علي بن أحمد الواحدي:
أسباب النزول ــ ط الحلبي ١٣٨٨هـ/١٩٦٨م.

١٠٨ ــ ابن هشام ــ أبو محمد عبد الملك بن هشام بن أيوب الحميري:

السيرة النبوية ــ تحقيق مصطفى السقا وآخرين ــ ط الحلبي ١٣٧٥هـ/١٩٥٥م.

١٠٩ ــ الهمداني ــ أبو محمد الحسن بن أحمد بن يعقوب:

صفة جزيرة العرب ــ ط السعادة ١٩٥٣م.

١١٠ ــ هوروفيتس ــ يوسف:

المغازي الأولى ومؤلفوها ــ ترجمة د. حسين نصار ــ ط الحلبي ١٣٦٩هـ/١٩٤٩م.

١١١ ــ الواقدي ــ أبو عبد الله محمد بن عمر:

المغازي ــ ط كلكتا ١٨٥٥م.

١١٢ ــ وفاء فهمي السنديوني (دكتورة):

شعراء صدر الإسلام وتمثلهم للقيم الاجتماعية ــ ط دار العلوم ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م.

١١٣ ــ ولفنسون ــ إسرائيل:

تاريخ اليهود في بلاد العرب ــ ط لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٩٢٧م.

١١٤ ــ وليد قصاب (دكتور):

ديوان عبد الله بن رواحة ودراسة في سيرته وشعره ــ ط دار العلوم ١٤٠٢هـ/١٩٨٢م.

١١٥ ــ ياقوت ــ شهاب الدين أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله الحموي:

١ ــ إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب (معجم الأدباء) ط وزارة المعارف.

٢ ــ معجم البلدان ــ ط السعادة ١٣٢٤هـ/ ١٩٠٦م.

١١٦ ــ يحيى الجبوري (دكتور):

١ ــ الإسلام والشعر ــ ط النهضة ــ بغداد ١٩٦٤م.

٢ ــ شعر المخضرمين وأثر الإسلام فيه ــ ط ٢ مؤسسة الرسالة ١٤٠١هـ/١٩٨١م.

الفهرس

الموضوع | الصفحة


FARAZDAK
مطابع الفرزدق التجارية
تلفون: ٤٨٢٤٨٦٥ - ٤٨٢٤٩٨٣
الرياض







مطابع الفرزدق التجارية - الرياض
تلفون : ٤٨٢٤٨٦٥ - ٤٨٢٤٩٨٣